محمود شلبي

حياة موسى

دار الجيل
بيروت

حيـــاة موسى

الطبعة الثانية
١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م

الاهـــداء

اللـــهم . . . منـــك . . . وإليـــك

محمـــود شلبي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

يا رب .. لك الحمد .. كما ينبغي .. لجلال وجهك .. وعظيم سلطانك ..

وأصلي .. وأسلم .. على إمام المرسلين ..

وبعـــد ..

فإن « حياة موسى » أكبر مني .. وأعلى من فهمي .. وشيء لا أستطيعه .. ولا ينبغي لي أن أتوجّه اليه ..

ولكن .. يا ربّ .. هو عليك هيّن ..

وبك يُستطاع .. ومنك يُستطاب ..

فاللهم كما مننتَ عليّ .. بحياة آدم .. و « حياة إبراهيم » .. و « حيـــاة يوسف » .. و « حياة داوود » .. و « حياة سليمان » .. و « حياة أيوب » .. و « حياة يحيى » .. و « حياة رسول الله » ..

امنـُن .. عليّ .. بحياة موسى ..

واجعل اللهم .. فيها .. ما لا عينٌ رأت .. ولا أذن سمعت .. ولا خطر على قلب بشر ..

انك أنت الوهّاب ..

آمـــين !..

محمـــود شلبي

١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م

يُذبّح أبناءهم ... ويستحيي ...
نساءهم !؟...

مهما يُقال ...

في وصف الإجرام ..

فإن إجرام ذلك المجرم اللعين .. الملقب « فرعون » ..

تجاوز كل وصف .. وفاق كل تصور ..

إجرام تضجّ منه السماء .. وتصرخ منه الأرض ..

صوّره كتاب الله العزيز .. في تركيز هو أجمع تركيز :

« يُذبّح أبناءهم .

« ويستحيي نساءهم » !..

إذا كان المولود ذكراً يُذبح فوراً .. أمام أمّه !..

وإذا كان المولود أنثى .. تُترك ولا تُذبح .. أي تستحيي.. تترك حيّة !.

لماذا .. لينقرضوا على مر السنين ..

وأما البنات .. فيستعملن للمتعة والفجور !.

اجرام ليس كمثله اجرام ..

وهلع هنا .. وجزع هناك ..

ان شهدت أرض مصر .. جبّاراً .. يُذبّح المواليد ..

وهو يقهقه عالياً .. ويعلن في كبر واستكبار :

« أنا ربّكم الأعلى » !..

وإنا .... فوقهم ... قاهرون !!...

الجبروت ...

أو الديكتاتورية .. بلغة العصر ..

لم تبلغ من الوقاحة .. في أحد من الناس مثلما بلغت .. في هـــذا الحقير الدعيّ .. الملقب « فرعون » ..

وهو نموذج فذّ .. جدير أن يعكف الدارسون والباحثون .. على تحليل شخصيته .. من جوانبها وأعماقها ..

لأنه يُمثل تمثيلا صحيحاً .. نفسية الجبابرة .. أو الديكتاتوريين .. في كل عصر وحين ..

فهو ظاهرة متكررة في التاريخ .. تظهر في كل حـــاكم مجرم يتسلط على الشعب .. ويفعل به ما يشاء ..

ولعل هذا هو السر في افاضة كتاب الله .. في سرد قصة فرعون وموسى .. أكثر من أي قصة أخرى ..

لأنها قصة الصراع الخالد .. بين الحق والباطل .. بين أقصى الحق ممثلا في موسى .. نبي الله .. وأقصى الباطل ممثلا في فرعون .. عدو الله ..

في مواضع كثيرة جداً .. من القرآن العظيم .. نجد قصة موسى وفرعون .. تفصيلا أو إجمالا .. إشارة أو عبارة .. من بعيد أو من قريب ..

تنبيهاً للناس جميعـــاً .. حاكمين ومحكومين .. إلى خطورة ظاهرة الديكتاتورية ..

وأنها أخطر مرض يصيب الشعوب ..

وويلٌ ثم ويلٌ .. لشعب يحكمه ديكتاتور .. أو طاغية .. أو جبّار عنيد !.

انه سوف لا يقبل منهم .. إلا أن يسجدوا له ..

وسوف لا يراهم إلا عبيداً عنـــده .. عليهم أن يسبحوه .. ويعظموه .. ويركعوا ويسجدوا !.

عليهم .. إذا قال .. قالوا .. آمين ..

وإذا أشار .. تسارعوا الى حيث يشير ..

وإذا ثار .. تسابقوا إلى ما يُرضيه ..

يحولهم الى نعـــاج .. كبيرهم وصغيرهم .. ويدمر آدميتهم .. ويحطم معنوياتهم .. ويُذهب كيانهم ..

وسوف نرى منطق هذا الفرعون الحقير .. في ثنايا هذا الكتاب .. منطق آلهة لا منطق بشر ..

منطق رب .. لا منطق عبد ..

ومن قبائح هذا المنطق أن رجال حاشيته المنافقين حين قالوا له :

« وقال الملأ من قوم فرعون » ..

أي رجال الحاشية .. وكبراء القصر ..

« أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض .

« ويذرك وآلهتك » ؟!.

أتسكت على هؤلاء .. وقد اجترءوا على ما اجترءوا عليه ؟!.

فماذا كان منطق اللعين ؟!.

« قال :

« **سنُقتّل أبناءهم** .

« **ونستحيي نساءهم** » ..

حتى هنا منطق مجرم .. عزم على أقبح أنواع الإجرام ..

حتى هنا .. هو بشر .. جبّار ..

ولكن هذا .. لا يُرضيه ..

انه يريد أن يتأله .. ويرتفع الى إله ..

ومن هذا الإحساس الحارق .. الذي يتلظى في بنيانه .. قال :

« **وإنا فوقهم قاهرون** » !.

لقد تسربل اللعين سربال الألوهية ..

فصدرت عنه تلك البغيضة .. التي لا ينبغي ان تصدر إلا عن إله ..

ثم انظر الى التعبير .. وإنا .. لم يقل .. إني .. ولكن « إنا » .. المذكور يتكلم بعظمة الجمع !.

فوقهم ؟!. لم يقل « عليهم » وإنما فوقهم ..

انه هناك . في أعلى .. وهم تحت .. في أسفل !.

قاهرون ؟!. حين تكلم الله عن نفسه قال « **وهو القاهر فوق عباده** » ..

الله يقول عن نفسه « **القاهر** » ..

أما هذا الدعيّ فيقول عن نفسه « **قاهرون** » !.

هذا إجرام ما بعده اجرام ..

كائن تافه .. يبول ويتغوط .

كائن مُنتن .. يتعالى .. ويتمالى .. وتبلغ به الحقارة .. أن يُعبر عن نفسه مثل هذا التعبير ..

انها ظاهرة هي اخطر الظواهر .. في التركيب البشري ..

ظاهرة الجبروت .. أو الديكتاتورية ..

وهـــذا ما دعاني الى استباق الحوادث .. والبدء بتسجيل شيء عن تلك الظاهرة .. في مفتتح ذلك الكتاب ..

لتنبيه القارىء .. انه أمام أمر خطير .. خطير .. غاية الخطورة ..

أمام أضخم قصة في التاريخ .. قصـــة الصراع بين أقصى الحق .. وأقصى الباطل ..

بين رسول الله .. موسى ..

وعدو الله .. فرعون !.

تبدأ القصة ... من هناك ...

من يوسف ؟!...

الصعوبة .. كل الصعوبة ..

والثقل .. كل الثقل ..

والعسر .. كل العسر ..

والحمل .. كل الحمل ..

ليست في النبوة .. ولا في الرسالة ..

فلو ان النبوة أو الرسالة بقيت شيئاً لاهوتياً .. ونظرية فلسفية.. يثرثر بها المثرثرون .. ويلوكها المتجادلون ..

ما كانت هناك صعوبة ..

وإنما الصعوبة كلها .. ان تواجه الناس بالنبوة والرسالة ..

ان تدعو الناس .. ومنهم الحمير .. والبغال .. والخنازير .. والجعارين .. واسفل من ذلك ..

ان تواجه هذه النوعيات .. وتدعوهم .. ألى الجمال .. والسمو .. والأخلاق .. والايثار .. والتراحم .. والتعاون .. والتضحية ..

وهم أنانيون .. مجرمون .. أفاكون .. أغبياء ..

وها هنا الثقل الرهيب .. والعسر الشديد ..

الذي يعانيه .. كل نبي .. وكل رسول ..

حين يُلقي عليه ربه الرسالة .. ويأمره بدعوة الناس اليها ..

وهذا هو بلاء الأنبياء الأعظم ..

الذي لو أُلقي على جبل .. لتفتت وتلاشى .. من هول ما ألقي عليه !.

ولكن الأنبياء والرسل .. يحملون ما حُمِّلوا ..

لأنه أمر ربهم .. وحتم عليهم ان يحملوه !.

ومن هنا كان الأنبياء والرسل .. أعظم خلق الله جميعاً ..

لأن بلاءهم اعظم بلاء ..

وحملهم أثقل الاحمال !.

« الذين يُبلغون رسالات الله ..

« ويخشونه .

« ولا يخشون أحداً إلا الله » !.

العظماء .. أعظم العظماء ..

مَن هم ؟!.

الذين يُبلِّغون رسالات الله ؟!.

لا أحد أعظم منهم .. لأنه لا احد حمله اثقل من حملهم !.

أنا اعلم بهم .. وبما يحملون ..

ألقيت عليهم .. ثقلا .. تعجز السماوات والارض .. ان تحمله ..

وهم حملوه .. وأدُّوه .. وجاءوني .. وليس في ايديهم من الدنيا .. من شيء !.

« إنَّا سنلقي عليك قولا ثقيلا » .

« قل لا أسالكم عليه أجراً » !.

كل الناس تعمل نظير العوض .. إلا هؤلاء الانبياء ..
يعملون .. لا يريدون دنيا .. ولا آخرة ..
وإنما يريدونني .. أنا ؟!.
ما اعظمهم .. ما اكرمهم .. ما اجلهم !.
سوف اعطيهم .. واعطيهم ..
انا وحدي .. الذي يعلمهم ..
أنتم لا تعلمون عنهم شيئا !.
« ولسوف يعطيك ربك فترضى » !.
ما عملوا لأنفسهم .. قط ..
وإنما لخير الناس .. ولخير اممهم .. فأي عظمة تبلغ الى مقاماتهم ؟!.
وبعد .. هذه موجة عنيفة .. نفجرها بين يدي هذا الفصل ..
لتهز اعماقنا هزا ..
ونحن على ابواب موسى ..
ذلك الكبير من كبراء الانبياء .. عسى ان نستطيع فهم شيء من عجائب الكليم !.
ثم نقول .. تبدأ القصة .. من هناك .. من يوسف ..
منذ ان قال لاخوته : « واتوني بأهلكم اجمعين » !.
وإليك المشهد مجملا كما سجله الكتاب العزيز :
« اذهبوا بقميصي هذا فالقوه على وجه ابي يأت بصيرا واتوني باهلكم اجمعين » .

دعوة عامة .. من رئيس وزراء مصر آنذاك .. من الرجل الآمر الناهي .. الذي يجلس على خزائن الأرض .. إلى اخوته أن يعودوا اليه .. ومعهم والدهم.. وجميع أهلهم .. رجالاً ونساءً ..

ويوسف يتكلم بصفته صاحب السلطة الفعلية في البلاد ..

فما كان المَلك .. إلا مَلكاً دستورياً ..

وإنما السلطة الفعلية في يد يوسف[1] ..

« ولما فصلت العير قال أبوهم اني لأجد ريح يوسف لولا ان تفندون » .

نبي يجد رائحة نبي ؟!.

من بُعد كبير .. وهذه صفة روحية من صفات الأرواح ..

يشم بعضها ريح بعض !.

فماذا قال أهل الحجاب ؟!.

« قالوا تا لله إنك لفي ضلالك القديم » ؟!.

هكذا .. يصفون نبياً كريماً !.

فما رعوا للأبوة حرمة .. وما رعوا للنبوة تكريماً !.

وإنهم ليقسمون على ذلك **« تا لله »** ؟!.

قضية مفروغ منها عندهم .. أن أباهم ينتقل من تخريف إلى تخريف !.

لقد آذوا يعقوب أذىً شديداً !.

« إني لأجد ريح يوسف » ؟!.

جمالها عجيب ؟!.

انه يشم عبير يوسف ..

---

(١) راجع تفصيل ذلك في « حياة يوسف » .

يشم أزكى رائحة .. رائحة الجمال إذا تجلى !.

ولكن أنّى .. لهؤلاء أن يفهموا ذاك .. ثم أنّى ؟!.

ان الانبياء .. غرباء .. حتى عن أولادهم !.

« فلما ان جاء البشير القاه على وجهه فارتد بصيرا قال الم اقل لكم اني اعلم من الله ما لا تعلمون » ؟.

لغتهم .. أسيادي .. وقرة عيني .. الأنبياء .. أجمل لغة .. وأحلى تعبير !.

ما جازاهم بقولهم قولاً غليظاً .. وإنما سما إلى أعلى وقال : « إني أعلم من ما لا تعلمون » ؟!.

وليفهموا منها .. أولئك الأبناء ما يفهمون !.

فإنها من جوامع الكَلِم ..

تموج منها بحار المعرفة ..

وتتفجر منها آلافُ النواميس الإلهية ..

ان الخلْق مراتب متراكبة .. بعضها فوق بعض «وفوق كل ذي علم عليم» !.

الأدنى لا يرى الأعلى .. ولكن الأعلى يرى الأدنى .

فالأبناء أدنى .! فهم لا يرون أباهم .. « انك لفى ضلالك القديم » ..

والأب النبي أعلى .. فهو يراهم أجمعين « أعلم من الله ما لا تعلمون » ..

وما أنْ مسّ القميص وجه يعقوب « ألقاه على وجهه » حتى رجع بصيراً .. أي في أتم مراتب الإبصار !.

شمّت الروح .. الروح !.

وشميم الأرواح .. لغة .. فوق لغاتنا .. يا أهل الحجاب !.

اللهم صلّ وسلم . وبارك .. وبلّغ تحياتنا وصلواتنا .. اليهم أجمعين !.

« قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين .

« قال سوف أستغفر لكم ربي انه هو الغفور الرحيم » ؟!.

حوار .. بين أبناء خاطئين ..

وأب نبي كريم !.

ووعد من نبي .. والأنبياء لا يخلفون الميعاد !.

ثم ماذا ؟!.

ثم شرع الجميع .. يعقوب .. وزوجه .. وأبناؤه .. وبناته .. وأبناء أبنائه .. وأبناء بناته .. وعبيدهم .. وخدمهم ..

بدءوا جميعاً .. في الاستعداد للرحيل إلى أرض مصر ..

وخرجوا وعلى رأسهم يعقوب .. بضع مئات .. ودخلوا مصر .. « إن شاء الله آمنين » ..

وخرج الملك .. وفي رفقته رئيس الوزراء .. والمسئولون .. إلى حدود مصر ..

واستقبلوا الشيخ النبي .. ومن معه .. أحسن استقبال .. حتى يتم استقبالهم استقبالاً رسمياً ..

« فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين » .

هذا هو الاستقبال الرسمي .. للشيخ النبي .. ومن معه ..

« آوى اليه أبويه » ؟!.

خصهم .. أبوه .. وامرأة أبيه ..

بتكريم فوق العادة .. فوق تكريم سائر من معهم ..

تكريم الإبن النبي .. للأب النبي ..

تكريم تجلى فيه إحسان الأنبياء .. وما أدراك ما إحسان الأنبياء ؟!.

« ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجّداً وقال يا ابتِ هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد احسن بي إذ اخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد ان نزع الشيطان بيني وبين إخوتي ان ربي لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم » .

واستتمت النعمة .. والتقى الوالد والولد .. بعد أربعين عاماً أو يزيدون – في قول –

« وجاء بكم من البدو » ؟!.

من هنا تبدأ القصة ..

من تلك اللحظة .. يوم دخل يعقوب مصر على رأس أولاده وأحفاده .. في عهد يوسف ..

حيث كانت المقدرات كلها .. في يديه ..

« رب قد آتيتني من المـُلك .

« وعلمتني من تأويل الاحاديث .

« فاطر السماوات والارض .

« أنت وليي في الدنيا والآخرة .

« توفني مسلماً .

« والحقني بالصالحين » !.

من تلك اللحظة .. بدأت القصة .. قصة بني يعقوب .. أو بني إسرائيل .. في مصر ..

منذ دخلوها .. آمنين .. مُكرمين .. بضع مئات .. في عهد يوسف ..

الى أن تكاثروا في مصر .. حتى بلغوا نحو سبعمائة وخمسين ألفاً .. حين فروا منها .. وعلى رأسهم موسى ..

وكانت قصة يا لها من قصة ؟!.

أحداثها عريضة .. ومشاهدها عجيبة .. ومناظرها مثيرة ..

كما سوف نشهد في ثنايا الكتاب .. هذا الكتاب !.

ولقد مننا ... على موسى ... وهارون ؟!...

الهناء .. كل الهناء ..

لمن كان عطاؤه .. من مرتبة المنّة ..

والعتب كل العتب ..

لمن كان رزقه .. ناتجاً عن العمل !.

ذلك ان عطاء المنة .. لا حساب عليه ..

ورزق العمل .. يُحاسب عليه .. من أين اكتسبه .. وفيم أنفقه ؟!.

أما عطاء المنة .. فلا حساب .. « هذا عطاؤنا .. فامنُن .. او أمسك .. بغير حساب » ؟!.

لماذا ؟. لأن أهل المنة .. أهل الإحسان .. تجاوزوا مراتب التلون .. وصعدوا إلى مراتب التمكين .. فأتاهم إحساناً بإحسان . هل جزاء الاحسان إلا الاحسان » ؟!.

فإذا فهمنا هذا دخلنا هذا .. دخلنا الى الكوكب المنير .. الذي اسمه موسى .. عليه السلام ..

فأدهشنا منه .. أمر عجيب ..

تأمّل معي قوله سبحانه :

« ولقد مننا على موسى وهارون » ؟!.

ها هنا .. سر مكنون ؟!.

مَنَنّـا ؟!.

موسى .. مِنـّة .. من الله ..

ومتى كان مِنـّة .. فسوف نمنّ عليه .. ونمنّ ؟!.

بل وعلى أخيه .. الذي سوف يصاحبه .. « وهارون » ؟!.

سوف نقلبه .. من مِنـّة .. إلى منـّة .. من مولده .. إلى موته ..

حياته .. سلسلة .. من المِنن .. وأمواج من لطائف المِنن !.

كيف هذا .. وما دليل هذا ؟!.

« ولقد مننا .

« عليك .

« مرة اخرى .

إذاً هناك .. مِنن سابقة .. على هذه المرّة ..

هناك سلسلة من المِنن .. تترادف عليك يا موسى ؟!.

هلمّ معي .. ننظر كيف ذاك ؟!.

انظر إلى دلائل المنـّة .. المتواصلة .. على موسى :

« وهل اتاك حديث موسى » ؟!.

« فلما أتاها نودي يا موسى » ؟!.

« وما تلك بيمينك يا موسى » ؟!.

« قال القها يا موسى » ؟!.

« قال قد أُوتيت سؤلك يا موسى » ؟!.

انظر .. إلى دلائل الحُب .. حُب الله .. لموسى ؟!.

حديث موسى نُودِيَ يا موسى . بيمينك يا موسى .. ألقِها يا موسى .. سُؤلك يا موسى ؟!.

خمس مرات .. يُذكر اسم موسى .. في سياق واحد .. من سورة طه ؟!.

فما معنى هذا ؟!. انه الحب .. ان الله يحب موسى .. ويحب ذكر اسمه !.

فما دليل ذلك ؟!.

دليله .. قوله :

« ولقد مننا عليك مرة اخرى .

« إذ اوحينا الى امك ما يوحى .

« أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني » ؟!.

تأمّل معي .. تلك البدائع .. بدائع الحُب ..

ولقد مننا .. عليك .. مرّة أخرى ؟!.

يذكره بالمنن المترادفة عليه .. وأنه يُقلّب من منّة الى منة !.

ثم انظر الى تلك البديعة :

يأخذه .. عدوٌ .. لي .. وعدوٌ .. له ؟!.

مَن كان عدواً .. لي ..

فهو أوتوماتيك .. عدواً .. لموسى ؟!.

والعكس صحيح .. من كان حبيباً لي .. فهو حبيب لموسى ..

ولذلك قال بعدها مباشرة :

وألقيت .. عليك .. محبّة .. مني ؟!.

ألقيتُ ؟!.

التعبير جميل .. جميل !.

أنا أحببتك يا موسى ..

ومن أحببته .. أحببه كل شيء .. وكل من يحبني ..

هكذا أوتوماتيك نواميس !.

ثم زدتك يا موسى .. أن كسوتك بمحبة .. مني ..

فمن رآك .. لا يستطيع إلا أن يحبك !.

ثم تبلغ الملاطفة منتهاها :

ولِتُصنعَ .. على عيْني ؟!.

« إذ تمشي اختك فتقول هل أدلكم على من يكفله .

« فرجعناك الى امك .

« كي تقر عينها ولا تحزن .

« وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا .

« فلبثت سنين في اهل مدين .

« ثم جئت على قدر يا موسى » ؟!.

يا موسى .. مرة سادسة .. في نفس السياق ؟!.

ثم الآية كلها .. سلسلة من المِنَن ..

مِنة .. هل أدلكم على من يكفله ؟!. هذه منة .. كان يمكن ألا يلتفتوا الى كلامها .. ويضيع الرضيع !.

منة .. فرجعناك إلى أمك .. وكان يمكن أن يرجع الى غيرها !.

منة .. كي تقر عينهـــا ولا تحزن .. وكان يمكن أن تظل تبكي وتتقلب في حزنها !.

منة .. فنجيناك من الغم .. وكان يمكن أن يقع عليه القبض .. من قوات فرعون .. ويعاد الى مصر .. ويُعدم قتلاً !.

منة .. فلبثت سنين في أهـــل مَدين .. عشر سنين في أمن تام .. وحياة هانئة !.

منة .. ثم جئت على قدر .. على ترتيب مقدّر .. لا يستقدم ولا يستأخر .

ثم منّة .. « يا موسى » .. مرة أخرى .. وكان يمكن أن يتم المعنى عند « ثم جئت على قَدَر » .. ولكن « يا موسى » .. انه الحب !.

ثم مِنّة المِنن :

« واصطنعتك لنفسي » ؟!.

منتهى .. الشرف !.

وأقصى .. المِنن !.

وهكذا .. لقد كان موسى .. مِنّة ..

أحبّه .. فمَنّ عليه ..

أو مَنّ عليه .. فأحبه ؟.

فلما مَنّ على موسى .. تشمشمت المنّة .. منه إلى قومه :

« ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمـــة ونجعلهم الوارثين .

« ونمكن لهم في الارض ونُريَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » ؟!.

هكذا .. نُريد أن نَمُنَّ على الذين استُضعفوا ..

فاقتضى الأمر .. أن يكون هناك .. قائد ثورة ..

فوقع الاختيار .. على موسى ..

ومَنَّ عليه .. ليُحقق به .. إرادة المنة على الذين استضعفوا ..

وكان ما كان ؟.

فسُبحان .. ثم سبحان !.

أرضعيه... فإذا خفت عليه... فألقيه؟!...

نُبدىء ... ونُعيد ...

كما قلنا مراراً .. ونعود .. فنكرره تكراراً ..

أن حياة الأنبياء .. حياة أنوار .. لا حياة حوادث ووقائع ..

وأن الخطأ الفاحش الذي وقع فيه كثير ممن كتبوا عن الأنبياء .. أنهم سردوا وقائعهم للناس .. شغلوهم بحوادث تاريخية ..

فكان هذا حجاباً .. حجب الكثيرين عن أبهج ما في الأنبياء ..

وهو .. نورهم الوهاج .. الذي هو قرة عيون القلوب ..

ولو ركـّز الناس عيونهم .. على أنوار الأنبياء .. لأدركوا منهم أضعاف أضعاف ما يدركون من حوادث الأنبياء ..

وكأن كتاب الله العزيز .. يريد أن يلفتنا إلى هذا الاتجاه .. أن ننظر إلى أنوار الأنبياء أكثر من نظرتنا الى وقائعهم ..

فيبدأ قصة موسى عليه السلام .. بقوله عز من قائل :

« واوحينا الى ام موسى .

« ان أرضعيه .

« فاذا خفت عليه .

« فالقيه في اليم .

« ولا تخافي ولا تحزني .

« إنا رادُّوه اليك .

« وجاعلوه من المرسلين » .

اقرأ .. هذه الآية الكريمة .. مرات

ليتأكد لك أن حياة الأنبياء .. حياة أنوار ؟.

الجو العام للحادث .. حادث مولد موسى ..

مجتمع كئيب .. رهيب .. يجلس من فوقه .. ملك متأله قبيح ..

يتسلط على بني إسرائيل .. في وقاحة و كبرياء ..

أوامره صريحة .. يُذبح فــوراً كل مولود ذكر .. يولد من اسرائيلية وأمام عينيها ؟.

ويُترك الإناث .. زيادة في التنكيل بالمضطهدين ..

أجهزة مخابرات جهنمية .. لا تتورع عن ارتكاب أبشع الجــرائم .. استرضاء .. للإله الحاكم ..

فزع .. ورعب .. وخوف ؟.

في هذا الجو القاتم الأسود .. وَلدت أم موسى .. طفلاً ذكراً ؟.

ولسان حالها يقول : يا ليتني : مِتُّ قبل هذا ؟.

ماذا أصنع .. في تلك المصيبة ؟.

أأقتله .. وأسلمه لزبانية فرعون .. ليذبحوه ؟.

أم أخفيه .. ولكن كيف يخفى على مخابرات فرعون .. وقد وُضِع الإسرائيليات تحت الرقابة الشديدة ؟.

وقتل الخوف فؤاد أم موسى .. وشل تفكيرها ؟.

هنالك .. حين تُسد الأبواب كلها في وجه الإنسان .. ويستحكم اليأس .. يبقى غوث المغيث ؟.

« وأوحينا » أغثناها .. وعلمنا حيرتها .. فجئناها ..

« الى ام موسى » قيل كان اسمها « يوكابد » .. عليها السلام ..

« ان ارضعيه » لا تسلميه إلى هؤلاء المجرمين .. وأرضعيه .. وضميه إلى صدرك الحنون .. وانعمي بنعيم الأمومة الكريم ..

« فاذا خفت عليه » فإذا حدث .. واكتشفوا أمره .. وخفت أن يأخذوه بالقوة ليذبحوه ..

« فألقيه » فاقذفيه ..

« في اليم » في الماء .. في نهر النيل ؟.

أمرٌ كله عجب ؟.

فإذا خفت عليه من القتل بأيديهم .. فاقذفيه ليهلك غرقاً في الماء ؟.

ها هنا العقل مشلول ؟.

ولكنه وحي يوحى .. مرتبة فوق العقل ؟.

وكأن أم موسى .. انتقلت من فزع قتله بأيدي زبانية فرعون .. إلى فزع قتله بإلقائه في البحر .. فكان الوحي :

« ولا تخافي » اطمئني غاية الاطمئنان .. يا أم موسى ؟.

« ولا تحزني » وقرّي عيناً ..

ما هذا ؟. هذا تكليف بما لا يطاق ؟.

كيف يُطلب إلى أم هالمة .. ألا تخاف .. وألا تحزن ؟.

هنالك .. نزل الإمداد .. إلى الفؤاد ..

فؤاد .. أم موسى ؟.

« إنـّا » نحن الله ..

« رادّوه » حتما . ووعدنا حقاً ..

« اليك » أنتِ .. بالذات .. لا الى امرأة غيرك قط !.

« وجاعلوه » حتما .. مقضيا ..

« من المرسلين » من أعظم عظماء المرسلين !.

ما هذا ؟!. كيف هذا ؟!.

انه .. الله !.

قوله .. الحق ..

ووعده .. الصدق ..

ووحيه .. أمر واقع .. ما له من دافع !.

لا سبيل للخلق أجمعين .. إلى علم شيء هذا الوحي لسبب بسيط .. أنه كان بين اثنين .. لا ثالث لهما ..

بين الله .. وبين أم موسى !.

وهذه الآية تشير الى ذلك :

« إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى » ؟..

كان شيئاً بيني .. وبينها ..

أنا ربها .. وهي أمَتي ..

أوحي ما أشاء .. إلى قلبها .. ولا يشعر أحد بشيء !.

ان هذا المشهد .. أشهد .. أنه .. أنوار من فوقها أنوار ..

يقف العقل أمامه .. كأنه حمار !.

وإلا فنبئني أيها السيد العقل : ما مدى فهمك في تلكم الأسرار ؟!.

القذافيه ... في ... التابوت ؟!...

اقذفيه ؟ ! .

اقذفيه ؟ ! .

مَن أصدر هذا الأمر ؟.

أصدره .. الذي بيده ملكوت السماوات والأرض .. سبحانه !.

وإلى مَن ؟..

الى التي تتوقع أن يهاجموها .. في أي لحظة .. وينتزعوا رضيعها .. ويذبحوه أمام عينيها !.

وهو أمرٌ .. لا معقول ..

بل .. وراء اللامعقول ..

أم .. تخاف أن يذبحوا وليدها .. وأمرٌ يقول لها .. اقذفيه إلى اليم .. فاقذفيه في التابوت ..

يعني .. ارميه .. رمياً .. ولا تبالي .. يا بوكابد ..

الأمر .. يثير الرعب في فؤاد أم موسى .. أكثر مما يثيره رعب توقع ذبحه ..

فماذا تختار ؟.

هذه حيرة العظماء .. عظماء الأولياء .. وعظماء الأنبياء .. وعظماء أمهات الأنبياء ..

ها هي أم موسى .. تدخل تجربة رهيبة ..

إما ذبح الوليد .. وإما القائه الى البحر ..

ومن بعدها .. أم عيسى .. التي اسمها « مريم » .. عليها السلام ..

دخلت تجربة أعنف وأعنف ..

أن تلد غلاماً .. اسمه المسيح عيسى .. بأسلوب .. لم يحدث قبلها قط .. ولن يحدث بعدها قط ..

تجربة تجمعت فيها كل المتضادات ..

وحين فاجأها المخاض .. صرخت من أعماق باطنها .. في صوت لا يسمعه إلا الله ..

« يا ليتني مت قبل هذا .

« وكنت نسيا منسيا » ..

أولئك .. أدخلوا تجارب .. تهتز لها الجبال ..

ما صعدوا إلى المراتب العلى .. إلا بعد أن زلزلوا زلزالاً رهيباً ..

على أم موسى .. السلام ..

على أم عيسى .. السلام ..

واختارت أم موسى .. أمر ربها الصادر اليهـــا .. بقذفه الى اليَم .. وشرعت في تنفيذ الأمر ..

وانظر إلى الجمال المقدس .. الذي يتلألأ .. من ذلك المشهد .. في كتاب الله المعظم :

« ولقد مننا عليك مرة اخرى .

« إذ أوحينا الى أمك ما يوحى .

« ان اقذفيه في التابوت .

« فاقذفيه في اليم »

« فليلقه اليم بالساحل »

« يأخذه عدوٌ لي وعدوٌ له »

« وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني » !!.

اقذفيهِ في التابوت ..

احضري يا يوكابد .. صندوقاً .. وضعيه فيه ..

فاقذفيه في اليم .. واسرعي ولا تتباطئي .. واقذفي الصندوق في النيل .. ولا تبالي !.

وأمرٌ أعجب وأعجب ..

أمرٌ صادر إلى جماد !.

فليلقه اليم بالساحل .. البحر مأمور أن يُلقي هذا الصندوق بالشاطىء .. شاطىء النيل ..

أين ؟!. فالشاطىء يمتد الى أواسط افريقيـــا جنوباً .. وإلى البحر الأبيض شمالاً ؟!.

في مكان معين .. محدد .. لا يزيد شبراً ولا ينقص !.

في مكان .. سيُلتقط فيه الصندوق .. من أشخاص بالذات ..

« فالتقطه آل فرعون » ؟!.

تأمّل .. أيها الماء خُذ هذا الصندوق .. وألقِه إلى ساحل النيل .. عند قصر فرعون ..

ونفـّذ الماء .. أمر ربه « فليلقه اليم بالساحل » !.

لمـــاذا عند قصر فرعون بالذات ؟!.

أسلوب من التحدي .. «خذ هذا الطفل أيها الفرعون .. خذه « ليكون لهم عدوا وحزنا » ..

كأنه يراد أن يقال : خذ هذه البندقية .. وأفرغها في صدرك !.

جمال عجيب .. وصُنع متين .. لا يقدر عليه إلا الله !.

وفرعون هذا .. كان مضروباً من داخل تركيبه وبنيانه .. هذا أشد أنواع الضرب والتنكيل ..

فإن الضرب من الخارج .. يمكن مقاومته بوسائل الدفاع المحسوسة ..

أما الضرب من داخل تركيب الانسان .. فيستحيل مقاومته ..

وأعني بضرب فرعون من الداخل .. أن امرأته كانت عاقراً .. لا تنجب ولا تستطيع الإنجاب !.

تأمّل .. إله .. عاجز أن يكون له ولد من امرأته .. أي انه أعجز من نملة .. فإن النملة تتناسل .. ولكن المذكور يعجز عما تفعله النملة !.

وهذا الضرب من الداخل .. يزيد في غيظ الإله المذكور ..

فبينما هو يتعالى .. وينادي « انا ربكم الاعلى » .. إذا هو في نفسه .. أحقر من ذبابة .. وأعجز من نملة !.

والجبابرة كلما تجبروا على الخلـْق .. زادهم الله صَغاراً وعَجزاً في أنفسهم ..

وكأس بكأس .. ولكن أكثر الناس لا يعلمون ..

هذا المـَلك .. الذي يتمنى طفلاً من امرأته .. ولو دفع فيه مُلكه كله ..

نسي كل ما أصدر من أوامر .. بقتل ذكور بني إسرائيل بمجرد ولادتهم ..

وبدا صغيراً حقيراً .. أمام زوجته الملكة .. حـين فوجئت بالصندوق راسياً على شاطىء القصر الممتد على النيل ..

ثم حمل الجواري اليها الصندوق الذي وجدنه .. بين الماء والشجر ..

ثم فوجئت مرة أخرى .. حين وجدت بداخله طفلا .. ليس كمثل جماله جمال ..

فجُنّت به حبّاً .. « وألقيت عليك محبة مني » .

وحملت الملكة الطفل الجميل على يديها ..

وجاءت الى الملك بالمفاجأة ..

ولكن فرعون .. أراد في البداية أن يبدو قاهراً .. ولكنه هذه المرة صار مقهوراً ..

لقد أحس أنه يحب هذا الطفل .. أكثر من حب امرأته له ..

لماذا هذا الانقلاب ؟..

ان « ألقيت عليك محبة مني » .. تؤدي دورها ..

وآنست الملكة من الملك .. استعداداً ..

« وقالت امرأت فرعون .

« قرّت عين لي ولكَ » ..

انها تعزف على الوطر الحساس .. من فرعون ..

لي .. ولكَ ؟..

سرور لي .. وسرور لك ..

ودوّى في أعماق فرعون صوت امرأته .. وأحس انه يتهدم كله .. أمام إغراء الرغبة في الولد من زوجته هذه ..

وجاء زبانية فرعون يهرعون ..

ليقتلوا هذا الطفل .. كما هي أوامر فرعون ..

فصاحت الملكة .. في صوت ثائر آمر :

« لا تقتلوه » ..

ونظر الزبانية الى إلههم .. ولكن الإله هذه المرة .. أمرهم أن ينصرفوا .. فانصرفوا كالكلاب الضالة ..

وفي مشهد فريد .. حيث الملك والملكة وحدهما ..

والملكة تُقبل الطفل وتضمه الى صدرها .. قالت :

« عسى ان ينفعنا .

« او نتخذه ولدا » ...

واستمع فرعون الى صوت امرأته .. وهو يعاني من التمزق .. بين رغبته في الولد .. وبين مقتضيات المُلك ..

ولكنه تضعضع واستسلم ..

والجبابرة حين يصدرون أوامرهم .. يصدرونها لكل الناس .. إلا أنفسهم لأنهم شيء .. والناس شيء ..

سوّلت له نفسه .. أن تتبنى الملكة .. ذلك الطفل ..

وأن يربيه تربية ملكية .

وشاركته الملكة في التدبير لذلك والترتيب ..

« وهم لا يشعرون » وكلهم جميعــاً .. لا يشعرون أن الله يدبر أمراً لا يخطر على بالهم .

واصبح ... فؤاد أم موسى ... فارغا ؟!...

مستحيل ... ثم مستحيل ...

أن يوجد تعبير .. أعلى .. ولا أرقى .. ولا أشمل .. ولا أكمل .. من هذا الذي بين يديك :

« وأصبح فؤاد ام موسى فارغا » .

لمـــاذا ؟.. لأن الذي خلق .. أم موسى .. هو الذي يتكلم ..

الذي خلق.. الأمهات.. وركبهن في شتى التركيبات.. هو الذي يتحدث .

وفرق ما بين كلام الله .. وكلام الناس .. كفرق ما بين الله والناس ..

ما هو الفؤاد ؟.. هو قلب القلب ..

وكيف أصبح فؤادها فارغاً ؟.

لأنها ألقت بيديها .. وليدها الى المـاء ..

ووقفت العظيمة .. الكريمة .. ترقب الصندوق وهو يسبح فوق الماء ..

منظر إلهي .. فذ .. عجيب ؟.

طفل .. مضى على ولادته ثلاثة من الشهور .. في صندوق .. فـــوق ماء النيل .. وحده ؟..

وأم .. ضادت غريزة الأمومة .. وألقت به إلى المـــاء ؟..

مشهد توحيد تجريدي ..

لتسقط قوانين الأسباب كلها ..

ها هو الطفل . وقد انفصل تماماً عن الأسباب .. فلا أم لترضعه وترعاه.. ولا فراش ليدفئه ويؤويه ..

ولكن .. وحده .. وهو في عجز تام .. لا يدري ماذا يُصنع به ..

هنالك .. تجلى قوله تعالى :

« ولتصنع على عيني » ..

الأنبياء .. يصنعهم .. هوَ ..

ويربيهم .. هو ..

ويُرسلهم .. هو ..

ولا يأذن لأحد قط .. أن يتدخل في تربيتهم ..

ماذا كان يهدر في بنيان أم موسى في تلك اللحظة الخالدة ؟.

قانون الأسباب .. يدفعها أن تراقب الصندوق .. لتعرف مصيره .. فلربما دخل الليل .. وافترس تمساح وليدها .. أو أخذه الصبيان ليلعبوا به .. أو سرقه لصوص البحار ..

إذن لا بد من الرقابة :

« وقالت لأخته قصيه » ..

تتبعي يا بُنية أخاك .. واحذري أن يشعر بك أحد ..

وسارت أخته .. وعيناها على الصندوق .. حيث يضطجع الوليد ..

« فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون » ؟.

عن جُنُب ؟.. عن بُعد .. من بعيد .. تراقب الصندوق ..

وهم لا يشعرون .. ولا يشعر أحد من الناس .. أن هناك فتاة .. تسير

مستائرة مختبئة .. على الشاطىء المقابل .. تراقب هذا الصندوق ..

تا لله .. ان دموعي .. لتنحدر تأثراً .. من روعة ذلك المشهد الجميل ..

ان فيه رحمة عجيبة ..

هـــذا كله تدبير من أم موسى .. وأخت موسى .. يحتمه قانون الأسباب الغريزي ..

ويحتم القانون كذلك .. أن يصبح فؤاد أم موسى فارغاً ؟..

لأن خوف الأم على وليدها غريزة مشروعة .. مركبة في تركيب الأمهات .

ولقد اشتد خوفها .. حتى كادت تتحدث وتصيح هلعاً وفزعاً على صغيرها.

« ان كادت لتبدي به » ..

لولا ؟.. لولا ماذا ؟.

« لولا ان ربطنا على قلبها » ..

هذا قانون فوق قانون الأسباب ..

قانون الأسباب .. يدفع الى الحزن والخوف والهلع .. « ان كادت لتبدي به » .. أوشكت أن يظهر منها آثار الفزع والهلع .. والبـــكاء والصراخ .. فيفتضح أمرها للناس ..

ولكن حدث تدخل إلهي .. ونزل قانون فوق هذا القانون .. يلغيه تماماً « لولا ان ربطنا على قلبها » .. اغلاق تام لأمواج الظلمات من قلبها .. لأمواج الخوف والفزع .. وفـــتح تام لأمواج النور من قلبها .. لأمواج السكينة والطمأنينة والسلام والتسليم ؟.

« لتكون من المؤمنين » رقيناها .. إلى أمواج النور .. وأخرجناها من الظلمات الى النور .. وأريناها .. فأبصرت ما لم تكن تبصر .. وعلمت ما لم تكن تعلم .. وصارت من كاملات الإيمان .. وقمم النور ؟.

لقد كان يهدر في بلبان أم موسى .. في تلك اللحظة ..

قانونان .. متضادان ..

قانون الأسباب .. يدفع الى التدبير .. والخوف والهلع ..

وقانون يضاده .. يدفع إلى التسليم .. والاطمئنان والتفويض ..

إلا انه حاكم .. على قانون الأسباب .. لأنه فوقه .. وأعلى منه ..

فلما كادت أن تُبدي حزنها وخوفها .. نزل قانون أعلى « لولا ان ربطنا على قلبها » ..

فتبدلت أم موسى .. هنالك ..

وتلألأ أمام عين قلبها « ولا تخافي .. ولا تحزني.. إنا رادُّوه .. اليك » ؟.

وحرّمنا ... عليه ... المراضع ؟!...

من قبل ؟!.

من قبل ماذا ؟!.

من قبل أن يولد موسى .. ومن قبل أن يُلقى إلى البحر .. ومن قبل أن يلتقطه آل فرعون ..

بل من قبل أن تكون هذه الحياة الدنيا بما فيها .. ومَن فيها ..

بل من قبل خلق السماوات والأرض ..

من قبل هذا كله .. أردنا . وقدّرنا .. « وحرّمنا عليه المراضع » ؟!.

انما هي أمور نبديها .. ولا نبتديها !..

في هذه الكلمة « من قبل » إعجاز الإعجاز ..

وسبحان مَن ليس كمثل كلامه كلام ...

« وحرّمنا عليه المراضع من قبل .

« فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » ؟!.

وحرّمنا عليه المراضع ؟!.

التحريم هنا تحريم تكويني .. كن فيكون ..

حتما يكون .. ومستحيل ألا يكون !..

موسى .. لا يرضع ثدياً قط .. غير ثدي أمّه ..

وقد كان .. وقع حُب الطفل .. من قلوب أهل القصر جميعاً ..

فرعون .. امرأت فرعون .. الوصيفات .. الخدم .. الحشم ..

الجميع .. قد شغفهم موسى حُباً !..

وبعد أن كان المفروض .. أن يقتلوه .. أصبحوا جميعاً يتسارعون إلى المحافظة عليه .. ورعايته !.

وجعل الطفل .. يبكي ويصرخ .. من شدة الجوع ..

وجاءوه بأحسن المراضع .. من نساء القصر .. أو من خارج القصر ..

فرفضها جميعاً .. وأبى أن يرضع من ثدي واحدة منهن !.

لمـــاذا ؟!. « وحرّمنا عليه المراضع من قبل » !..

هناك أمر إلهي .. صادر بذلك .. وهم لا يشعرون !.

وأصدر الملك أمراً .. الى الجميع .. أن يحضروا اليه فوراً .. امرأة .. يقبل هذا الطفل الرضاعة منها .. وإلا هلك جوعاً ..

وانتشر رجال القصر يبحثون في كل مكان .. وكلما جاءوا بامرأة .. رفض الطفل رضاعها !.

وكانت فرصة ذهبية .. انتهزتها مريم .. أخت موسى .. قالت لطائفة ممن يبحثون عن مرضعة للطفل :

« هل أدلكم على أهل بيت » على أسرة طيبة تحسن الرضاعة ..

« يكفلونه لكم » يقومون برعايته ورضـــاعته وتربيته أحسن تربية .. ويحملون عنكم جميع مسئوليته ؟!

« وهم له ناصحون » يوجهونه دائماً .. الى الخير والأخلاق الرفيعة .. في أمانة وإخلاص ؟!.

فلما سمعوا منها ما سمعوا .. هرعوا الى الملك .. وأخبروه بخبرها ..

فأمر بإحضارها فوراً ..

فلما سمع الملك حديثها .. أمرها أن تسرع بإحضار تلك المرأة اليه ..

فعادت الى أمها .. تحمل اليها البشرى ..

يا أماه .. ان وعد الله حق .. يا أماه ..

– أسرعي .. أسرعي .. فرعون يريد مقابلتك فوراً !..

ففزعت أم موسى .. وظنت أنها مقتولة لا محالة .. لأنها أخفت موسى .. وعثروا عليه .. واكتشف الملك المؤامرة .. فأمر بقتل الطفل .. وقتل أمه التي فعلت فعلتها مخالفة أوامره !..

فصاحت مريم بأمها : ليس الأمر كما تظنين .. الأمر عكس ذلك تماماً يا أماه !..

– كيف يا بنية ؟!. وما شأن فرعون بي .. وماذا يريد مني فرعون .. إلا أن يقتلني ؟!.

قالت مريم : كلا .. لقد التقطوا الصندوق .. وفتحوه .. وأخرجوا الطفل منه .. فلما أن رأوا جماله الفائق .. ونور وجهه .. حتى أحبوه جميعاً .. الملك والملكة .. وجميع من بالقصر نساءً ورجالاً ..

قالت أم موسى : « إنا رادُّوه اليك » ؟!.

– نعم يا أماه .. ان وعد الله حق .. انهم يبحثون عن مرضعة ترضع الطفل .. والطفل يأبى أن يرضع من أي امرأة ..

قالت أم موسى : وماذا يريدون مني .. وماذا يصنعون بي ؟!.

قالت مريم : رأيتهم وهم يلهثون بحثاً عن امرأة يقبل أخي الرضاعة منها .. فقلت لهم « **هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم** » ؟!.

فصاحت بها أمها : اذن قد اكتشفوا الأمر .. ونحن جميعاً مقتولون لا محالة .

ـ كلا .. كلا .. يا أماه .. سوف ترين غير ذلك ..

ـ أسرعي .. أسرعي معي .. الى فرعون .. انه في الانتظار !..

فلما دخلت أم موسى .. الى فرعون ومَن حوله .. وجدت الطفل على يديه يصرخ ويلتحب من الجوع .. والكل لا يدري ماذا يفعل ..

فتناولته .. وألقمته ثديها .. فتبسم ضاحكاً .. كأنه مَلَك يضحك .. وجعل يمص ثديها في نهم شديد !.

فطار فرعون سروراً ..

وسُرت الملكة سروراً عظيماً ..

وعجب جميع الحاضرون والحاضرات ..

لمـــاذا هذه المرأة بالذات ؟!.

سألها فرعون في ذلك : فقالت نحن أهل بيت طيب .. ونساؤه طيبات اللبن .. وافرات الحنان ..

وأشارت الملكة على الملك .. أن يدفعه اليها .. لترضعه في بيتها .. وأن يقرر لها أجراً ضخماً .. نظير الرضاعة والحضانة .. على أن يحضروه إلى القصر دائماً .. لينعموا برؤيته !..

وعلى الفور صدرت الأوامر الفرعونية .. أن يخصص لحـــاضنة موسى مخصصات ملكية ..

وأن يوضع الطفل تحت رقابة القصر ..

وأن يأتوا به مكرماً الى القصر يومياً .. ليراه الملك .. وتراه الملكة .. ويطمئنوا عليه ..

وفي مشهد من المشاهد الإلهية ..

جعلت الملكة تُقبل الطفل وتقبله .. وهي تسلمه إلى الحاضنة .. وتوصيها به خيراً ..

وخرجت أم موسى .. من قصر فرعون .. تحمل موسى ..

في موكب ملكي .. سار معها .. حتى بيتها ..

« فرددناه الى أمه .

« كي تقر عينها .

« ولا تحزن .

« ولتعلم أن وعد الله حق .

« ولكن أكثرهم لا يعلمون » !..

« .. فرجعناك الى أُمك .

« كي تقر عينها .

« ولا تحزن » !..

ألم نُرَبِّكَ ... فينا ... وليداً ؟!...

قرّت عين ...

أم موسى .. برضيعها ..

ومكث في حضنها .. ترضعه .. أكثر من سنتين ..

على حساب فرعون .. ومن مخصصاته الملكية الواسعة .

وعلمت أن وعد الله حق .. « إنا رادّوه اليك » ..

وكان شأناً من شئون الله عجيباً ..

طفل بين يدي أمه .. يُربى على حساب فرعون .. ويسعد البيت كله من حوله .. بما يرد اليه من انعامات فرعون !.

وأكملت أم موسى رضاعة الطفل ..

ورأى فرعون .. وامرأة فرعون .. أن يعود الطفل إلى القصر الملكي ..

وها هنا كان أمر آخر عجيب ..

دفع حرص فرعون وامرأته .. على إحاطة الطفل !. بكل أنواع الحنان ..

أن يصدر الأمر بانتقال أمه معه .. إلى القصر ..

لتقوم بتربيته وتدفئه بحنانها .. أمام أعينهم ..

وانتقلت الأم مع وليدها .. إلى القصر الملكي ..

وعاشت معه .. على مستوى الملوك .. أعلى مستوى في البلاد كلها !.

إلا أن ما هو أعجب .. ان موسى .. صـار بذلك .. « قُرّت عين » .. لطرفين ضدين !.

فهو قرة عين .. لأمه التي تلازمه .. وتنعم به .. تحقيقـاً لقوله تعالى « فرجعناك الى امك كي تقر عينها ولا تحزن » !..

وفي نفس الوقت .. هو قرة عين .. للضـد .. للطرف الثاني .. لفرعون وامرأة فرعون !.

تحقيقاً لقوله تعالى :

« وقالت امرأت فرعون قُرت عين لي ولَك » !..

قدرة .. لا تكون إلا من القـادر القدير المقتدر .. الذي هو على كل شيء قدير ..

طفل واحد .. يكون قرة عين .. لضدين .. لطرفين عدوين !.

الأم .. تقر عينها بموسى ..

والملك والملكة .. تقر عينهما بموسى ؟!.

لـماذا ؟!. السر ها هنا .. « وألقيت عليك محبة مني » !..

سبحانك اللهم .. سبحانك !.

وترعرع موسى .. على أعلى مستوى .. يتصـور أن يترعرع عليه طفل في الحياة !..

في الظاهر .. تربية حشدوا لها كل إمكانيات فرعون ..

قصور ملكية .. بما فيها من صنوف الأبهة والجمال ..

خدم من كل نوع ..

جواري وعبيد ها هنا وهناك ..

رجال الكهنوت .. الذين هم أعلى طبقة مثقفة في البلاد.. والذين هم كل شيء لكل شيء في ذلك العصر ..

يقومون بتعليم موسى .. أرقى ما عندهم من ثقافات عصرهم ..

نشأة يا لها من نشأة !..

وأمه إلى جواره .. تتقلب هي الأخرى في جنات ونعيم !..

هذا في الظاهر .. فماذا في الباطن ؟!.

في الباطن « ولتصنع على عيني » ..

فلا شيء من مفاسد القصور الملكية .. وما أكثر ما فيها من فساد .. يتسرب الى موسى ..

لأن هناك رعاية وعناية عليا .. تعصمه من ذلك كله ..

هناك « على عيني » ؟!.

فشب موسى .. عليه مهابة الملوك .. ظاهراً ..

وفي باطنه .. جلال الأنبياء .. وجمال المرسلين .. إلا أنه مستور .. لم يؤذن له بعد بالظهور ..

تماماً .. كما وصفته تلك الفتاة التي صارت له زوجة من بعد :

« ان خيرَ مَن استأجَرت القويُّ الأمين » !..

كأنها تنطق بلسان الغيب ..

القوي .. ظاهر الشخصية .. قوة الشخصية .. التي يهابها من رآها ..

الأمين .. باطن الشخصية .. المكنون .. الذي سوف يظهر من بعد .. حين يبعثه الله رسولاً !..

وكلمة الأمين .. هي جماع صفات الأنبياء كلها !..

وقد نطقوا . أهل مكة بذلك .. قبل أن يكون محمد رسولاً .. ووصفوه واشتهر بينهم بالأمين !..

عاش موسى .. في قصور فرعون .. واطلع على ما فيها .. من مفاسد .. ودسائس .. ومؤامرات ..

ورأى بعينيه .. ما يحدث من فرعون .. وهامان الرجل الأول في الدولة .

وما يصدرون من أوامر .. ويحيكون من مؤامرات .. ضد بني إسرائيل.

ورأى عجائب مخابرات هامان .. وأساليبه التي لا تخطر على البال .. في الخلاص من أعداء فرعون وأعدائه ..

كل ذلك .. ليشهد موسى عملياً .. حقائق المجتمع الذي سوف يُبعث اليه منقذاً .. ليخرجه من هذه الظلمات المتراكبة .. ويخلصه من طغيان هـــذا الطاغية الرهيب ..

فهو في القصور الفرعونية .. ليلاً ونهاراً ..

ولكنه ممنوع بقوة عليـــا .. من المشاركة في مفاسدها ومفاتنها .. قوة **« ولتصنع على عيني »** !..

وهذه وحدها .. آية ..

ولكنهم لا يشعرون !..

ولبث موسى .. في القصور الملكية الفرعونية ..

حتى بلغ أشده .. وصار شاباً .. ثم رجلاً عظيماً .. تهـــابه الأنظار .. وتقر له العيون ..

وقد لفت نظره فرعون .. فيما بعد .. الى تلك الفترة التي عاشها في قصره ناعماً منعماً ..

« قال ألم نربّك فينا وليداً » ؟!.

« ولبثت فينا عمرك سنتين » ؟!.

ألم نُربّك فينا .. في قصورنا . وبيننا .. واعتبرناك منا .. وما كان لك أن ترتفع إلى مستوانا ..

وليداً ؟!. التقطناك حال ولادتك .. وكان المفروض أن أقتلك .. كسائر الأطفال من بني اسرائيل ..

ولبثت فينا ؟!. من حياتك ..

سنين ؟!. سنين طويلة .. كنا نمدك فيها .. لتكون أميراً .. يا موسى ..

الآن .. تعود الينا .. وقد فررت عنا .. خوفاً من حكم الإعدام .. تعود وتزعم أنك رسول من رب العالمين ؟!.

العب لعبة غيرها .. فأنا أعرف مَن أنت .. ولم فررت ؟!.

كان فرعون يريد أن يقول لموسى : فجأة .. تحولت يا موسى .. من مجرم محكوم عليه بالإعدام .. وهارب من حكم الإعدام .. إلى رسول من رب العالمين.

من أسفل سافلين .. يا موسى .. إلى أعلى عليين ؟!.

يا لك من مجنون !..

تجد الإشارة الى مثل هذا المنطق الفرعوني .. في قول فرعون :

« ان رسولكم الذي أُرسل اليكم لمجنون » .

ان رسولكم .. منتهى التحقير .. رسولكم أنتم .. لا أنا .. فأنا فوق هـذا العبث المزعوم !..

لمجنون ؟!. منتهى الجنون .. لقد عاد الينـــا .. وقد تسربل بسربال الكهنوت .. ويا ليته زعم أنه كاهن من الكهان .. ولكن ادعى قفزة واحدة أنه رسول !..

ثم ما هذه النبوة التي نزلت عليك فجأة يا موسى ؟!.

أنسيت جريمتك .. التي هربت فراراً من عقوبتها ؟!.

« وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين » !!.

وأنت لا تعرف ديناً .. ولا إيماناً .. والآن تأتينا رسولاً ؟!.

يلجأ فرعون .. الى منطق خبيث .. لتحطيم شخصية موسى .. وصرف أنظار الناس عنه ..

يريد أن يفهموا أن المحكوم عليه بالإعدام في جريمة قتل .. لا يمكن أن يتحول فجأة إلى رسول !..

مؤامرة ... لقتل ... موسى ؟!...

قال عز وجل :

« وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً » ..

« وقتلت نفساً » يعني جل ثناؤه بذلك : قتله المصري ، حين استغاثه عليه الإسرائيلي ..

« فنجيناك من الغم » تخلصناك .. من أن يصلوا الى قتلك .. وقَـوَدِك به .

« وفتناك فتونا » اختبرناك اختباراً . قيل : هو البلاء على إثر البلاء ..

ما هي هذه النفس التي قتلها موسى .. وما تفصيل القصة ؟!

قال تعالى :

« ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها .

« فوجد فيها رجلين يقتتلان .

« هذا من شيعته وهذا من عدوّه .

« فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوّه

« فوكزه موسى .

« فقضى عليه .

« قال هذا من عمل الشيطان .

« انه عدوٌ مُضل مبينٌ » .

« ودخل » موسى ..

« المدينة » العاصمة ..

« على حين غفلة من أهلها » عند القائلة .. نصف النهار .. حين يغفل سكان العاصمة .. ويأوون إلى مضاجعهم من شدة الحر ..

« فوجد فيها » ففوجىء .. حين رأى ..

« رجلين يقتتلان » يريد كل منهما أن يبطش بالآخر ..

« هذا من شيعته » أحدهما من أهل دين موسى .. أين من بني إسرائيل ..

« وهذا من عدوه » من المصريين ..

وكان العداء مستحكما بين الفريقين .. المصريون يسخّرون بني إسرائيل .. في أحقر الأعمال وأشقها بلا مقابل ..

ويُعامل بنـــو إسرائيل على أنهم عبيد .. منبوذون ليس لهم أن يرفعوا رأساً .. « أن عبّدتَ بني اسرائيل » .

أي اتخذتهم عبيداً .. وسخرتهم في أشق الأعمال .. ولم تقف عند ذلك .. فأمرت بذبح أبنائهم .. واستحياء نسائهم ..

كان موسى يشهد هذا كله .. وهو في القصر الملكي .. ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً .. إلا أن باطنه كان يغلي بالغضب والثورة .. على الظالمين .. والعطف والإشفاق على المظلومين ..

وها هو يفاجأ بمنظر زاده غيظاً على غيظ .. ها هو رجل مصري يريد أن يسخّر رجلاً من بني إسرائيل .. وها هو يضربه حتى كاد أن يقتله .. وها هو الإسرائيلي يثور لنفسه المهانه ويحاول أن يدافع عن نفسه .. وتحول الأمر إلى معركة دامية بينهما .. كل يريد أن يقتل الآخر .. أما المصري فمنطقه .. كيف يجرؤ هـــذا الحقير أن يعصى له أمراً ؟!. وأما الإسرائيلي فمنطقه .. الى متى هذا الذل وهذا الاستعباد ؟!.

« فاستغاثه الذي من شيعته » فما أن رأى الإسرائيلي موسى قادماً .. حتى جعل يستغيث به .. ليدفع عنه هذا الظلم الفادح ..

« على الذي من عدوِّه » أن ينصره على هذا المصري ..

« فوكزه » فثارت ثائرة موسى بمجرد أن سمع صوت أخيه وهو يستصرخه.

فوكزه ؟!. فلكزه .. في صدره .. بجمع كفه ..

يقال : وكزته .. ولكزته .. ونكزته .. ونهزته .. ولهزته ، إذا دفعته .

« موسى » بضربة واحدة .. فيها كل الغيظ المكبوت ..

« فقضى عليه » فقتله لفوره ..

فقضى عليه ؟!. أي لا أمل البتة في إنقاذه أو إسعافه .. ضربة قاضية ..

انه .. البطل .. الذي تعده الأقدار .. لحمل الأثقال .. أثقال إنقاذ شعب بأكمله .. من قبضة فرعون وجنوده !..

وكان هذا الحادث .. إشارة .. إلى هذا الغيب ..

ان موسى .. سيضرب هذا النظام كله .. ويقضي عليه بضربة واحدة !.

« قال هذا » هذا الذي حدث ..

« من عمل الشيطان » ما كان ينبغي أن أقتله .. وما كنت أظن أنه سيقتل.

لقد أخذ الندم سبيله إلى موسى ..

« انه عدُو » ان الشيطان مضاد دائماً للإنسان .. يدفعه الى الشر ..

« مُضل » يدفع الإنسان الى الانحراف ..

« مبين » واضح الاضلال .. وواضح العداء للإنسان .

ووقعت المصيبة ..

إسرائيلي .. يقتل مصرياً ؟!.

عبد من العبيد .. يقتل سيداً من السادة !..

وهاج الشعب المصري وماج ..

وتحولت إلى قضية سياسية .. من أخطر القضايا ..

كيف يجرؤ أحد العبيد .. على قتل أحد السادة ؟!.

قال المفسرون :

« خرج موسى يوماً ، على حين غفلة من أهل المدينة ، فوجد رجلا مصرياً يأخذ عبرانياً ليسخره في بعض عمله .

« فاستغاث العبراني بموسى ، فجـــاء الى المصري ، فوكزه وكزة كانت القاضية .

« فواراه التراب ..

« ولم يعلم بذلك الأمر سوى الرجل العبراني — الذي نصره موسى —

« وندم موسى على ما فعل ، وقال في نفسه : هـــذا الذي أتيت من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين .

« وضرع الى الله أن يتوب عليه ، وألا يجعلـــه ظهيراً للمجرمين ، وناصراً لأهل الشر .

« فلما كان اليوم الثاني خرج الى المدينة ، وهو يخـــاف افتضاح فعلته التي فعل » .

ثم ذكروا :

ان المصريين لمـــا عثروا على قتيل موسى ، ولم يعلموا له قاتلا ، سبق إلى فكرهم أن بني إسرائيل هم قاتلوه .

« فقالوا لفرعون : ان بني إسرائيل قد قتلوا رجلا من آل فرعون !.

« فخذ لنا بحقنا ، ولا ترخص لهم في ذلك .

« فقال : ابغوني قاتله ، ومن يشهد عليه ، لأنه لا يستقيم أن نقضي بغير بينة ، فطلبوا له ذلك .

« فبينا هم يطوفون ولا يجدون .

« إذ مر موسى من الغد ، فوجد ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونياً ، فاستغاثه الإسرائيلي – وهو الذي من شيعته – على الفرعوني – الذي هو من عدوه –

« فصادف موسى وقد ندم على ما كان منه بالأمس ، وكره الذي رأى .

« وغضب موسى ، فمد يده وهو يريد أن يبطش بالفرعوني .

« وفي الوقت ذاته قال للإسرائيلي (إنك لغويّ مبين) .

« فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس ، الذي قتل فيه الفرعوني .

« فخاف الإسرائيلي أن يكون إياه أراد بعد ما قال (انك لغويّ مبين) .

« فحاجز الإسرائيلي الفرعوني وقال لموسى : يا موسى (أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس) ؟!

« وإنما قال له ذلك مخافة أن يكون موسى إياه أراده بقتله .

« فانطلق الفرعوني فأخبر قومه .

« ورفعوا الأمر إلى فرعون .

« بأن القاتل هو موسى .

« فأرسل اليه الذبّاحين .

« في ذلكم الوقت خالف رجل شريف من آل فرعون قومه .

« وجاء إلى موسى من أقصى المدينة مسرعاً .

« ليسبق الذين يطلبون موسى من طريق مختصر .

« وأعلمه علم القوم وما دبروا عليه .

« وذلك من فتون الله له .

ونصح ذلك الرجل الشريف له أن ينجو بنفسه ، ويفارق بلاد مصر حتى لا تمتد اليه أيديهم بسوء .

« فقبل منه موسى هذه النصيحة الغالية .

« وذهب على وجهه يريد أرض مدين » .

« قال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم .

« قال رب بما انعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين » .

توبة سريعة .. فاغفر لي ..

وقبول للتوبة .. فغفر له ..

« فأصبح في المدينة خائفاً يترقب .

« فاذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه .

« قال له موسى انك لغويّ مبين » .

فزع .. رعب .. المدينة كلها تتحدث .. عن الجريمة ..

مصري قتله أعداء الشعب .. قتله المجرمون بنو إسرائيل !.

كيف يجرؤ أولئك العبيد على ارتكاب تلك الجريمة ؟!

هذا هو الحادث الأول من نوعه ..

لا بد من تلقينهم درساً لن ينسوه !.

ولكن مَن القاتل ؟!

من هذا الذي اجترأ على هذه الفعلة الشنيعة ؟!

خائفـــاً ؟!.

شديد الخوف .. يصل إلى مسامعه غضب المصريين .. وتوعدهم للقاتل ..

يترقب ؟!. يتوقع بين لحظة وأخرى .. أن يكتشفوا أمره .. ويفتكوا به فتكاً !.

انها جريمة اليوم .. وحديث الساعة .. وثورة شعب ..

وازداد المصريون غضبــاً لعدم عثورهم على القاتل .. فصبوا غضبهم على بني إسرائيل جميعاً .. ولم لا ؟!. أليس القاتل منهم ؟!

وازداد بنو اسرائيل خوفاً .. أن يتحول هياج المصريين .. إلى محاولة للانتقام منهم جميعاً ..

والشعوب إذا ثارت .. فقدت عقلها !.

والغضب جمرة من النار .. تتقد وتتلهب في جوف بني آدم !.

« فلما ان اراد أن يبطش بالذي هو عدوٌ لهما .

« قال يا موسى اتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟

« ان تريد إلا ان تكون جبـــاراً في الأرض وما تريد ان تكون من المصلحين » .

موسى يتعرض للفتنة مرة أخرى .. في اليوم التالي للجريمة ..

نفس الرجل الذي استغاثه بالأمس .. وتسبب في ارتكابه القتل .. يعود فيستصرخه اليوم ضد فرعوني آخر ..

انه رجـــل مشاكس .. **« انك لغوي مبين »** .. لا يكف عن الشجار والإجرام ..

وحين ثار موسى .. وأراد أن يبطش بالفرعوني .. ظن الإسرائيلي أنه إياه يعني بالقتل .. فصاح : « يا موسى .. أتريد أن تقتلني .. كما قتلت نفساً بالأمس » ؟ ! .

والتقطها الفرعوني .. من فم الإسرائيلي .. واكتُشِف أمر القاتل ..

انه .. موسى !.

هو الذي قتل المصري بالأمس ..

وهرع المصري .. وأذاع الخبر ..

وتناقله المصريون جميعاً .. وانتشر على جميع الألسن ...

موسى .. هو القاتل ؟!.

هل سيقتله فرعون .. أم سيتغاضى ويغض الطرف ؟!.

سوف نرى .. هل يأخذ العدل مجراه .. أم أن فرعون سيكون له موقف آخر .. لأن القاتل هو موسى .. عظيم القصر الملكي .. المحبب إلى فرعون .. وزوجة فرعون ؟!.

قضية سياسية .. حساسة جداً ..

وضعت فرعون في أحرج موقف سياسي أمام شعبه كله ..

الموضوع واضح تمام الوضوح ..

لا يحتمل تسويفاً .. ولا مخادعة ..

موسى .. هو القاتل ..

ولكن موسى .. ليس من عامة الإسرائيليين .. ولكنه رجـــل عظيم من عظماء القصر .. له وجاهته وأوضاعه ..

ويزيد القضية خطورة .. أنها قضية عنصرية ..

القاتل .. من بني إسرائيل .. من العبيد ..

والقتيل .. من المصريين .. من السادة !.

واشتد هياج الشعب .. وتنادَوْا : الموت لموسى .. الموت لموسى !.

وكان طبيعياً أمام هذا الهياج الشعبي .. أن يأمر فرعون باجتماع عاجل لمجلس البلاط .. ومجلس الوزراء .. لإصدار قـــرار في أخطر موضوع تواجهه البلاد !.

ورأس فرعون الاجتماع الخطير ..

ولم يستطع أن يدافع عن موسى .. واضطر أمام إجماع المجلس على الموافقة على اعدام موسى ..

وصدر الأمر الفرعوني .. بقتل موسى .. لأنه هو القاتل ..

وبمجرد أن أجمع المجلس على ذلك .. وقبل أن تصل القرارات الفرعونية .. إلى أجهزة التنفيذ .. للقبض على موسى .. وإعدامه ..

تسلل أحد عظماء المجلس .. وكان شديد الحب لموسى .. يرى براءته .. لأنه قتَـل عن خطأ وليس عن عمد ..

وسارع الى موسى .. وصاح به .. موسى .. موسى ..

فالتفت اليه موسى .. خائفاً يترقب .. كل أنباء سيئة :

« وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى »

« قال يا موسى »

« ان الملأ يأتمرون بك »

« ليقتلوك »

« فاخرج »

« اني لك من الناصحين » !..

يسعى ؟ !.

يسابق الريح .. ليصل الى موسى .. قبل أن يصل الزبانية اليه ..

يا موسى ؟!. موسى .. موسى .. يكلمه همساً .. لئلا يكتشف رجـال هامان أمره ..

ان الملأ يأتمرون بك ؟!. تركتهم وقد أصروا على اصدار الأوامر فوراً .. بالقبض عليك .. تهدئة لثورة الشعب .. لم يعد أمام فرعون خيار .. فموقفه يحتم عليه أن يجـاري المجتمعين .. لإجماعهم على ضرورة قتلك .. أمام أعين الشعب كله .. لتكون عبرة لجميع بني اسرائيل .. ألا يفكروا بعدها أن يرفعوا رأساً !.

ليقتلوك ؟!. شر قتلة .. ويذبحوك بالسيف .. أمام الشعب كله .. ليهدأ الشعب كله !.

فاخرج ؟!. الفـاء للفورية .. اخرج الآن .. فوراً .. أسرع .. لا تضيع وقتاً .. الثواني لها قيمة .. ربما جاءوا الآن .. وأخذوك فوراً ..

وعلى الفور .. وبدون ترتيب .. أو إعداد .. أو تفكير ..

« فخرج منها » فوراً .. هرب موسى .. من العـاصمة .. واختفى في الصحراء ..

« خائفاً » أشد الخـوف .. فإن أجهزة فرعون .. وعيون هامان .. تطارده في كل مكان ..

« يترقب » ؟!. يتوقع أن يقع في أيديهم .. في أي لحظة ..

ان الشعب كله .. يتهامس : أين موسى .. كيف يهرب من دولة بأكملها وكيف يخادع أجهزة هامان ؟!.

والأجهزة كلها تطارده .. على أنه عدو الشعب الأول ..

هنالك .. كان موسى .. وحده .. بين الصحارى والجبال ..

تطارده دولة بأجمعها .. بكل امكانيات المطاردة التي تملكهـــا الدولة الفرعونية العاتية العتيدة ..

هنالك .. تحدى البطل .. كل هؤلاء ..

ونادى من أعماق فؤاده :

« ربِّ نجِّني .

« من القوم الظالمين » !..

فجاءته ... إحداهما ...
تمشي على استحياء ؟!...

العظمة الموسوية ...

لا نستطيع التحليق الى مستواها .. إلا إذا تصورنا .. أننـــا أمام .. كليم الله ..

بطل .. ولكن ليس كمثله بطل ..

شخصية عالية علواً بعيداً .. بعيداً ..

نادى ربه : « رب نجني من القوم الظالمين » !.

فاستجاب له ربه فوراً : « لا تخف نجوت من القوم الظالمين » ؟!.

ونادى ربه : « رب اني لما أنزلت إليّ من خير فقير » .

فاستجاب له ربه فوراً : « فجاءته احداهما تمشي على استحياء .

« قالت : ان أبي يدعوك .

« ليجزيك أجر ما سقيت لنا » ؟!.

قبل .. أن يتم دعاءه .. وقعت الاستجابة ؟!.

وما ظنك والداعي .. كليم الله ؟!.

اللهم صلّ وسلم .. على نبينا ..

اللهم صلّ وسلم .. على موسى !.

ثم ماذا ؟!. ثم نقول :

صُبَّ الخوف كله .. حول موسى .. وهو يفر على غير ترتيب .. في صحراء مصر الشاسعة .. متجهاً نحو الحدود الشرقية ..

موقف .. من أعلى أعالي قمم البطولة ..

رجل .. فرد .. تطارده دولة جبارة رهيبة ..

على رأسها فرعون .. ومن ورائه هامان .. صاحب الأجهزة الجهنمية .. من المخابرات وأدوات التنكيل والتعذيب !.

ومن ورائهم .. جيش عظيم العدة والعتاد ..

وشرطة ها هنا .. وهناك ..

ومن وراء هؤلاء الجنود جميعاً .. شعب هائج ثائر .. يتنادى : أين موسى .. أين موسى .. الموت لموسى .. الموت لموسى !.

تجد الإشارة إلى جبروت الدولة آنذاك في قوله تعالى :

« ونُرِي فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

فرعون ؟!. هذا الرهيب .. الجبار ..

وهامان ؟!. هذا الخطير غاية الخطورة .. تكفي الإشارة منه .. فيقتل من شاء .. ويسجن من شاء .. ويعذب من شاء ..

وجنودهما ؟!. ها هنا مفتاح من أخطر مفاتيح تحليل تلك الدولة الجبارة .

جنودهما ؟!. أي أجهزة فرعون الخاصة به .. وأجهزة هامان التي تتبعه هو رأساً !..

دولة قائمة على المخابرات ..

للقصر مخابراته الخاصة .. التي تتبعه رأساً .. وتأتمر بأمر فرعون رأساً ...

وهامان .. له مخابراته التي تتبعه رأساً .. وتأتمر بأمره .. وإن كانت كلها في خدمة الرأس العليا .. فرعون ..

دولة بوليسية رهيبة .. وهذا شأن كل دولة ديكتاتورية ..

هذه هي الدولة الرهيبة . التي تطارد بكل إمكانياتها .. موسى .. الرجل الفرد .. الذي لا يملك أن يستقر لحظة ليستريح !.

وتلك هي البطولة .. في أعلى مراتب البطولة !.

وفتناك فتونا ؟!.

زلزلناك زلزالاً .. من بعده زلزال .. من بعده زلزال !.

وألقيناك في بحر البلاء .. تقلبك أمواج كالجبال ..

لماذا نضعك في تلك المواضع الرهيبة ؟..

لأنك تُصنع صناعة خاصة يا موسى ..

« ولتصنع على عيني » ؟..

نُلجئك إلى تلك الزلازل .. ونضطرك الى مصارعة تلك الأمواج .. لتخرج منها .. بطلاً .. مدرباً على مصارعة الملايين .. وحده !.

وها هو موسى .. وحده ..

يصارع دولة .. وشعباً .. وحده ..

وفتناك فتونا ؟..

وصهرناك .. في نار البلاء .. صهراً من بعده صهر .. من بعده صهر .. لتخرج نقياً .. على أعلى أعالي النقاء والصفاء !.

ذلكم موسى .. وهذه قطرة من بحار تربيته .. **« واصطنعتك لنفسي »** ..

ثم ماذا ؟.. ثم فشلت فشلاً تاماً .. أجهزة فرعون وهامان .. أن تقبض على موسى ..

واجتاز موسى .. حدود الدولة المصرية الشرقية ..

ودخل إلى أرض مدين ..

وقد تمزقت ثيـــابه .. وتخرقت نعلاه .. ونحل بدنه .. وبلغ به الإعياء منتهاه .. والجوع أقصاه ..

لقد مكث أياماً ولياليها .. يقطع الجبال والقفار .. بلا مأوى وبلا طعام أو شراب ..

وكان أول ما فكر فيه .. أن يبحث عن ماء .. ليطفىء من عطشه الشديد.

« ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل » ..

« توجه بنفسه تلقاء مدين من غير قصد إلى مدين أو غيره ، بل خرج على الفتوح ، وتوجه بقلبه إلى ربه ينتظر أن يهديه ربه إلى النحو الذي هو خيرٌ له ، فقال : عسى ربي أن يهديني إلى أرشد سبيل لي[1] » .

« ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون .

« ووجد من دونهم امرأتين تذودان .

« قال ما خطبكما ؟

« قالتا لا نسقي حتى يُصدر الرعاءُ .

« وأبونا شيخٌ كبيرٌ » ...

قال صاحب اللطائف :

« لما وافى مدين شعيب كان وقت الهاجرة ، وكانت لهم بئر يستقون منها ، فيصبون الماء في الحياض ، ويسقون أغنامهم ، وكانوا أهل ماشية .

« وكان شعيب النبي عليه السلام قد ُكفَّ بصره لكثرة بكائه .

« ففي القصة أنه بكى فذهب بصره ، ثم رد الله عليه بصره فبكى ، فرد

---

(١) نقلاً عن « لطائف الإشارات » ... للإمام القشيري .

الله بصره فبكى حتى ذهب بصره ، فأوحى الله اليه : لم تبكي يا شعيب ؟.. إن كان بكاؤك خوف النار فقد أمنتك ، وإن كان لأجل الجنة فقد أبحتها لك .

« فقال : ربّ .. انما أبكي شوقاً اليك .

« فأوحى الله اليه : لأجل ذلك أخدمتك نبيي وكليمي عشر حجج .

« وكانت لشعيب أغنام ، ولم يكن لديه أجير .

« فكانت بنتاه تسوق الغنم مكان الرعاة .

« ولم يكن لهما قدرة على استقاء الماء من البئر .

« وكان الرعاة يستقون ، فإذا انفضوا فإن بقيت في الحوض بقية من الماء اسقت بنات شعيب .

« فلما وافى موسى ذلك اليوم وشاهد ذلك ورآهما يمنعان غنمهما عن الماء رق لهما قلبه .

« وقال : ما خطبكما ؟

« فقالتا : « لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » وليس لدينا أجير .

« فلما انصرف الرعاة سقى لهما .

« ثم تولى الى ظل جدار بعد ذلك .

« كان الجوع قد أصابه خلال سفره ، ولم يكن قد تعود قط الرحلة والغربة ، ولم يكن معه مال ، فدعا الله ..

« **فسقى لهما .**

« **ثم تولى إلى الظل فقال :**

« **رب اني لما أنزلت إليّ من خير فقيرٌ »** ..

« قيل طلب قوة تزيل جوعه .

« وقيل طلب حالاً يستقل بها .

« والأحسن أن يقال جاع فطلب كِسرة يسد بها رمقه .

« والمعرفة توجب سؤال ما تحتاج اليه من الله قليلاً أو كثيراً .

« فلما انصرفت ابنتا شعيب خرج شعيب الى ظاهر الصحراء على طريق الماشية ليمسها بيديه .

« فوجد أثر الزيادة في تلك الكرّة ، فسألهما فذكرتا له القصة ، وما سمعتا منه حين قال : « رب إني لما أنزلتَ إليّ من خير فقيرٌ .

« فقال شعيب : إذاً هو جائع .

« وبعث إحداهما لتدعوه » ..

« **فجاءته احداهما .**

تمشي على استحياء .

« **قالت ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا .**

« **فلما جاءه وقص عليه القصص .**

« **قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين** » .

« قيل انما استحيت لأنها كانت تخاطب من لم يكن لها محرما .

« وقيل لما دعته للضيافة تكلمت مستحيية– فالكريم يستحي من الضيافة .

« ويقال لم تطب نفس شعيب لما أحسن موسى اليه وأنه لم يكافئه ، وإن كان موسى لم يُرد مكافئة منهم .

« – فلما جاءه وقص عليه القصص – لم يقل : فلما جاءه قدّم السُفرة ، بل قال : وقص عليه القصص .. وهذا طرف من قصته .

« ويقال : ورد بظاهره ماء مدين ، وورد بقلبه موارد الأنس والرُّوح .

« والموارد مختلفة ، فمـــوارد القلب رياض البسط بمكشوفات المحاضرة فيطربون بأنواع الملاطفة .

« وموارد الأرواح مشاهد الأرواح ، فيكاشفون بأنوار المشاهدة ، فيغيبون عن كل احساس بالنفس .

« وموارد الأسرار ساحات التوحيد .. وعند ذلك الولاية لله ، فلا نفس ولا حس ، ولا قلب ولا أنس .. استهلاك في الصمدية وفناء بالكلية !

« ويقال كانت الأجنبية والبعد عن المحرمية يوجبان إمساكه عن مخاطبتهما ، والإعراض والسكون عن سؤالهما .. ولكن الذي بينهما من المشاكلة والموافقة بالسر استنطقه حتى سألهما عن قصتهما .

« ويقال : لما سألهما وأخبرتا عن ضعفهما لزمه القيام بأمرهما ، ليُعلم أن من تفقّد أمر الضعفاء ووقف على موضع فاقتهم لزمه إشكاؤهم .

« ويقال من كمال البلاء على موسى أنه وافى الناس وكان جائعاً ، وكان مقتضى الرفق أن يطعموه ، ولكنه قبض القلوب عنه واستقبله من موجبات حكم الوقت أن يعمل عمل أربعين رجلاً ، لأن الصخرة التي نحّاها عن رأس البئر - وحده - كان ينقلها أربعون رجلاً ، فلما َعمِل َعمَل أربعين رجلاً ، تولّى إلى الظل ، وقال : ان رأيت أن تطعمن بعد مقاساة اللتيـــا والتي .. فذلك فضلك !

« قال ذلك بلسان الانبساط ، ولا لسان أحلى من ذلك .

« وسُنة الشكوى أن تكون اليه لا منك .. بل منه اليه .

« ويقال : تولّى إلى ظـــل الأُنس وروْح البسط واستقلال السر بحقيقة الوجود .

« ويقال قال : « رب اني لمـا أنزلت إليّ من خير فقير » : فزدني فقراً ؛ فإن فقرى اليك يُوجب استغنائي بك » .

ثم ماذا ؟!. ثم نقول : هذه لطائف .. صاحب اللطائف .. في الآيات !..

فماذا هناك من شمشمانيات ؟!.

هناك مشاهد .. جمالها عجيب ..

شاب على الغاية من القوة .. ظاهراً .. وباطناً ..

يتحدى دولة بكل أنواع التحدي ..

ويجتاز الحدود .. ويدخل الى أرض بلاد مجـــاورة .. لا سلطان لفرعون عليها ..

يدخل تلك البلاد .. وهو في أشد الحاجة .. إلى الماء والطعام .. والمأوى.. والأمن والاستقرار ..

ولكن أنّى له ذلك ؟!.

رأى من بعيد .. جماعة غفيرة من الناس يتزاحمون .. فأدرك أنه بئر ماء ..

فتوجه اليه .. ليشرب !.

إلا أنه فوجىء بقانون الغاب .. يحكم هؤلاء المتزاحمين ..

الأقوياء سقوا أغنامهم .. وتفرقوا .. وأغلقوا البئر .. ألقوا عليه حجراً غليظاً .. تنوء بحمله عشرات الرجال ..

ووقفت فتاتان طيبتان .. حييّتان .. لا تدريان ماذا تفعلان ؟!.

هنالك .. تلألأ الفتى موسى ..

وتجلت منه .. صفاته العليا ..

الثورة للضعفاء .. والثورة لنصرتهم ..

« ما خطبكما » ؟!.

إعجاز عجيب .. يريد أن يقول لهما : لماذا ترتبكان .. لمـــاذا تبكيان .. لماذا تضطربان .. لماذا لا تستطيعان سقي أغنامكما ؟!.

هو يعلم الجواب .. ولكن يريد أن يستفتح غوثهما ..

« وقالتا » كما هي عادة النساء .. يتكلمن جميعاً . بلا ترتيب .. كل منهن تريد أن تتكلم !.

« لا نسقي » لا نستطيع أن نسقي أغنامنا .

« حتى يُصدر الرعاء » يرجعوا بمواشيهم .. ويخـــلو المكان منهم .. لا نستطيع مزاحمة الرجال .. ولا أحد يلتفت إلى مشكلتنا !.

« وأبونا شيخ كبير » لا يُطيق أن يسقي .. وإنمـــا نسقي من فضلات المواشي !.

فماذا كان من الفتى ؟!.

تشعشعت منه إشعاعات البطولة والفتوة فوراً ..

نزع الحجر الغليظ وحده ..

« فسقى لهما » الفاء للفورية .. فوراً سقى لهما جميع أغنامهما !.

ورأت الفتاتان لأول مرة .. خُلـُقاً عظيماً .. لا عهد لهما بمثله !.

ثم ماذا ؟!. لم ينتظر منهما جزاء ولا شكوراً ..

وإنما فعل ما فعل .. كأنه لم يفعل شيئاً مذكوراً ..

ثم ماذا ؟!. « ثم تولـّى » ثم توجه بعيداً عنهما .. وهذا خُلـُق رفيع آخر ..

لم يتلبث عندهما .. وإنما تولى عنهما ..

« الى الظل » إلى ظل بعيد .. ظل شجرة .. من أشجار الصحراء ..

هنالك .. والجوع يُلصق أمعاءه بعضها ببعض ..

هنالك .. حيث لا يفطن أحد اليه ..

هنالك .. ناداه ..

« ربِّ » .

« اني .. لما أنزلت إلي .. من خير .. فقيرٌ » !.

هذا مقام .. الافتقار !.

ومِن قبل .. كان في مقام الانكسار .. حين قتل نفساً .. ودخل في غم شديد .. « فنجيناك من الغم » ..

ومِن قبل .. كان في مقام الاضطرار .. حين اضطره اضطراراً .. أن يفر .. وهو خائفاً يترقب .. « فخرج منها خائفاً يترقب » ..

وها هو الآن .. في مقام الافتقار « فقير » !.

ناداه .. من افتقـــاره .. ومن انكساره .. ومن اضطراره .. فلنِعم المجيبون ! ..

« فجاءته » فوراً .. وهو في الظل .. عادت اليه فوراً ..

« احداهما » احدى الفتاتين ..

« تمشي » اليه .. وهذه مفاجأة أخرى ..

« على استحياء » وهي في منتهى الحياء والخجل والاضطراب ..

« قالت » لموسى .. الذي يجلس وحده في الظل .. يتضرع جوعاً ..

« ان أبي يدعوك » لتحضر اليه فوراً ..

ثم ماذا ؟!. سارت الفتاة .. وسار موسى من ورائها .. فجعلت الرياح تكشف عن مفاتنها .. وهي تضطرب مسرعة في استحياء ..

ها هنا .. تلألأ من موسى .. خُلُق رفيع آخر ..

أمرها أن تسير خلفه .. وهو أمامها .. وتدله على الطريق ..

ما هذا ؟!. هذا ترتيب عجيب .. هذه خِطبة .. لتراه ويراها ..

ولتعلم هي من صفاته ..

وليعلم هو من صفاتها ..

ان الله .. يوجه موسى .. الى خِطبتها .. ويوجهها الى خِطبته . وهما لا يشعران !.

وتلك مِنّة أخرى .. على موسى ..

انه يريد مجرد لقمة .. يسد بها جوعته ..

فتأتيه فوراً .. عروس جميلة .. تدعوه بنفسها إلى أبيها ..

لينقلب .. الخائف .. الطريد .. الشريد .. الجائع .. الغريب ..

إلى عريس .. ينعم بالحب والحنان .. وينزل في أكرم بيت في مدين ..

ويتزوج أكرم النساء .. وأجملها .. وأطيبها !.

فكيف كان ذلك ؟!.

أريد ... أن أنكحك ... إحدى ابنتي ؟!...

دخل موسى ...

فوجد في انتظاره مائدة .. عليها أطايب الطعام ..

ويجلس على رأسها .. شيخ كبير .. في وجـــهه أمارات العظمة .. ودلائل الكرم ..

قال الشيخ وهو يرحب بضيفه العظيم : الطعام أولاً .. ثم نتحدث ما شئت ونحن على الطعام ..

وجعل موسى .. يأكل .. ولكن في زهد الأنبياء .. رغم جوعه الشديد !.

والشيخ ينظر اليه في إعجاب ..

انه ينظر إلى نبي !.

والأنبياء .. لهم إدراك غير إدراك البشر أجمعين !.

قال الشيخ : ما قصتك أيها الفتى الكريم ؟.

فانطلق موسى .. يقص عليه القصة من أولها إلى آخرها ..

منذ أن التقطه آل فرعون .. الى عودته إلى أمه .. إلى تربيته في قصر فرعون .. الى خروجه الى المدينة .. الى قتله للفرعوني على غير عمد أن يقتله .. الى الحكم بإعدامه .. الى فراره من مصر كلها .. ومطاردة الدولة له بعيونها وجنودها .. الى دخوله أرض مدين .. الى ما كان من تأثره البالغ حين وجد ابنتيه « امرأتين تزودان » تمنعان غنمهما أن يردوا الماء .. الى دعوة ابنته له .. حتى تلك اللحظة التي هو فيها ..

« فلما جاءه وقص عليه القصص » كل القصص .. كل ما كان وما حدث له من وقائع وظروف ..

واستمع الشيخ اليه في انصات تام .. وعـــلم أنه أمام شخصية عظيمة .. أمام بطل سوف يكون له شأن عظيم ..

ثم قال الشيخ لموسى : اهدأ يا بُني .. واطمئن تماماً .. فلا سلطان لفرعون عليك بعد الآن .. وانزل في ضيافتي .. وفي جواري .. فأنا شيخ هذه البلاد ..

قال موسى : وهؤلاء من ورائي ؟.

قال الشيخ : « لا تخف .. نجوت من القوم الظالمين » .

حتى هنا .. نعمة جليلة .. من الله على موسى ..

أمن .. طعام .. مأوى .. ثم صحبة شيخ عظيم .. كبير ..

مِنن عظيمة .. ولكن هناك مِنن أخرى .. قادمة اليه ..

أوجست الفتاة التي دعته .. أن تنقضي الضيافة .. ويذهب الفتى لشأنه .. وتفلت الفرصة .. وتعود هي وأختها الى سقي الغنم .. ومعاناة المشقة اليومية في تلك المهمة الصعبة ..

فألقت باقتراحها الرائع الى أبيها :

« قالت احداهما :

« يا أبتِ استأجره .

« ان خير من استأجرت القوي الأمين » .

وكانت قنبلة فجّرتها الفتاة الرائعة ..

وفكر الشيخ الكبير : انه لرأي سديد ..

ان نستأجر هذا الشاب القوي .. ليقوم برعي الأغنام وسقيها ..

ويحفظ بذلك ماء الوجه من بناتي .. فلا يتعرضني للأذى ..

ثم تطورت الفكرة .. الى فكرة أحكم .. فيها دهاء الشيخ ..

لِم لا يزوجه احدى ابنتيه هاتين ؟.

فيربح ربحين .. ربح الأجير الذي يعمل له ..

وربح تزويج ابنته من شاب عظيم !.

« قالت احداهما » هي نفس الفتاة التي دعته إلى أبيها ..

« استأجره » سارع الى استئجاره .. ولا تضيع وقتاً .. فلربما تركنا في أي لحظة ..

« ان خير » ان أحسن ..

« من استأجرت » من استعملت في أعمالك وأمورك ..

« القوي » القادر على تبعات العمل .. الصابر على مشاق التعب ..

« الأمين » الذي لا يخون ولا يغدر .. وإنما هو على ما أئتمن عليه حفيظ ..

فزع الشيخ .. أنّى لهذه معرفة صفات هذا الشاب ؟.

قال لابنته : كيف عرفت ذلك ؟.

قالت : أما قوته .. فحين نزع وحده الحجر الذي على البئر .. الذي لا يقدر على نزعه الكثير من الرجال ولو اجتمعوا له .. وأما أمانته فحين جاء معي اليك .. ورأى ما تفعل الرياح بثيابي .. فأمرني أن أستأخر ويستقدم هو أمامي حتى لا يراني !.

هنالك .. تفاعلت الفكرة في رأس الشيخ الكبير .. وفاتح موسى :

« قال :

« إني أريد ان أُنكحك احدى ابنتي هاتين ،

« **على أن تأجرني ثماني حجج .**

« **فان أتممت عشراً فمن عندك .**

« **وما أريد ان اشق عليك .**

« **ستجدني ان شاء الله من الصالحين » !.**

« اني أريد » اني أرغب رغبة شديدة .. وعزمت عزماً أكيداً ..

« أن أنكحك » أن أزوجك .

« إحدى ابنتي » واحدة منهما .. اختر مَن شئت .. إما هـــذه .. وإما هذه .

« هاتين » وأشار الشيخ الى ابنتيه .. الحاضرتين معهما ..

وترك لموسى الاختيار !.

« على » شرط واحد ..

« أن تأجرني » أن تثيبني من تزويجكها ، رعي ماشيتي ...

« ثماني حجج » ثماني سنوات .

« فإن أتممت عشراً » فإن عملت لي عشر سنوات .

« فمن عندك » ليس إلزاماً عليك .. وإنما تفضلاً منك ..

« وما أريد أن أشق عليك » بإلزامك بالوفاء بالعشر سنين ..

« ستجدني ان شاء الله من الصالحـــين » .. في حسن الصحبة ، والوفاء بما قلت ..

وكان عرضاً جميلاً .. تلقفه موسى .. وقبله على الفور ..

واختار موسى .. منهما .. تلك التي دعته إلى أبيها ..

حيث كانت الخِطبة بينهما .. قد وقعت ..

وحيث عبّرت عن إعجابها به بقولها « **القوي الأمين** » ..

والإعجاب .. أول الحب !.

وأعلن موسى .. فوراً .. قبوله الزواج من التي اختارها .. ورحّب بذلك ترحيباً عظيماً ..

ثم أعلن قبوله لمـا اشترطه الشيـخ :

« **قال ذلك بيني وبينك .**

« **أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي .**

« **والله على ما نقول وكيل** » .

« قال » موسى .. مجيباً له .. راغباً لقبول ما ألقاه من الكلام ..

« ذلك » الوقت الذي عينته مازماً لي أولاً ..

« بيني وبينك » معهود ثابت مقرر معقود عليه .. كما أمرتم وحكمتم .. والذي قلتم ثانياً تبرع مـــني ان قدرت على اتيانه بتوفيق الله وتيسيره .. كما قررتم أنتم أيضاً .. وبالجملة ..

« أيما الأجلين » يعني أجل الالتزام .. أو أجل التبرع ..

« قضيتُ » يقع المعهود بلا تردد ..

« فلا عدوان » ولا تعدي .. ليس لك أن تتعدى على مطالبتي بأكثر منه .

« عليّ » بعد انقضاء كل واحد من الأجلين ..

« والله » الشهيد .. المطلع على عموم أحوال عباده ..

« على ما نقول » من المشارطة والمعاهدة .

« وكيل » حفيظ .. يحفظها على وجهها .. أو شهيد على اتفاقنا ..

وهكذا .. تزوجها موسى .. على صداق .. أن يعمل لشعيب .. ثماني سنوات .. أو عشر سنوات !.

وكان عقد نكاح .. اجتمع فيه .. الخير والبركة .. للطرفين ..

الطرف الأول .. الشيخ الكبير .. ربح كثيراً .. ضمّ الى الأسرة .. قوة جديدة .. على مدى عشر سنين ..

شاب عملاق .. قوي .. أمين .. فارس .. مقدام .. لا يهاب الخطوب .. ولا تزلزله الأحداث ..

ومهنة الرعاة .. أحوج ما تكون الى الأقوياء الشجعان ..

وربح الشيخ .. زوجاً كريماً .. لابنته ..

وربح اعفاء ابنتيه من الحرج .. حين كانتا تضطران إلى رعي الأغنام .. وسقي الماشية .. وهو عمل لا طاقة للنساء بأدائه ..

وأما الطرف الثاني .. موسى .. فكان ربحه وفيراً ..

تحوّل الشاب .. الطريد .. الشريد .. الخائف .. المترقب .. الغريب .. الذي لا يعرف أحداً ولا يعرفه أحد .. ولا يجد طعاماً ولا شراباً .. ولا مأوى ولا أمناً ..

تحوّل في لحظة .. الى صاحب بيت .. وزوج لابنة الشيخ .. وصهر له ..

ينزل من البيت حيث يشاء .. في أمن تام .. وإكرام وتكريم ..

وهكذا .. ناداه .. « **رب اني لما أنزلت إلي من خير فقير** » ..

فاستجاب له ربه : « **فجاءته احداهما تمشي على استحياء** » !.

وفاجأه الشيخ .. بما لم يخطر على قلبه : « **أريد ان أُنكحك .. احدى ابنتي هاتين** ! »

منّة أخرى !.

« ولقد مننا عليك مرة أخرى » !.

وعاش موسى عشر سنين .. في صحبة شيخ كريم ..

يربيه .. ويهديه .. ويرقيه .. ويعلمه .. « وأبونا شيخ كبير » ..

شيخ كبير .. يتتلمذ على يديه .. موسى .. ويتعلم منـــه الكثير .. على امتداد عشر سنين ..

وهكذا .. نزعه من قصر فرعون نزعاً ..

وأخرجه من مصر إخراجاً ..

وألقاه .. الى الشيخ وهو لا يدري !.

فأبدله من صحبة فرعون .. صحبة شيخ عظيم ..

بعد أن أطلعه على حياة فرعون .. ومفاسد قصوره ..

نقله الى حياة شيخ عظيم .. لينهل من سلسبيله ..

أما فترة حياته مع فرعون .. فحكمتها أن يكون على إلمـــام تام بأحوال غريمه .. حتى إذا جاءت لحظة الصراع .. كان موسى مؤهلاً للقاء فرعون !..

يا موسى ... إني أنا الله ...
رب العالمين ؟!

أشـــهد ...

اني ظلمت نفسي .. ظلماً كثيراً ..

إذ يممت وجهي .. إلى الأنبياء .. لأكتب عنهم ..

إنهم لا يُدرَكون .. ولا يحاط بهم ..

ولا يُعلمون .. ولا نعلم عن حقائقهم شيئاً مذكوراً ..

فاغفر لي .. فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ..

اقرر ذلك .. تقريراً لعجزي وضعفي وقلة حيلتي .. وأنا أمام أمر جسيم عظيم كريم خطير ..

أمام أجل لحظة .. وأعلى لحظة .. وأخطر لحظة .. من حياة موسى ..

أمام أجمل مفاجأة .. وأسمى مفاجأة .. وأحلى مفاجأة ..

أمام أعظم مِنّة .. وأضخم مِنة .. وأكبر منة .. على موسى !.

أحاول تصويرها .. فلا أستطيع ..

وأحاول إدراكها .. فأرتد خاسئاً وأنا حسير !.

فباسمك اللهم .. أبدأ .. وعليك أتوكل ..

قال تعالى :

« .. فلبثت سنين في أهل مدين »

« ثم جئت على قدر يا موسى » .

لبث موسى في أهل مدين .. عشر سنين ..

حياة هادئة .. بسيطة .. على الفطرة ..

ثم اشتاق موسى الى أرض الوطن .. وإلى أهله بمصر ..

فخرج من مدين .. ومعه زوجه .. وأولاده .. والأغنام التي وهبها له الشيخ الكبير ..

وسارت القافلة الصغيرة في صحراء سيناء .. ووجهتها مصر ..

وفي ليلة شاتية .. رياحها عاتية .. وبردها زمهرير .. ضل موسى طريقه وسلك طريقاً غير الطريق السوي ..

ثم كانت الشدة أن امرأته .. فاجأها الطلق .. وجعلت تعاني آلام الولادة.

فاشتد الأمر على موسى .. وجعل يبحث عن سبب من أسباب الدفء في تلك الظلمات الشديدة .. والعواصف الرهيبة .. فلم يجد شيئاً يسعفه في هذا السبيل !.

وفجأة .. رأى ناراً .. على بُعد .. تتوقد وتتوهج !.

« وهل أتاك حديث موسى .

« إذ رءا ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » .

« وهل أتاك » وقد ثبت وتحقق عندك ..

« حديث » أخيك ..

« موسى » الكليم .. وقصة انكشافه من النار التي احتاج اليها هو وأهله .. في الليلة الشاتية المظلمة .. اذكر يا أكمل الرسل وقت ..

« إذ رأى » موسى » ..

« ناراً » مطلوبة » له لدفع البرودة .. ولوجدان الطريق في الظلمة ..

« فقال لأهله » المحتاجين اليها في تلك الليلة ..

« امكثوا إني آنست ناراً لعلّي » أوانس عندها مع إنسان أستخبره عن الطريق .. وحين رجوعي نحوكم ..

« آتيكم منها بقبس » جذوة نار تصطلون بها ..

« أو » أتخذ منها سراجاً ..

« أجد على النار هدى » أي مع السراج المسرجة هدى .. طريقاً موصلاً إلى مطلوبنا .

وفي سورة القصص :

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطّور ناراً قال لأهله امكثوا اني آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النـــار لعلكم تصطلون » .

قال صاحب اللطائف :

« مضت عشر حجج ، وأراد موسى الخروج الى مصر .

« فحمل ابنة شعيب ، وسار بأهله متوجهاً الى مصر .

« فكان أهله في تسييره ، وكان هو في تسيير الحق .

« ولما ظهر ما ظهر بامرأته من أمر الطاق استصعب عليه الوقت .

« وبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً – أي أبصر ورأى –

« فكأنه يشير الى رؤية فيها نوع أنس .

« وإن الله إذا أراد أمراً أجرى ما يليق به .

« ولو لم تقع تلك الحالة لم يخرج موسى عندها بإيناس النار .

« وقد توهّم – أول الأمر – أن ما يستقبله في ذلك الوقت من جملة البلايا .

« ولكنه كان في الحقيقة سبب تحقيق النبوة .

« فلولا أسرار التقدير – التي لا يهتدي اليها الخلق – لمـــا قال لأهله : « امكثوا إني آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بخبر » .

« ويقال : ألاح له ناراً ، ثم َلوّحَ له نوراً ، ثم بدا ما بدا ، ولا كان المقصود النار ولا النور .

« وإنما سماع نداء : « إني أنا الله رب العالمين » .

والآن .. ندخل الى ما تتبشبش له القلوب .. وتهش له الأفئدة ..

ويقف العقل أمامه .. مشلولاً مغلولاً !.

« **فلما أتاها نودي يا موسى** .

« **اني انا ربك** .

« **فاخلع نعليك** .

« **انك بالواد المقدس** .

« **طُوىً !..**

« فلما أتاها » فلما أتى موسى النار مسرعاً .. ليرجع اليهم سريعاً ..

« نودي » من جانب الشجرة الموقدة عليها النـــار .. ليقبل اليها .. وينكشف منها السر ..

« يا موسى » المتحير في بيداء الطلب .. اطلبني من هذه الشجرة الموقدة .. ولا تستبعد ظهوري فيها .. حتى انكشف لك منها ..

« إني » وإن ظهرت على هذه الصورة المطلوبة لك ظاهراً ..

« أنا ربك » ومطلوبك الحقيقي حقيقة .. الذي قد ربيتك بأنواع اللطف والكرم وابتليتك بأنواع البلاء في طريق المجاهدة .. لتوجه إليّ فتعرفني .. فالآن قد ارتفعت الحجب والقيود .. وتحققت بمقام الكشف والشهود ..

« فاخلع نعليك » واسترح عن الطلب .. بعد وجدان الأرب .. وتمكن في مقعد الصدق ..

« انك بالواد المقدس » عن رذائل الأغيار مطلقاً ..

« طوًى » أي طويت عنك التوجه الى الغير » ..

وفي سورة القصص :

« فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الايمن في البقعة المباركة من الشجرة ان يا موسى إني أنا الله رب العالمين » ..

قال صاحب اللطائف :

« أخفى تعيين قدم موسى على الظنون بهـــذا الخطاب حيث قال : « من شاطىء الواد الأيمن » .

« ثم قال : « في البقعة المباركة » .

« ثم قال : « من الشجرة » .

« وأخليق بأن تكون تلك البقعة مباركة .

« فعندها سمع خطاب مولاه بلا واسطة ، وأعز الأماكن في العـــالم مشهد الأحباب .

« ويقال : كم قدم وطئت تلك البقعة ، ولكن لم يسمع أصحابها بها شيئاً !.

« وكم ليلة جنّت تلك البقعة ولم يظهر من تلك النار فيها شعلة !.

« ويقال : شتان بين شجرة وشجرة ؛ شجرة آدم عندها ظهور محنته وفتنته ، وشجرة موسى وعندها افتتاح نبوته ورسالته !.

« ويقال : لم يأت بالتفصيل نوع تلك الشجرة ، ولا يُدرى ما الذي كانت تثمره ؟

« بل هي شجرة الوصلة وثمرتها القربة ، وأصلها في أرض المحبة ، وفرعها باسق في سماء الصفوة ، وأوراقها الزلفة ، وأزهارها تنفتق عن نسيم الروح والبهجة .

« فلما سمع موسى تغيَّر عليه الحال .

« ففي القصة : أنه غُشي عليه .

« وأرسل الله الملائكة اليه ليروِّحوه بمراوح الأُنس .

« وهذا كان في ابتداء الأمر ، والمبتدىء مرفوقٌ به » .

« وأنا اخترتك فاستمع لما يُوحى .

« إنني أنا الله لا إله إلا أنا .

« فاعبدني .

« وأقم الصلاة لذكري .

« ان الساعة آتية أكاد أُخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى .

« فلا يُصدَّنك عنها مَن لا يؤمن بها واتَّبعَ هواه فتردَى » !..

« و » لم يبق لك احتياج الى الاستكمال والاستهداء .. وبعد وصولك الى مقام الكشف والشهود ..

« أنا اخترتك » واصطفيتك من بين المكاشفين للتكميل والرسالة على الناس

الناسين التوجه الى بحر الحقيقة .. فعليك التوجه إلى الاهتداء .. والتجنب عن الميل إلى مطلق الهوى ..

« فاستمع » واقتصر في إرشادك ورسالتك ..

« لما يوحى » اليك من مقام جودنا .. ولا تلتفت الى الأهواء الفاسدة .. حتى لا تضل أنت بنفسك .. ولا تضلهم عن السبيل .. فبلّغ الى الناس نيابة عني .. وحكاية مني ..

« إنني أنا الله » الواحد الأحـــد .. الفرد الصمد .. المحيط بجميع مراتب الأسماء ..

« لا إله » ولا جامع لجميع المراتب ..

« إلا أنا » بجميعها .. المحيط بكلها .. المستحق للإطاعة والانقياد ..

« فاعبدني » أنت حق عبادتي .. فأحسن الأدب معي .: وتخلق بأخلاقي..

« وأقم الصلاة » وداوم بجميع الأعضاء والجوارح ..

« لذكري » أي توجه نحوي بعموم أعضائك وجوارحك .. لتذكرني بها.. وتشكرني بجميعها .. حتى انكشف لك من كل منهـــا .. بحيث كنت سمعك وبصرك ويدك ورجلك إلى غير ذلك .. من سائر جوارحك وآلاتك .. حـتى قامت قيامتك الكبرى .. وقمت بين يدي المولى .. وتمكنت في جنة المأوى .. عند سدرة المنتهى .. التي ينتهي ويرتقي اليها عروجك في الصعود والارتفاع ..

ثم قال سبحانه .. تعليما لعباده .. وحثا لهم على طلب الانكشاف التام :

« إن الساعة » أي ساعة الانكشاف التـــام .. الذي لم يبق معه ودونه الطلب .. مثل انكشافك يا موسى ..

« آتية » حاصلة .. حاضرة .. لكل أحـــد من الناس .. دائماً في كل آن لكن ..

« أكاد أخفيهـــا » أي أقرب حسب حكمتي .. أن أخفي ظهورها لهم وإطلاعهم عليها ..

« لتـُجزى » وتتمكن ..

« كل نفس » بمرتبة من المراتب الإلهية ..

« بما تسعى » أي بحسب ما تجتهد فيه .. وتكتسب من امتثال الأوامر واجتناب النواهي .. الجارية على ألسنة الرسل .. لئلا يبطل سرائر التكاليف .. وأحكام الشرائع .. وإذا كان الأمر كذلك ..

« فلا يصدنك عنها » ولا يصرفنك عن الأمر بالانكشاف التام اعراض ..

« مَن لا يؤمن بها » تقليداً .. حـــتى يطلبها تحقيقاً .. بل قد أنكرها وأعرض عنها ..

« واتبع هواه » المضل اياه .. في تيه البعد والحرمان ..

« فتردَّى » انت وتهلك .. بمتابعته في بيداء الجهل والخذلان » .

انتهى ما قاله صاحب « الفواتح الإلهية » في تفسير الآيات !.

فماذا عند أهل الكتاب .. في تصوير ذلك المشهد المقدس ؟!

قالوا :

« وظهر له ملاك الرب بلهيب نار ، من وسط عُليْقة .

« فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار ، والعليقة لم تكن تحترق .

« فقال موسى : أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم .

« لماذا لا تحترق العليقة ؟!.

« فلمـــا رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة وقال : موسى موسى .

« فقال : هأنذا .

« فقال : لا تقترب إلى ههنا .

« اخلع حذاءك من رجليك .

« لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة .

« ثم قال أنا إله أبيك ، إله ابراهيم ، وإله اسحاق ، وإله يعقوب .

« فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله » ..

هذا شيء مما ورد عند أهل الكتاب .. عن هذا المشهد الخالد !.

وأقول .. ليس لي قول في مثل هذه الأمور .. التي تعلو على العقول !.

وإنما بثثت أمام عينيك الآيات .. ونشرت تحت ناظريك التفسيرات ..

ثم الله يتولاني ويتولاك ..

فلعلك تفهم ما لم أفهم !.

أو تعلم ما لم أعلم !.

وما تلك ... بيمينك ... يا موسى ؟!...

منظر ... من المناظر الالهية ...

فيه تلطف .. بلغ من الجمال .. جمالاً ليس كمثله جمال !.

انظر :

« اذ قال موسى لأهله اني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون .

« فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين .

« يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم .

« وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف اني لا يخاف لدي المرسلون .

« إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فاني غفور رحيم » ا..

غاية التلطف .. وغاية التنزل ..

« إذ قال موسى » حين قال موسى ..

« لأهله » وهو في مسيره من مدين إلى مصر .. وقد أذاهم برد ليلهم ..

« إني آنست ناراً » أبصرتها .. وأحسستها ..

« بشهاب قبس » شعلة نار ..

« فلما جاءها » أتاها ..

« نودي » يا موسى ..

« أن بُورِكَ مَن في النار » قُدِّس .. « مَن في النار ومَن حولها » وكانت النار نور رب العالمين في الشجرة .. فعَنى بذلك : نفسه – عز وجل –

« مَن حولها » حول النار من الملائكة ..

« وسبحان الله » تنزيهاً له .. عز وجل ..

« إنه » أن الشأن والأمر ..

« أنا الله العزيز الحكيم » ..

« كأنها جان » كأنها حيّة عظيمة .. والجان جنس من الحيات معروف ..

« ولّى مدبراً » هارباً خوفاً منها ..

« ولم يُعقّب » لم يرجع .. من قولهم : عقّب فلان : إذا رجع على عقبه إلى حيث بدأ ..

« لديّ » عندي ..

« المرسلون » رسلي .. وأنبيائي ..

« إلا مَن ظلم » منهم فعمل بغير الذي أذِن له في العمل به . لا يُخيف الله الأنبياء إلا بذنب يصيبه أحدهم ..

« ثم بدّل حُسناً بعد سوء » يقول : فمن أتى ظلماً ، وركب مأثماً من خلق الله ، ثم تاب من ظلمه ذلك وأناب ..

« فإني غفور رحيم » فإن الله ساترٌ عليه بعفوه ، رحيم به .

يقطع موسى .. لامرأته وأولاده .. سآتيكم منها بخبر .. أو بشهاب ؟!.

اما أجد عندها أخبار تنفعنا في رحلتنا .. وترشدنا إلى طريقنا ..

أو آتيكم بشهاب .. بشعلة منهـا .. لعلكم تصطلون .. تستدفئون من هذا الزمهرير الشديد !..

لم يخطر بباله قط .. أن الأمر يعدو ذلك .. انهـــا مجرد نار أشعلها بعض الناس في الصحراء !.

وهذا جمال المفاجأة العظمى !.

ثم كانت أجمل مفاجأة :

« فلما جاءها نُودي » ؟!.

كيف كان النداء .. وكيف كان الصوت ؟!.

لا .. « كيف » .. ان الله يناديه ..

لا يعلم ذلك إلا الله .. ولم يذق هذا المذاق .. إلا موسى !.

« بُورك مَن في النار »

« ومَن حولها » ؟!.

تباركت .. أنا .. وتعاليت !.

وبوركت .. يا موسى !.

« وسبحان الله رب العالمين » ؟!.

الله ؟!. يقدس نفسه .. ويسبح نفسه ؟!.

وموسى .. يسمع .. ويسمع ..

ويَرقى .. ثم يرقى .. ثم يرقى .. إلى ما شاء الله له أن يرقى ..

ويُقرَّب .. ثم يُقرب .. ثم يقرب ..

« وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا » .

وناديناه .. وقرّبناه ؟!.

تأمّل .. لمّا ناديناه .. قربناه ؟!.

انه يُقرّب .. ثم يقرب .. ثم يقرب .. إلى ما شاء الله !.

« نجيا » مناجياً .. روى أن الله عز وجل أدناه حتى سمع صريف القلم !.

منظر .. بلغ من الجمال منتهاه ..

ان موسى .. يُبدَّل .. غير موسى قبل النداء ..

انه يصنع صناعة أخرى !.

ثم ماذا ؟!. ثم ندخل الى منظر جميل جميل ..

« وما تلك بيمينك يا موسى » ؟!.

سؤال .. فيه تنزُّل .. وتلطف .. عجيب !.

ثم انظر .. إلى بشرية موسى :

قال :

« هي عصاي »

« اتوكأ عليها »

« وأهش بها على غنمي »

« ولي فيها مآرب أخرى » !..

موسى .. يشرح موضوع العصا ؟!.

« وأهُش بها على غنمي » أضرب بها الشجر ، فيسقط ورقها .. فترعاه غنمي .. يقال منه : هشَّ فلان الشجر ، يهُش هشّاً ؛ إذا اختبط ورق أغصانها فسقط .

« مآرب » حاجات ، ومنافع ..

قرر موسى انها عصا .. قطعة خشب ..

ثم كانت مفاجأة أخرى ..

« قال ألقها يا موسى ؟!.»

أمرٌ .. لا يدري موسى .. ما المراد منه ؟!.

وفي سورة النمل : **« ألق عصاك » ؟!.**

وعلى هذا يكون : ألقها .. يا موسى .. ألق عصاك ..

ثم ماذا ؟!. « فألقاها » ؟!.

فوراً .. ألقاها .. الى الأرض ..

ثم ماذا ؟!. ثم ما لم يخطر على قلب موسى ؟!.

« فاذا هي حية تسعى » ؟!.

فإذا ؟!. فوراً .. بمجرد أن ألقاها .. انقلبت ..

« حيّة » كائناً حيّاً .. ثعباناً ضخماً ..

« تسعى » تتحرك سريعاً .. وتهتز كأقوى ما يكون اهتزاز الحياة ! .

والإشارة الى ذلك .. في قوله : « فلما رآها تهتز كأنها جان » ..

تهـــتز ؟!.

تعبير .. ليس كمثله تعبير ؟!.

تهتز .. بكل ما يتصور من حيوية ونضارة وغضارة .. حيّة أتم حياة .. كأنها جان .. تثير الرعب والفزع فيمن رآها .. فكيف بمـــن رآها فجأة ..

« فلما رآها » .. كانت مفاجأة أرهبت وأرعبت موسى ..

« ولـّى مدبراً » أطلق ساقيه .. وهرب منها خائفاً أشد الخوف ..

« ولم يُعقب » ولم يرجع .. ولم يفكر أن يرجع ؟!.

منظر غريب .. ولكنها البشرية .. إذا فوجىء الإنسان بشيء لم يره من قبل .. ذُعر ذعراً شديداً ..

فلا غرابة .. أن يولي موسى هارباً .. خائفاً مما يرى !.

ثم ماذا ؟!. ثم أجمل منظر من مناظر اللطف والملاطفة :

« يا موسى »

« اقبل »

« ولا تخف » !..

موسى .. يجري مسرعاً .. لا يريد أن يلتفت وراءه .. خوفاً من هـذا الجان .. الذي يهتز ..

فيناديه .. ربه : يا موسى ..

وموسى .. لا يفكر أن يرجع !.

أقبل .. ارجع .. مُقبلا ..

ولا تخف .. من هذه الحية التي أفزعتك ..

« انك من الآمنين » أنت عندي .. وفي حضرتي .. ومن كان عندي ؟!.

« اني لا يخاف لديّ المرسلين » !.

ثم ماذا ؟!. ثم مفاجأة أعجب من سابقتها ..

« قال :

« خذها » ؟!.

خُذها ؟!. أنا آخذها .. أنا أجترىء على امساك هـذا الجان الذي يهتز اهتزازاً ؟!.

« ولا تخف » أمسكها يا موسى .. لا تخف منها ..

« سنعيدها سيرتها الأولى » عصىً كهيئتها الأولى ..

وأمسك موسى بالحيّة .. فإذا بها في يده فوراً .. عصىً .. كما كانت !.

وجعل موسى يتأمل ما في يده .. انها عصاه .. التي يعرفها جيداً !.

ثم ماذا ؟!.

أسلك يدك ... في جيبك ...
تخرج بيضاء ؟!...

مفاجأة أخرى ...

« اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء .

« واضمم اليك جناحك من الرهب .

« فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملإه انهم كانوا قوما فاسقين » .

« اسلُك » أدخِل ..

« يدك في جيبك » في جيب قميصك ..

« تخرج بيضاء » خرجت كالمصباح ..

« من غير سوء » من غير أذى ..

« واضمُم اليك جناحك » الذراع هو الجناح ..

« مِن الرَّهب » من الخوف ، والفرَق الذي قد نالك ..

« فذانِك برهانان » يعني تحويل : العصا حيّة .. ويده بيضـــاء ، هما برهانان وآيتان .

وفي سورة النمل :

« وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء .

« في تسع آيات إلى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فاسقين » .

« في تسع آيات » يقول : فهي آية من تسع آيات أنت بها مرسل ..

قالوا : « هي التي ذكر الله في القرآن :

العصا ، واليد ، والجــــراد ، والقمل ، والضفادع ، والطوفان ، والدم ، والسنين ، والطمس الذي أصاب آل فرعون في أموالهم » .

وفي سورة طه :

« واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى » .

« لنريك من آياتنا الكبرى » .

« واضمُم يدك إلى جناحك » ضمها تحت عضَدك ..

« من غير سوء » من غير داء ..

« من آياتنا الكبرى » من أدلتنا الكبرى على عظيم سلطاننا وقدرتنا .. أي من عجائبنا ..

وبعد .. ما هذه الآية الأخرى .. وكيف كانت ؟!.

أمره الله .. أن يُدخل يده من فتحة قميصه التي حول الرقبة .. أن يدخلها تحت ذراعه الآخر .. ثم يخرجها .. فإذا هي بيضاء ..

أي فإذا هي نور .. يتشعشع .. ويأخذ بالأبصار ..

منظر جميل .. يد موسى .. تحولت الى نور شديد .. له إشعاع باهر !..

ولكن الأعجب .. أن يد موسى سليمة .. لم تحترق .. ولم يحدث لها أي « من غير سوء » !..

كيف هذا ؟!. « آية أخرى » !..

فذانِك .. برهانان ؟!.

برهانان ؟!. دليلان ..

كأنه يراد أن يقال : يا أيها الفرعون .. لقد خوّفت شعباً بأكمله ..

أرهبته .. وأرعبته .. وسخّرته .. واستعبدته .. واحتقرته .. وذبحت أبناءه .. واستحييت نساءه .. وفعلت به الأفاعيل ..

أيها الفرعون .. خوّفت عبادي .. وأرهقتهم .. وعذبتهم ..

لأخيفنّك .. خوفاً لم يخطر على بالك ..

فذانِك برهانان .. من ربك .. الى فرعون ..

البرهان الأول .. العصا .. تنقلب الى ثعبان ..

هذا الثعبان سيخيفك يا فرعون ..

وسوف تفر هارباً أمامه .. ثعبان واحد .. يخيف الإله الكاذب .. فأين قوتك .. وأين جبروتك ؟!.

البرهان الثاني .. ظهور شيء من حقيقة موسى .. أمام أعينكم ..

ان حقيقة موسى .. أنه نور .. مغطى بجسد ..

سنرفع الغطاء عن جزء من جسده .. عن يده فقط .. فتظهر الحقيقة من ورائها .. يظهر النور ..

وهذا النور .. أعلى وأقوى من نور الشمس .. وسوف تبصرونه بأعينكم ..

لتعلم أيها الفرعون الدعيّ .. أنك تتعالى .. على موسى .. وأنت أقل من أن تكون له خادماً !.

أيها القائل :

« أم أنا خيرٌ مِن هذا الذي هو مهينٌ ولا يكاد يبين » ؟!.

كبرت كلمة تخرج من فمك ..

بل أنت المهين .. ولسوف تعلم !..

لا تخافي ... لا تخف ... لا تخافا !؟...

هناك ... مفتاح ...

أعمق من المحيط .. وأبعد من السماء ..

مفتاح رهيب عجيب .. ان شاء الله .. يرشدنا الى الكثير .. من شخصية موسى .. وشخصية قوم موسى ..

هذا المفتاح .. هو « **تركيبة الخوف** » .. التي تنتظم قوم موسى .. أو بني اسرائيل .. على عهد موسى .. والتي ورثها موسى طفلاً في تركيبه وبنيانه .

كان قوم موسى .. خائفين دائماً ..

وكان موسى الطفل .. خائفاً .. فلماذا ؟!

لسبب بديهي .. أنه شعب مضطهد .. محتقر .. مستعبد .. مسخر ..

كل أنواع الاضطهاد .. والاحتقار .. والاستعباد ..

وكل رذائل السخرة !..

« **وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب** » !..

يسومونكم ؟!. يعاملونكم معاملة السوائم .. والبهائم ..

بل أحقر من البهائم .. « سوء العذاب » أسوأ أنواع العذاب ..

الدولة تعتبرهم أعداء .. أشد أعداء الدولة .. ومن كان عدواً لفرعون فهو عدو للدولة ..

لأن الدولة .. هي فرعون .. وما يراه فرعون .. وما يريده فرعون ..

« ما أُريكم إلا ما أرى » !..

أما هؤلاء الملايين .. فلا رأي لهم ..

الرأي للمذكور !..

واشتدت نزعة الوطنية الحارقة .. عند المذكور ..

وهؤلاء ليسوا مصريين – وقد يستعملهم العدو الخارجي ..

إذن فالويل لهم .. رقابة .. استعباد .. اتهامات بالباطل .. إبادة الذكور .. فجور بالإناث .. سخرة .. احتقار .. ازدراء ..

ثم ازداد العداء .. من فرعون لهم .. ثم عداء قوم فرعون من ورائه .. كما هي العادة ..

لأن قوم موسى .. يعبدون الله .. الحق ..

والمذكور .. يريد أن يكون إلهاً .. ورباً ؟!.

هناك إذاً تنافس خطير ..

إذاً فليسحق عبّاد .. هذا الإله الذي يعبده بنو اسرائيل ..

ولا مانع من قتل إله موسى .. هذا المنافس الخطير للمذكور !

« يا هامان ابن لي صرحاً لعلّي ابلغ الأسباب . أسباب السماوات فاطلع الى إله موسى وإني لأظنه كاذباً » ؟!.

هكذا بلغ استخفاف فرعون بعقول شعبه .. ودخل في مرحلة اللامعقول !.

رُويَ أنه صعد الصرح .. وألقى بالسهم .. وخضبه بالدم .. وعاد يزعم للشعب أنه قتل إله موسى !..

والشعب الغبيّ . لا يجرؤ أن يعارض المذكور !..

في هذا الجو الكئيب الرهيب المريض .. كان يعيش قوم موسى ..

كل منهم خائف !.. لا يدري أحـــد منهم ماذا يكون مصيره .. وماذا يُفعل به ؟!.

وهامان .. عصا فرعون الخطيرة .. يلهب ظهورهم بسياطه .. وعذابه .. ومؤامرته وتلفيقاته !..

من هذا الشعب الخائف المذعور ..

وُلد موسى .. من أم خائفة .. وأب خائف ..

فورث في تركيبه وهو طفل . الخـــوف .. وتوقع البطش من فرعون وجنوده في أي لحظة ..

من اللحظة الأولى .. لحظة الولادة ..

الأم خائفة .. والأب خائف .. والمولود خائف !.

وكيف لا يخافون .. وهم يتوقعون أن يُذبح المولود في أي لحظة ؟!.

استمع :

« فاذا خفت عليه فألقيه في اليَم »

« ولا تخافي ولا تحزني » ؟!.

خفت عليه ؟!. هناك خوف وفزع ورعب ..

ولا تخافي ولا تحزني ؟!. إذاً هي خائفة وحزينة أشد الحزن !..

ثم استمع الى هذه الأخرى ..

الى الرعب والخوف الذي كان بموسى .. حـــين فرّ من مصر .. وأجهزة فرعون الرهيبة تطارده :

« ففرَرتُ منكم لمَّا خِفتكم » !.

فرار .. والفرار لا يكون إلا من خوف شديد ..

لمّا خفتكم ؟!. خفتكم جميعاً .. كلكم أعداء لي .. فرعون وجنوده جميعاً .. والشعب من ورائهم كما هي العادة !.

ثم انظر كيف لازم الإحساس بالخوف موسى .. حتى بعد أن ناداه الله وكلمه .. يفر خوفاً من الحية .. والله يناديه ويطمئنه ويعلمه أنه من الآمنين :

« قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى » !.

لا تخف .. تركيب الخوف .. ولذلك خوّفه الله بالحيّة .. لينزع منه إحساس الخوف .. بخوف أشد منه ..

« يا موسى لا تخف اني لا يخاف لديّ المرسلون » !.

ثم انظر الى التربية العجيبة من الله لموسى .. لعلمه تعالى أن الخوف في بنيانه :

« واضمم اليك جناحك من الرّهب » !.

من الرهب ؟!. من شدة الخوف والرهبة .. إذا شعرت بشيء من هذا يا موسى .. فألصق ذراعك الى جنبك .. لتهدأ وتطمئن !.

ثم انظر الى شدة خوف موسى وهو يقص على الشيخ الكبير القصص .. وكيف أن الشيخ لاحظ خوفه ورعبه فجعل يهدىء من روعه :

« فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » !.

لا تخف .. إذاً هناك خوف شديد من موسى !.

ثم انظر كيف أن هذا الإحساس بالخوف مستمكن من موسى .. حتى بعد أن أرسله الله الى فرعون رسولاً .. واختاره وأمره بذلك فماذا كان جواب موسى لربه ؟!.

« قال ربّ اني أخاف ان يكذبونِ » ..

« ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلونِ » ؟!.

أخاف أن يكذبونِ ؟.

أخاف أن يقتلونِ ؟.

انه الخوف .. يلازم موسى .. ويلازم تعبيره عن أحاسيسه ؟..

« قال رب اني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلونِ » .

ثم :

« فأرسله معي ردءاً يصدّقني اني أخاف أن يكذبونِ » ؟..

الإحساس بالخوف .. دائماً ؟!.

ودليل ذلك أن الإحساس بالخوف .. امتد الى هارون كذلك .. وهـــذا دليل .. على أن قوم موسى .. كان يسودهم الرعب .. من عذاب فرعون وجبروته . .

أمرهما الله :

« اذهبا الى فرعون انه طغى .

« فقولا له قولا ليّناً لعله يتذكّر أو يخشى » .

فماذا كان جواب موسى .. وجواب هارون ؟!.

« قالا :

« ربنا إننا نخاف .

« ان يفرط علينا او ان يطغى » ؟..

اننا نخاف ؟..

نفس الشعور .. ونفس الخوف .. حتى بعد إرسالهما ؟..

والسبب في هذا الذعر السائد في قوم موسى **« ان يفرط علينا .. او ان يطغى » ..** إجرام وجبروت فرعون .. أمام أعينهم دائماً ؟..

فماذا قيل لهم ؟..

قال :

« لا تخافا »

« انني معكما »

« اسمع وأرى »..

لا تخافا .. سأذهب من قلوبكم وتركيبكم هذا الإحساس .. فلا تخافا ..

استشعروا دائماً أنني معكما .. يذهب الخوف منكم ..

ولما كان يوم الزينة .. ماذا كان من موسى ؟..

« فأوجس في نفسه خيفة موسى »..

نفس الشعور .. لأنه يتحدى فرعون الرهيب .. مصدر إرهاب قوم موسى .. وإشاعة الرعب في نفوسهم ..

فماذا قال له الله ؟.

« قلنا لا تخف انك أنت الأعلى » .

لا تخف .. كما قيلت له من قبل « خذها ولا تخف » ..

ودليل أكبر على ان عقدة الخوف ورثها الأبناء عن الآباء .. قوله تعالى :

فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ..

« إلا ذرية » .. إلا طائفة من الشباب من بني إسرائيل ..

ولكن « على خوف » .. دائم مستمر .. ورعب قاتل .. من فرعون .. أن يفتنهم .. أن يعذبهم ويسلط عليهم زبانية التعذيب !..

هؤلاء شباب .. ولكن نشأتهم في نفس الظروف القاتلة القاتمة .. جعلتهم على خوف .. كآبائهم من قبل ..

وفي أحرج لحظة .. حين تأكد قوم موسى .. أن فرعون يدركهم لا محالة ..

كان الأمر الى موسى :

« **فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً** »

« **لا تخاف دركا ولا تخشى** » ..

لا تخاف دركا .. انه الخوف من فرعون .. أثار الرعب في جميع قوم موسى .. وتنادوا « **إنا لمُدْركون** » .. سوف يدركنا فرعون .. ويا ويلنا إذا وقعنا في يده هذه المرة .. إنها جهنم سوف نصلاها ..

هذا هو المفتاح الخطير .. الذي يفتح لنا فهم الظروف التي كان يعايشها موسى .. ويحترق فيها قوم موسى ..

شعب يصرخ .. من سوء العذاب .. وسوء الاضطهاد ..

ونبي رسول .. نشأ في هذا الخوف وهذا العذاب ..

واصطلى بنار الخوف .. كما اصطلى قومه ..

« **فأصبح في المدينة** »

« **خائفاً .. يترقب** » ؟..

خوف دائم .. وترقب دائم ...

كان هذا إحساس موسى ..

وكان هذا إحساس كل فرد من قوم موسى ..

ولذلك .. نوديت .. أم موسى .. « **لا تخافي** » ؟..

ونودي .. موسى .. « **لا تخف** » ؟.

ونودي .. موسى وهارون « **لا تخافا** » ؟.

فافهم .. إن شئت أن تفهم !..

اضرب ... بعصاك !؟...

سر آخر ...

جماله عجيب !..

ما دام هذا الفرعون .. يعتمد على القهر .. « **وإنا فوقهم قاهرون** » !..

فهو كلبٌ .. لا يُعامل إلا بالعصا !..

فلنبعثن موسى .. ليؤدبه .. بالعصا .. كما يؤدب الكلب .. بقرعه بالعصا!.

ولنجعلن في هذه العصا .. من آياتنا الكبرى !..

« **لنريك من آياتنا الكبرى** .

« **اذهب الى فرعون انه طغى** » .

لنريك .. يا موسى .. في هذه العصا .. من آياتنا الكبرى !..

وقد كان الأمر .. كما نبّأ الله موسى ..

وكان الأمر يصدر بهذه الصيغة « **اضرب بعصاك** » ..

اشارة الى أن هـــذا الكلب الذي تسمى فرعون .. سوف يُضرب بهذه العصا .. وسوف يُضرب هو ونظامه الفاسد المتعفن .. حتى يزول ؟..

« **اذهب الى فرعون** » ..

وكانت إشارة جبّارة قهّارة ..

انظر :

« اضرب بعصاك الحجر »

« فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً » ..

تأمّل تعبير « اضرب » ..

ثم انظر :

« اضرب بعصاك البحر »

« فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ؟..

اضرب بعصاك البحر .. تأمّل .. وتفكّر !..

ما دام الأمر أمر قهر فرعون .. فلنقهرنه .. بأحقر شيء .. بقطعة خشب لا حول لها ولا قوة في ذاتها ..

ولكن سوف نجعل فيها من آياتنا الكبرى .. ما يطارد فرعون أينما كان .. ويقضّ مضجعه .. ولنفزعنّه كما فزّع عبادي !..

كل أولئك .. بعصا .. بقطعة خشب لا وزن لها في ذاتها ؟..

ولكن القهروت الإلهي .. يتجلى فيها ..

« وألق ما في يمينك »

« تلقف ما صنعوا » !..

وكانت عصا موسى .. آية كبرى ..

وتجلت فيها .. آيات الله الكبرى ..

إشارة .. الى أن قصة هذا الفرعون .. قصة جبّار يستضعف طائفة من الشعب ..

فتحتم ضربه .. وضرب نظامه كله ..

وكانت العصا اشارة الى ذلك كله ..

وكان الأمر .. من القهار الجبار : **« اضرب بعصاك » !..**

اذهبا ... إلى فرعون ... انه طغى ؟!...

صدر الأمر الأعلى :

« اذهب الى فرعون انه طغى » !..

ها هنا .. أصبح موسى .. رسولاً ..

لقد انتقل من نبي .. الى نبي رسول ..

« واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصا .

« وكان رسولا نبيا » ..

قبل هذه اللحظة .. كان نبياً ..

« وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا »

هذه المرحلة .. صار فيها موسى نبياً ..

أما حين قال له « اذهب » فقد صار فيها رسولاً ..

والآن صار موسى « رسولا نبيا » ؟..

لقد بدأت المهمة الكبرى ..

لقد بدأت الشجرة الطيبة .. تؤتي أكُلها !..

وأحس موسى على الفور .. ضخامة المهمة .. وجسامة الأمر القـــادم اليه .. فناداه :

« قال :

« **رب اشرح لي صدري** » .

وسّع لي قلبي .. بحيث لا يخطر ببالي خوفاً من العدو ..

« **ويسّر لي أمري** » .

وسهل لي أمري هذا .. بحيث لا أضطرب في التبليغ .. ولا أستوحش من جاه فرعون وشوكته ..

« **واحلل عُقدةً من لساني** » .

وارفع .. الكنة عارضة من مهابة العدو .. سيما هذا الطاغي المتجبر .. مع أن اللكنة خَلقية لي ..

« **يفقهوا قولي** » .

وغرضي منه ..

« **واجعل لي وزيراً من أهلي** » .

« و » بعدما وفقتني لأداء رسالتك يا ربي ..

« اجعل لي وزيراً » ظهيراً يصدقني في أمري ويعينني عليه .. ولا تجعل ظهيري من الأجانب لقلة شفقتهم وعطفهم عليّ .. بل اجعل ظهيري يا ربي ..

« من أهلي » وأقربهم لي .. وأولى بمعاونتي هو ..

« **هارون أخي** » .

إذ هو أخي الأكبر .. بمنزلة أبي في الشفقة .. ومتى جعلت أخي هارون ظهيري ووزيري ..

« **اشدد به ازري** » .

وقوّ بسببه .. واحكم بإقامته يا معيني ..

« أزري » ظهري ..

« واشركه في أمري » .

« و » لا يتحقق تقويته على حقيقة .. إلا بعد اشتراكه معي في أمر الرسالة.

« أشركه » بلطفك يا ربي ..

« في أمري » ورسالتي .. بأن تكشف أنت بلطفك عليه .. حقيقة الأمر والتوحيد .. كما كشفت لي ليكون هو أيضاً من المكاشفين الموقنين بوحدانيتك ، ومن الممتثلين بأوامرك ، المجتنبين عن نواهيك .. وإنما سألتك يا ربي الإعانة بأخي ..

« كي نسبحك كثيراً » .

ونقدس ذاتك عما لا يليق بشأنك تقديساً كثيراً ..

« ونذكرك كثيراً » .

ونناجي معك بذكر أسمائك الحسنى .. وصفاتك العظمى ذكراً كثيراً .. وكيف لا نسبحك ونذكرك ..

« انك كنت بنا بصيراً » .

« انك » بذاتك وأسمائك وأوصافك قد ..

« كنت » محيطاً ..

« بنا بصيراً » لعموم أحوالنا ..

وعلى الفور .. كانت المنة .. وكانت الاستجابة :

« قال قد أُوتيت سؤلك يا موسى .

« ولقد مننا عليك مرة أخرى » !..

قد آتيناك يا موسى .. كل ما سألت ..

« قال » تعالى .. رفقاً له .. وامتناناً عليه .. لرجوعه نحوه بالكلية ..

« قد أوتيت سُؤلك » ونعطيك عموم مسؤولك .. وقد حصل لك جميع مطالبك .. لتوجهك الينا .. ورجوعك الينا .. يا موسى .. كيف ..

« ولقد » أنعمنا عليك من قبل حين لا ترقب لك ولا شعور بأن ..

« مننا عليك » من وفور رحمتنا وشفقتنا عليك ؟!.

قد أوتيت سُؤلك يا موسى ؟!.

لك يا موسى .. كل ما شئت .. وكل ما سألت !..

سنشرح لك صدرك .. فلا يضيق .. مهما قابلت من الصعاب ..

وسنيسر .. لك .. أمرك .. مهما وضعوا في طريقك من السدود والقيود والمقاومة ..

وسوف نحُل عقدة من لسانك .. ونؤتيك فصاحة وبلاغة تبهر السامعين .

وسوف نجعل .. لك .. وزيراً من أهلك .. هارون أخاك .. وسوف نشد به ظهرك .. ونشركه في أمرك ..

« قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » .

هكذا .. أعطاه أكثر مما سأل ..

شد عضده بأخيه .. هذا آخر مطلب لموسى ..

ثم زاده ما لم يخطر على باله ..

ونجعل لكما سلطاناً .. قوة قاهرة .. تمنعهم أن يصلوا اليكما .. بقتل أو اهلاك ..

ثم زاده البشرى .. بأنهما ومَن وراءهما .. في النهاية .. بل ومن البداية الغالبون ..

وهذه بشرى خطيرة .. كانت الأمور قبل هذا .. قوم موسى أذلاء ..

وفرعون فوقهم غالب قاهر .. والآن ستنعكس الأوضاع .. موسى ومن اتبعه الغالبون .. وفرعون وقومه المغلوبون ..

هناك تحول خطير !..

ثم ماذا ؟!. ثم صدر الأمر الأعلى .. الى الاثنين .. موسى وهارون ..

« اذهب أنت .

« وأخوك .

« بآياتي ولا تَنِيَا في ذكري .

« اذهبا الى فرعون انه طغى .

« فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » .

فماذا كان جوابهما ؟!.

« قالا ربنا اننا نخاف ان يفرط علينا أو يطغى » .

أن يفرط علينا .. أن يبادر كعادته وجبروته الغاشم .. الى الاعتداء علينا فوراً .. ويأمر بقتلنا .. وأمره لا يقاوم ..

أو أن يطغى .. أو يزداد طغياناً على طغيانه .. فيصب إجرامه على بني اسرائيل .. أكثر مما هم فيه من عذاب !..

« قال لا تخافا .

« انني معكما .

« أسمع وأرى » !..

لا تخافا .. بعد الآن .. فلا وزن لإفراطه .. ولا وزن لطغيانه ..

انني معكما ؟!. أسمع وأرى .. لقد تغير كل شيء .. ومن كان الله معه .. فكل شيء معه !..

ثم صدر الأمر الأعلى .. اليهما .. بتحديد المهمة :

« فأتِياهُ فقولا »

« إنا رسولا ربك »

« فأرسل معنا بني اسرائيل »

« ولا تعذبهم »

« قد جئناك بآية من ربك »

« والسلام على من اتبع الهدى »

« إنا قد أُوحيَ الينا أن العذاب على مَن كذّب وتولّى » ..

تحديد دقيق .. على الغاية من الدقة ..

وتخطيط كامل للمهمة .. وكيفية أدائها ..

ماذا يقولان لفرعون ؟!.

الهدف من المقابلة ؟!.

المطلب الرئيسي لهما ؟!.

والمطلب هو « أرسل معنا بني اسرائيل » .. اطلق يا فرعون هذا الشعب ودعه يخرج من بلادك ..

« ولا تعذبهم » ارفع يدك عنهم .. فلا سُخرة بعد اليوم .. ولا اضطهاد .. ولا تعذيب !..

لقد دقت ساعة الخلاص !..

وها هو .. النبي الرسول .. البطل .. يستعد لقيادة المعركة ..

أكبر معركة في التاريخ !.

وها هي اشارة الانطلاق .. تدوي في الآفاق :

« فأتِياه » !..

يا فرعون ... إني رسول ...
من رب العالمين ؟!...

ها هو فرعون ...

يجلس على كرسيه .. كرسي عرشه ..

عن يمينه الأمراء والنبلاء ..

وعن يساره هامان والوزراء ..

وها هو موسى .. وهارون .. يدخلان إلى قاعة العرش ..

ونظر فرعون الى موسى وهارون .. في استعلاء ..

ففاجأه موسى :

« يا فرعون ؟! » ..

فغضب فرعون .. كيف يجرؤ هذا على مخاطبته هكذا ؟!.

فاستمر موسى :

« اني رسول من رب العالمين » !..

فازداد فرعون غضباً على غضب !..

فواصل موسى كلامه :

« حقيقٌ على ان لا اقول على الله إلا الحق .

« قد جئتكم ببيّنةٍ من ربكم » .

قال فرعون في احتقار لموسى شديد :

وماذا تريد ؟!

قال موسى : « فأرسل معي بني اسرائيل ».

فقهقه فرعون عالياً وقال : لو قالها غيرك ؟!.

ثم نظر إلى موسى في استخفاف وقال :

« ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين » ؟!.

الآن تأتينا رسولاً ؟!.

ثم قال فرعون لموسى :

« وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين » ؟!.

فجأة انقلبت من كافر .. إلى رسول ؟!.

هنالك قال له موسى :

« قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين » .

فقال فرعون : وما الذي قلّبك من مجرم قاتل .. إلى نبي رسول ؟.

ثم غمزه غمزة قاتلة :

ولماذا فررت يا موسى من البلاد ؟. خوفاً من القتل الذي كان مقرراً لك .. أليس كذلك ؟.

فقال موسى :

« ففررت منكم لما خفتكم » ..

فقاطعه فرعون : إذاً كنت قاتلا .. فاراً من حكم الإعدام ؟..

قال موسى :

« فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين » .

فقهقه فرعون .. قائلاً : هكذا .. من قاتل مجـــرم .. الى نبي رسول .. هذا شيء جميل ..

فقال موسى :

« وتِلك نعمة تَمُنُّها عليّ » ؟.

قال فرعون : نعم نعمة أمُنُّها عليك .. كان ممكناً جداً .. أن أصدر أمري بذبحك بجرد التقاطك من الماء .. شأنك شأن الآلاف التي ذبحتها ..

ثم ثار فرعون وقال : الأيام تؤكد لي .. أن خـــير وسيلة لمعاملتكم يا بني اسرائيل .. هو الذبح والإبادة .. الآن تأتينا رسولاً .. ولو قد ذبحتك وليداً .. لاسترحت من ثرثرتك من يومها ؟..

فقال موسى : أمِن أجـــل أنكم ربيتموني وليداً .. تستحلون استعباد شعب بأكمله وتسخيره وتعذيبه .. ما علاقة هذا بذاك ؟..

« ان عَبّدتَ بني اسرائيل » ؟..

ثم نظر فرعون الى هارون في استخفاف وقال : وما شأنك الآخـــر .. أرسول أنت كذلك ؟..

فقال موسى وهارون :

« إنا رسولا ربك .

« فأرسل معنا بني اسرائيل .. ولا تعذبهم » .

فضحك فرعون وقال : أنت أيضاً .. يا هارون صرت رسولاً ؟..

هذا شيء يثير الضحك ؟..

ثم قال لهما :

« قال : فمَن ربُّكما يا موسى » ؟.

وكان بين القمتين .. قمة النور .. وقمة الظلمات هذا الحوار الخالد :

فرعون : فمن ربكما يا موسى ؟.

موسى : ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

فرعون : فما بال القرون الأولى ؟.

موسى : علمها عند ربي .. في كتاب .. لا يضل ربي ولا ينسى .

: الذي جعل لكم الأرض مهداً .. وسلك لكم فيها سُبلا .. وانزل من السماء ماءً فاخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتّى .

: كلوا وارعوا أنعامكم .. ان في ذلك لآيات لأُلي النُهى .

: منها خلقناكم .. وفيها نعيدكم .. ومنها نخرجكم تارة اخرى » .

وفي سورة الشعراء :

فرعون : وما ربُّ العالمين ؟.

موسى : رب السماوات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين .

فرعون : [قال لمن حوله] الا تستمعون ؟.

موسى : ربكم ورب آبائكم الأوّلين .

فرعون : ان رسولكم الذي أُرسل اليكم لمجنون .

موسى : رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون .

هذا جانب مما دار بين القمتين ..

ومما يثير التأمل .. سخرية فرعون القاتلة حين تهكم بموسى في ازدراء وقال لمن حوله « الا تستمعون » ؟.

ثم زاد تهكمه واحتقاره لموسى حين أعلن الى الجميع « ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون » ..

رسولكم أنتم .. أما أنا ففوق هذه الهذيانات وهذا الجنون .. والجنون فنون !..

وكان حواراً خالداً .. إلى يوم القيامة ..

حواراً .. بين أقصى الحق .. يمثله موسى .. نبي الله ورسوله ..

وأقصى الباطل .. يمثله فرعون .. دعيّ الربوبية .. ودعيّ الألوهية !..

موسى .. يتكلم باسم الله .. الذي أرسله ..

وفرعون .. يتكلم من الوجه المضاد .. من الباطل ..

ورغم أن موسى حدّد لفرعون الموضوع في أمرين اثنين .. اني رسولٌ من رب العالمين .. فأرسل معي بني اسرائيل ..

ورغم وضوح الموضوع .. فإن فرعون رفض رفضاً باتاً كلا الأمرين ..

فلا هو يعترف برب العالمين .. بل يتهكم من الفكرة « وما رب العالمين » ؟. مَن هو هذا الذي تسمونه رب العالمين ؟..

ولا هو سيطلق بني اسرائيل ..

فإنهم عبيده .. وهو سيدهم .. وله أن يفعل بهم الأفاعيل !..

إلا أن الموجة التي أطلقها موسى .. أحدثت اضطراباً في أعصاب فرعون..

فنظر في الحاضرين .. كما ينظر الأسد الى فريسته حين يعزم على افتراسها ..

فازداد الحاضرون رعباً ..

ثم نادى : **هامان ؟!.**

فانتفض هامان قائماً .. ثم سجد بين يدي فرعون .. وهو يترنم بتمجيده وتقديسه ..

فأصدر فرعون اليه أمراً .. هو أعجب أمر .. يصدر عن حاكم في التاريخ .

وقبل أن يصدر أمره إلى هامان .. نظر الى من حـــوله من عظماء الدولة وقال لهم :

« يا ايها الملأ »

« ما علمت لكم من إله غيري » ! ..

هكذا .. يعاملهم معاملة البغال ؟..

ما علمت لكم ؟!. هو يعلم لهم .. يفكر بدلاً منهم .. أما هم فلا يجوز لهم أن يفكروا أو يعلموا !..

من إله غيري ؟!. لا إله لكم غيري .. أليس كذلك ؟..

فصاحوا جميعاً صيحة الحُمُر : نعم .. نعم .. لا إله لنـــا غيرك .. أنت ربنا .. وأنت إلهنا ؟..

ثم أصدر أمره .. الى الرجل الأول في الدولة .. الرجل الرهيب .. الى هامان .

« فاوقد لي يا هامان على الطين »

« فاجعل لي صرحا »

« لعلّني أطلع الى إله موسى »

« وإني لأظنه من الكاذبين » .

يا هامان .. أسرع فوراً ..

فأمُر .. بصناعة الطوب الأحمر .. وأوقدوا على الطين ناراً ..

فاجعل لي .. خاصاً بي أنا وحدي ..

صرحاً .. بُرجاً شاهقاً .. أعلى بناء في الأرض ..

لعلي أطلع الى إله موسى .. ان وجدته في السماء .. فأنا أصارعه وأقتله !..

هكذا .. بلغ استخفاف فرعون بالعظماء الذين جمعهم ..

ولا أحد منهم يفتح فمه ..

وفي سورة غافر :

« وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلّي أبلغ الاسباب .

« أسباب السماوات فاطلع الى إله موسى وإني لأظنه كاذباً » ا..

احدى اثنتين .. إما أن أجد إله موسى هناك .. في السماء .. وأنا كفيل به .. أقضي عليه ..

وإما أن موسى كاذباً .. فلا أجد شيئاً هناك مما يزعمه .. وهــذا هو الراجح عندي ؟..

ذكروا أن هامان بنى له الصرح .. حتى بلغ نهاية ما قدر عليه من البناء ..

ثم صعد فرعون وصوب سهماً الى السماء ، ورمى به ، فعــاد اليه النصل مخضباً بالدم .

فقال : لقد قتلت إله موسى ؟..

ثم ماذا ؟!.

ثم بعد أن أرهب فرعون .. كبراء دولته .. وعبث بعقولهم ما شاء له العبث ..

وأعلنوا أمامه .. أنه لا إله لهم غيره ..

وسجدوا له جميعاً .. تأكيداً لإخلاصهم وولائهم ..

بعد هذا كله .. نظر الى هذين الرجلين .. اللذين يعلمون تمــام العلم .. أنهما أمام الثعبان .. يلعب بالشعب كما يشاء ..

نظر اليهما وقال مخاطباً موسى :

« لئن اتخذت إلهاً غيري .

« لأجعلنك من المسجونين » ..

اسمع يا هذا الذي اسمه موسى ..

ان قولي .. لا يُرد ..

لئن اتخذت إلهاً غيري ..

لأجعلنك فوراً .. من المسجونين ..

ضمن الألوف التي تمج بها سجوني ..

وأنت تعلم ما هي سجون فرعون ..

لن تخرج منها أبداً .. إلا إلى القبر ..

هي الجحيم إذا تلظى .. هي العذاب والتعذيب ..

وها هو هامان في انتظار إشارة مني ..

فسجد هامان .. ورتل تراتيل التمجيد والتقديس لفرعون .. ثم قال في صوت رهيب : إلهي .. وربي .. وسيدي .. ألقه .. إليّ .. أجعله أنينـــاً يتلوّى ..

فماذا كان جواب موسى ؟!..

أو لو جئتك ... بشيء ... مبين ؟!...

بلغت الوقاحة ...

من اللعين منتهاها .

وبلغ الرعب الذي بثه في نفوس كبرائه أقصاه ..

وبلغ التعالي الذي صبه على موسى منتهاه ..

هنالك كانت لحظة التحدي ..

قال موسى :

« أو لو جئتك بشي مبين » ؟!.

حتى بعد هذا .. تصر يا فرعون على القـــائي في السجون .. وتعذيبي في ظلماتها ؟.

فازداد فرعون به استخفافاً وقال :

« فات به ان كنت من الصادقين » .

وفجأة .. وعلى الفور :

« فالقى عصاه .

« فاذا هي ثعبان مبين » !..

وكانت المفاجأة الكبرى ..

انقلبت العصا .. الى ثعبان رهيب .. وجعل الثعبان يتضخم أكثر فأكثر ..
ويهتز كأنه جان .. ويثور ويفور .. ويصيح في فحيح ليس كمثله فحيح ..

فساد الذعر والهلع في الجميع ..

إلا أنهم فوجئوا بالثعبان يهاجمهم جميعــاً .. ويفتح فمه الرهيب ليبتلعهم ويلتقمهم أجمعين !..

ففروا منه فراراً .. وهو يطاردهم ويصر على التهامهم .. فصاحوا وناحوا..

ثم توجه الثعبان إلى فرعون .. ليبتلعه .. ففر عن عرشه مذعوراً .. وهو يولول ويحاول أن يهرب .. والثعبان يحاصره ويداوره .. حتى أحدث فرعون وخرجت منه الخبائث !..

وبينما الجميع يولولون ويركب بعضهم قفا بعض .. تضخم الثعبان تضخماً فظيعاً .. وفغر فاه الرهيب ليبتلع القصر بمن فيه وما فيه !..

هنالك .. صاحوا بموسى .. أن يكف عنهم هذا الثعبان ..

فأمسك موسى بالثعبان .. فعاد في يده عصا .. كما كان !..

فجعلوا يعودون سراعاً .. إلى مقاعدهم ..

ومن فوقهم فرعون .. يحاول أن يستعيد هدوءه على عرشه ..

إلا أن موسى .. لم يعطهم الفرصة ليلتقطوا أنفاسهم ..

« ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين » !..

أدخل موسى يده في عبّه .. ثم نزعها ..

فإذا هي فوراً .. بيضاء .. تتشعشع بشعاع يطمس شعاع الشمس ..

فإذا الجميع .. لا يستطيعون النظر الى شعاعها . من شدة إشعاعها ..

« للناظرين » يراها جميع من ينظر اليها .. لا تخفى على أحد !..

فماذا كان من موسى ؟.

أدخل يده في عبته .. ثم نزعها .. فعادت يده مثل جسده .. كما كانت من غير سوء !..

فماذا كان من فرعون ؟!. قال :

« **ان هذا لساحر عليم** » ؟..

عادت اليه فرعونيته .. واستعلى .. وعاد الى السخرية ..

ونادى في الحاضرين :

« **.. فماذا تأمرون** » ؟..

فماذا قال السادة الحاضرون ؟..

وقد كانوا منذ لحظة يولولون ؟!.

« **قالوا :**

« **ارجه وأخاه .**

« **وابعث في المدائن حاشرين .**

« **يأتوك بكل سحار عليم** » !..

فماذا كان من فرعون ؟..

التفت وهو يحاول أن يستعلي وقال لموسى :

« **أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى** » ؟..

« فلنأتينك بسحر مثله »

« فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سُوًى » !..

وانتهزها موسى فرصة ..

ليبث الدعوة الى الله .. في أوسع الآفاق .. فقال :

« موعدكم يوم الزينة »

« وأن يُحشر الناس ضُحًى » .

وألق ... ما في يمينك ...
تلقف ما صنعوا ؟!...

كان يوما .. من أيام الله ..

« وذكرهم بأيام الله » ..

في يوم الزينة .. في أعظم عيد مقدس .. قومي .. عند المصريين ..

فرعون .. الرهيب .. على المنصة الملكية المقدسة ..

وقد أخذ زينته كلها .. وعليه تاج المُلك .. والنياشين تحلي صدره الفارغ .

وقد اصطف عن يمينه الأمراء والنبلاء .. في زينتهم ..

وعن يساره الوزراء والمسئولون في زينتهم ..

ومن ورائهم يجلس رجال الدين والكهنوت في زينتهم المقدسة ..

وكبراء الدولة كلها .. وقد وجهت الدعوة الفرعونية إلى جميع من في البلاد من كبراء ووجهاء ..

وقد بدت الساحة الكبرى تموج بملايين من الشعب المحتشد الحريص كل فرد منه على شهود هذا اليوم المشهود ..

أما المصريون فقد ازدحموا من حول الساحة وقوفاً ..

وفي ناحية من الساحة خصصت للعبيد .. ازدحم جميع بني اسرائيل .. ليشهدوا هذا المشهد العظيم ..

أما ساحة العرض الواسعة .. فقد اصطف فيها في القوس المواجه للمنصة الرئيسية حيث يجلس الملك المقدس .. اصطف فيها « ١٢٠٠٠ » من رجال السحر .. الذين اشتهروا في جميع أنحاء مصر بالبراعة في السحر .. فوق ما هم

جميعاً من كبار علماء الدين والكهنوت « **بكل سحّار عليم** » .. واسع العلم في السحر .. واسع العلم في الدين والكهنوت وسائر العلوم .. حيث كان العلم الديني والدنيوي حكراً على تلك الطائفة المقدسة .. وقد احتشدوا في زهو وخيلاء .. انتظاراً للساعة الفاصلة ..

أما في الخارج .. عن يمين الساحة فقد احتشدت القوات المسلحة .. في ملابسها العسكرية وزينتها التي تأخذ بالعيون « **يوم الزينة** » .. استعداداً للاستعراض العسكري الضخم لقوات فرعون الضاربة .. في الشرق والغرب ..

لقد احتشدت الدولة كلها ..

واحتشد الشعب كله .. سادة وعبيداً ..

بأمر فرعون :

« **وقيل للناس هل أنتم مجتمعون** » ؟..

صدرت أوامر فرعون .. بحضور أكبر حشد في هذا اليوم ..

ليكون نصره أكبر نصر في التاريخ .. يتحدث به الناس ..

فلما آذنت الساعة على العاشرة .. ضُحىً .. « **وأن يُحشر الناس ضحى** ».

وهو أنسب الأوقات .. للاستعراضات العسكرية الكبرى في مصر ..

لما كانت الساعة العاشرة ..

دوّى في الأفق .. صوت الأبواق .. يعلن بدء الاستعراض العظيم .. لأكبر قوة ضاربة في العالم ..

وكانت لحظة تاريخية رهيبة ..

كل الناس قد اجتمعت ..

وعلى رأس الناس .. فرعون الرهيب ..

وعلى رأس شعب بني اسرائيل .. شيوخ بني اسرائيل .. وقــد حرص فرعون على حضورهم جميعاً .. ليزيدهم ذُلاً على ذل ..

في هذا المشهد الرهيب .. والحشد العجيب ..

وقف رجل .. وحيداً ؟..

كل هؤلاء .. له ضِدّاً !..

فرعون .. وقواته التي سحقت ومحقت جيوش الأعداء ..

هامان .. وأجهزته .. التي اذاقت سوء العذاب لمن شاء فرعون ..

المصريون .. في استعلائهم .. وزهوهم ..

بنو اسرائيل .. في خوفهم .. أن ينتصر فرعون .. ويعود عليهم قتلا وتعذيبا ..

كل أولئك .. كانوا له ضداً ..

وذلك الرجل .. الواحد الوحيد .. يقف امامهم وحده ..

من هو هذا العظيم .. الذي لا يملك من الأسباب شيئاً ؟..

انه .. موسى !..

هو ذا .. وحيداً .. يقف في الساحة .. وفي يده عصاه !.

ودقت الأبواق .. وبدأ الاستعراض العسكري العظيم .. لأكبر قوة ضاربة في الشرق ..

دخلت قوات الفرسان .. بخيولها الذهبية الرائعة ..

ثم بمركباتها الحربية المدججة بالأسهم المستعدة للانطلاق ..

ثم تتابعت جميع أسلحة الجيش المصري .. جيش فرعون الذي لا يُقهر ..

وكان هذا الاستعراض العسكري .. مظاهرة بارعة من فرعون .. لتأكيد

جبروته وسلطانه .. وإرهاب الشعب كله .. ارهاباً يمحو من رؤس الجميع أي خلخلة في الولاء المقدس لفرعون ..

فلما تم استعراض القوات المسلحة .. وبلغ فرعون من تأكيد القوة أقصاها . تطلعت العيون .. الى الساحة وما فيها ..

ثم دوّت الأبواق .. ايذاناً ببدء استعراض آلاف السحرة ..

وساد الساحة صمت رهيب !..

ثم تقدم كبير السحرة .. في ملابسه الكهنوتية .. فسجد أمام فرعون .. يستأذنه .. في بدء الاستعراض .. فأذن له ..

فتقهقر كبير السحرة .. على رأس الوفد الذي كان من ورائه .. وخرّوا أمام فرعون ساجدين ..

ثم قال كبيرهم :

« أئِنّ لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين » .

فتبسم فرعون .. تبسم الآلهة .. وقال :

« نعم .. وإنكم لمِن المقربين » !..

فسجد كبراء السحرة .. ثم عادوا الى الساحة لمواجهة موسى ..

فبادرهم موسى ناصحاً :

« قال لهم موسى :

« ويلكم، لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب، وقد خاب من افترى ».

فماذا كان من السحرة ؟!

« فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النجوى ».

« قالوا : ان هذان لساحران يريدان ان يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى .

« فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً .

« وقد أفلح اليوم من استعلى » .

ونظر موسى .. وإلى جواره أخوه هارون .. الى الساحة التي تعج بالوف من السحرة العلماء .. وقد اصطفوا صفاً واحداً على امتداد البصر ..

« ١٢,٠٠٠ » ساحر عـــالم .. وقد أمسك كل بحباله وعصيه .. استعداداً لساعة العمل !..

« قالوا :

« يا موسى .

« اما أن تلقيَ .

« وإما أن نكون اول مَن ألقـى » ؟.

انهم في منتهى الثقة من أنفسهم .. انهم يتعززون بعلمهم ومقدرتهم ..

فماذا قال موسى ؟.

« قال :

« بل ألقوا .

وفجأة أمر كبير السحرة .. جميع السحرة أن يُلقوا .. فألقوا ..

« وقالوا :

« بعزّة فرعون إنا لنحن الغالبون » .

ثم ألقى كل منهم حباله وعصيه .. فتحولت كلهـــا الى ثعابين تتحرك وتسعى وتضطرب ..

وامتلأت الساحة كلها منها ..

وضج فرعون بالتصفيق الحاد .. ودوّت الأكف كلهـا تصفيقاً لهذا المنظر العجيب .. وهذه البراعة من السحرة أجمعين ..

« فاذا حبالهم وعصيهم يُخيّل اليه من سحرهم أنها تسعى » .

فإذا كان هذا حال موسى .. فكيف كان شعور جميع المحتشدين ؟!.

« فلما ألقوا .

« سحروا أعين الناس .

« واسترهبوهم .

« وجاءوا بسحر عظيم » !..

أي سحر أعظم من هذا ؟!. آلاف من الحبال والعصي .. تحولت فجأة الى ثعابين تتحرك وتسعى ؟!.

واسترهبوهم ؟ ! .

وأشاعوا الرهبة في قلوب الجميع ..

كل الناس تراها ثعابين حقيقية **« سحروا أعين الناس » !..**

الدقائق تمر . والجميع يصفقون .. وعلى رأسهم فرعون ..

وبنو اسرائيل .. يصفقون خوفاً .. من بطش فرعون وجنوده !..

وموسى .. ذلك الوحيد .. لا يدري ماذا يصنع .. ولا ماذا يفعل ؟!

« فأوجس في نفسه خيفة موسى » !..

هنالك .. جاءه الغوث :

« قلنا :

« لا تخف .

« إنك أنت الأعلي » .

كيف يكون هو الأعلى .. وهؤلاء يسيطرون تماماً على الموقف ؟!.

« وأوحينا الى موسى أن الق عصاك .

« فاذا هي تلقف ما يافكون » !..

« والق ما في يمينك .

« تلقف ما صنعوا .

« انما صنعوا كيد ساحر ولا يُفلح الساحر حيث أتى » !..

وعلى الفور .. نفـّذ الـكليم الأمر الأعلى .. الصادر اليه ..

« فألقى موسى عصاه .

« فاذا هي تلقف ما يافِكون » !..

منظر من المناظر الإلهية الخالدة ..

في اللحظة التي بلغ فيها فرعون قمة النصر .. وقمة الاستعلاء ..

في اللحظة التي .. تأكد فيها الجميع أن موسى .. كان كاذباً ..

في اللحظة التي يأس واستيأس فيهـا بنو اسرائيل .. واستعدوا للعذاب والتعذيب والتنكيل ..

« فألقى موسى عصاه » !..

فوراً .. ألقى عصاه ..

وفوراً .. **« فاذا هي تلقف ما يافكون » ..**

تبتلع .. جميع ما في الساحة .. جميع الآلاف المؤلفة من الثعابين والحيات .

فجأة .. انقلبت العصا .. الى ثعبان ..

وابتلع الثعبان .. جميع ما في الساحة من ثعابين وحيات ..

ثم بدأ الثعبان .. يفور ويثور .. ويتحرك نحـــو الملايين المحتشدة ليبتلعها هي الأخرى ؟ ! .

وانقلب المنتصرون .. فرعون ومَن وراءه .. الى مغلوبين .. يموتون غيظاً ومرارة وحسرة ! ..

« فغُلِبوا هنالك .

« وانقلبوا صاغرين » ! ..

انقلبوا ؟ ! .

تعبير محكم عجيب معجز ..

انقلبوا من أقصى التعزز والعلو .. الى أقصى الذلة والخسّة « صاغرين » .

وهذا هو الجبروت الإلهي .. الذي يقلب الأعزة الى أذلة في لحظة ! ..

« فوقع الحق .

« وبطل ما كانوا يعملون » .

كل التدبيرات .. كل التنظيمات .. والمؤامرات .. والاحتشادات .. وكل علوم السحرة .. وكل إجرام هامان ومخابراته .. وكل مقدرات الدولة .. التي وضعت في خدمة تلك اللحظة .. وكل ما كان يحـــلم به فرعون من صيت ودويّ في العالم .. وما كان يحلم به السحرة من مراكز مرموقة .. ومغانم منتظرة ...

بَطـُـل ذلك كله في لحظة ! ..

« فبُهت الذي كفر » ! ..

وعمّ الوجوم .. والخزى .. والذلة وجوه فرعون ومَن حشدهم ..

وأما السحرة ؟!.

« فألقِي السحرة سُجّداً .

« قالوا : آمنا برب هارون وموسى » !..

لماذا خرُّوا سُجّداً ؟..

لأنهم علماء .. وأعلم الناس بفنون السحر ..

وما حدث ليس من السحر ..

وإنما هو قوة جبارة هدارة .. ابتلعتهم وما صنعوا في لحظة ..

فخرُّوا لفورهم .. بمجرد أن فوجئوا .. خرُّوا ..

« فأُلقِي السحرة ساجدين .

« قالوا : آمنا برب العالمين .

« رب موسى وهارون » ..

فأُلقِيَ ؟..

صُعِقوا لفورهم .. فأُلقوا .. لفورهم ..

ساجدين ..

« ١٢٠٠٠ » عالم كبير .. خلاصة علماء البلاد كلها ..

سُجّداً ؟ ..

لمَن ؟ . لرب العالمين ...

« آمنا برب العالمين » ؟!.

لأصلبنكم ... أجمعين ؟!...

وقف فرعون ..

فوقف الجميع ..

ثم نادى في الجميع ..

« أنا ربكم الأعلى » !..

فبدت الساحة .. بالملايين المحشورة فيها .. صمتا رهيبا !..

ثم قال :

« يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري » !..

فازدادت الساحة صمتا .. ورغبا !..

ثم نادى : يا هامان ..

فسجد هامان بين يديه .. وألقى الذلة تحت قدميه ..

فنادى فرعون : إيتوني بهم أجمعين ..

وعلى الفور .. اشار هامان الى رجال الشرطة العسكرية ..

فانطلقوا الى الساحة .. واحاطوا بالسحرة أجمعين .. وساقوهم الى فرعون .. وهم يلهبون ظهورهم ووجوههم بالسياط ..

فلما مثلوا جميعا بين يديه .. صاح فيهم :

« آمنتم له قبل أن آذن لكم » ؟..

فنظر جميع السحرة اليه .. نظرة زادته غيظاً ..

فهددهم جميعاً وقال :

« إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون » .

فلم يتكلم أحد من آلاف السحرة ..

وكيف يتكلمون .. وزبانية التعذيب من حولهم ؟!.

ثم احترق فرعون غضباً .. فصاح فيهم :

« انّ هذا لمكرٌ مكرتموه في المدينة .

« لتخرجوا منها أهلها .

« فسوف تعلمون » !..

هذه مؤامرة لقلب نظام الحكم .. اتفقتم عليها في العاصمة .. لتستولوا على السُّلطة .. وتخرجوا من البلاد أهلها !..

فازدادت الساحة صمتاً على صمت ..

وفرعون يزأر ويزأر !..

ثم نطق فرعون .. ونطقه تتحرك الأجهزة الجهنمية كلها لتنفيذه :

« فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف .

« ولأصلبنكم في جذوع النخل .

« ولتعلمن أيّنا أشد عذاباً وأبقى » !..

لقد قتل فرعون .. جميع علماء البلاد .. بكلمة !..

« ١٢٠٠٠ » عالم .. عليم .. سوف تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف .. أي اليد اليمنى تُقطع .. والرجل اليسرى .. أو اليد اليسرى والرجل اليمنى .

هذا أسلوب التعذيب ..

ثم يصلبون جميعاً .. كل واحد منهم بعد تقطيع يده ورجله من خلاف .. يُصلب على جذع نخلة !..

أبشع صورة من صور الإعدام !..

انه اتهمهم أولاً .. بالخيانة العظمى .. « **مكرٌ مكرتموه بالمدينة** » مؤامرة لقلب نظام الحكم !..

ثم حكم عليهم فوراً .. بالتقطيع .. ثم القتل صلباً !..

« ١٢٠٠٠ » قتلهم بكلمة ؟!.

وإذا تكلم فرعون .. فقوله .. كُن فيكون !..

جميعاً يُصلّبون .. بلا استثناء .. ألم يخروا جميعاً ساجدين .. لرب موسى وهارون ؟!.

« **ثم لأصلبنكم أجمعين** » !..

ثم ؟!. بعد أن تذوقوا أجمعين عذاب تقطيع الأيدي والأرجل .. أذيقكم عذاب الصلب أجمعين !..

« **ولتعلمن أيُّنا أشد عذاباً وأبقى** » ؟!.

أنا .. أم رب موسى وهارون .. الذي آمنتم له .. أشد عذاباً .. وأبقى؟.

ان المجرم الأكبر .. يواصل ادعاء الربوبية .. والألوهية .. ويعقد مقارنة بينه وبين رب العالمين !..

والملايين المحتشدة .. صامتة لا أحد يجرؤ أو يفكر في مجرد الاشمئزاز !..

هنالك .. سُمع هتاف وهدير .. كان أشبه بهدير الامواج ..

هنالك هتف السحرة .. العلماء :

« لن نُؤْثِرَك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا .

« فاقض ما انت قاض »

« انما تقضي هذه الحياة الدنيا »

« إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر »

« والله خيرٌ وأبقى »

« إنه مَن يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى »

« ومَن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العُلى »

« جنات عدن تجري من تحتها الانهار خالدين فيهـــا وذلك جزاء من تزكّى » !..

السحرة .. أئمة السحر منذ لحظات ..

ها هم أولاء .. تحولوا الى عارفين .. من أعلى درجات العارفين ..

وها هم أولاء .. يرون فرعون .. لا شيء يُذكر .. ولا وزن لأحكامه التي أصـــدرها بإعدامهم .. **« فاقض ما أنت قاض »** .. منتهى الاستخفاف بفرعون وأحكامه !..

ما أنت ؟!. تحقير وازدراء !..

انما تقضي هذه الحياة الدنيا ؟!.

انما تحكم ما هنا .. في هذه الحياة الحقيرة .. ليس إلا !..

ثم يضربونه ضربة قاتلة **« إنه من يأت ربه مجرماً »** .. أي أنك مجرم .. شديد الإجرام .. ولسوف تُعذب أشد العذاب !..

ثم يردون على سؤاله **« أيُّنا أشد عذاباً وأبقى »** ؟!.

ويقولون له **« مَن يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى »**. فعذاب الله إذاً يا فرعون أشد من عذابك وأبقى ولا نهاية له ..

ثم يقولون « والله خيرٌ وأبقي » .. الله خير منك يا فرعون .. وأبقى .. فهو حي دائم لا يموت .. أما أنت فسوف تموت .. وتلقى جزاء إجرامك !..

هنالك صب فرعون عليهم نار غضبه وصاح : خذوهم .. قطعوا أيديهم وأرجلهم من خلاف .. ثم صلبوهم اجمعين .. على جذوع النخل ..

ووقف هامان .. كأن وجهه القبيح .. رأس شيطان .. وأصدر امره الفظيع الى الشرطة العسكرية ..

فسلسلوهم اجمعين .. بسلاسل من حديد ..

واستاقوهم .. يلهبون ظهورهم ووجوههم وجنوبهم بالسياط ..

والعلماء .. العظماء .. العارفون .. المؤمنون .. الابطال .. فرحون كأنهم الى عُرس يذهبون ..

وبينما كانت السياط تشوي منهم الوجوه .. كانوا يهتفون :

« إنا الى ربنا منقلبون » .

« وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا » ..

ثم رفعوا وجوههم المضيئة الى السماء وهتفوا :

« ربنا أفرغ علينا صبراً .

« وتوفنا مسلمين » .

« إنا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا أول المؤمنين » .

قتل ... ١٢٠٠٠ عالم ... صلبا؟!...

يفهم كثير ... من الناس ...

أن السحرة .. هم مجرد سحرة ..

وهذا فهم خاطيء .. يجرد هؤلاء الشهداء العظماء من أخطر صفاتهم .. وهي صفة العلم ..

ولو قد تعمقنا كلمة « عليم » في قوله تعالى « **يأتوك بكل سحار عليم** » ..

لأدركنا على الفور .. أنهم كانوا طبقة أكابر العلماء في أنحاء البلاد ..

ولأدركنا كذلك : لماذا لجأ فرعون الى قتلهم جميعاً ؟!.

فالطاغية .. أخطر ما يخافه .. أن تكون المعارضة لحكمه في الطبقة المثقفة .

وهؤلاء هم قمة الطبقة المثقفة في البلاد ..

فإذا انقلبوا الى الإيمان بموسى وهارون .. ورب موسى وهارون ..

كان معنى هذا اتباع كثير من الشعب لهم .. بدافع ما لهم في نفوس الناس من تعظيم وتوقير ..

إذاً لا بد من استئصال الداء .. بقتل هؤلاء العلماء جميعاً ..

فيثير ذلك الرعب في نفوس الغوغاء .. ويرجعوا عن محاولة تقليدهم في إيمانهم !..

فهي خطة جهنمية .. وليست مجرد بطش من فرعون .

فلو قد تركهم .. لآمن معهم كثير من المصريين ..

ومعنى هذا .. اهتزاز عرش فرعون .. وأيلولته الى السقوط ..

فإذا انضم هذا التيار الجديد .. الى موسى وبني اسرائيل ..

فمعنى هذا اشتداد المعارضة .. وتنبيه البهائم الغافلة .. ثم ثورة الشعب واقتلاع فرعون !..

إذاً .. لا بد من إبادتهم ..

ليضرب اتجاهات كثيرة .. بحجر واحد ..

يضرب الأغلبية التي من المصريين .. بإرهابهم بقتل أكبر طائفة من المثقفين .

ويضرب بني اسرائيل .. بأن يفهموا بأنهم ليسوا أعــــز عليه .. من قومه الذين صلبهم أجمعين ..

فلو فكروا في الانتقاض عليه .. فهذا مصيرهم أجمعين ..

« أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك » ؟!.

فماذا قال اللعين ؟!.

« قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم .

« وإنا فوقهم قاهرون » !.

هذه هي الخطة الجهنمية لهذا اللعين !..

القتل ... القتل ..

قتل العلماء **« لأصلبنكم أجمعين »** !.

وها هو يأمر .. بتقتيل قوة المقاومة .. في بني اسرائيل .. تقتيل الأبناء !..

انه جنون الحكم ..

وجنون الاستكبار بغير الحق ..

وجنون العظمة .. وهو شر أنواع الجنون ..

وهذا النوع من الجنون .. الذي يمنع الإنسان من كل خير ..

سجله عليه .. موسى عليه السلام :

« وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً » !.

أي .. ملعوناً .. ممنوعاً من الخير ..

أي .. مصاباً بجنون العظمة !..

ذروني ... أقتل ... موسى ؟!...

التقطت بطولة موسى ...

قلوب الشباب ..

والبطولة هي المغناطيس .. الذي يلتقط أفئدة الشباب ..

وكان النصر الساحق المـــاحق .. الذي حققه موسى .. في يوم الزينة .. أمام الملايين ..

حين التقمت عصاه .. جميع ما في الساحة ..

هو اللحظة التي تقررت فيها .. بطولة موسى أمام الجميع .

الأعداء بهرهم .. حين قهرهم وعلى رأسهم فرعون ..

والأنصار ازدادوا تعلقاً به .. لما شاهدوا على يديه ..

وصار موسى .. بطلاً أسطورياً عند الجميع ..

وحديثاً يتحدث عنه الجميع ..

ودوّت شهرته في أنحاء العالم ..

وها هنا اشتد شعور فرعون بالخوف منه .. على عرشه وكيانه كله ..

ان اعجاب الجماهير بموسى .. يزداد ويزداد ..

والناس حين يجدون مَن يتصدى للطاغية .. يعجبون به .. ولكن دون إظهار هذا الإعجاب .. خوفاً من بطش الطاغية ..

فالمسألة في منطق فرعون .. ليست مسألة حق وباطل ..

وإنما هي مسألة .. عرش أو لا عرش ؟!.

هل يبقى هذا العرش الذي يجلس عليه .. أم يزول بتهديد موسى ؟!

هذا هو محور الصراع .. في رأس فرعون !..

بينما موسى .. لم يطلب عرشاً .. ولم يفكر في تهديد عرش فرعون ..

وإنما هو يطلب من فرعون .. أن يسمح له .. ولقومه بني اسرائيل .. بالخروج من مصر .. فيستريح منهم !..

ثم ازداد إحساساً بالخطر .. حين رأى بني اسرائيل .. يقيمون معابد في المناطق التي يسكنون فيها .. ويعبدون فيها ربهم !..

إذاً لقد بدء التنظيم في صفوفهم .. تنظيم المقاومة السرية .. صحيح أنهم يقيمون فيها الصلوات .. ولكن هذا يوحد صفوفهم ويجمع شتاتهم .. بعد أن كانوا عبيداً لا وزن لهم ..

ويزيدهم قوة أن هذا الرجل الخطير .. الذي اسمه موسى .. على رأسهم !.

إذاً لا بد من تخطيط مضاد ..

وفكّر الشيطان الأكبر .. وكان تخطيطه امتداداً لما فعله بالسحرة ..

إبادة للشباب الذين آمنوا بموسى ..

إبادة للزعامة .. التي يتجمعون حولها .. بقتل موسى !..

وبذلك يفرغ من المشكلة بجميع أطرافها !.

وكان لا بد من شن حرب الدعاية .. تمهيداً لتلك الأحداث ..

فأمر زبانيته .. بحشد الشعب كله .. في مؤتمر شعبي عام .. لتجديد الولاء للملك المقدس ..

« فحشر فنادى .

« فقال أنا ربكم الأعلى » !..

فحشر ؟!. فجمع الشعب في مؤتمر عام ..

فنادى ؟!. فأعلن فيهم .. بلغة العصر الحديث .. وأعلنت أبواق الدعاية من بعده ..

فقال : للحشد المجتمع .. للملايين المرصوصة ..

أنا ربكم الأعلى ؟!. أنا سيدكم الأعلى .. وأنتم جميعاً عبيدي ..

وهم يسمعون .. ولا يتكلمون !..

ثم جعل يخطب خطاباً مستفيضاً .. ينبه فيه الى خطورة هـذا الرجل المسمى موسى .. وإلى افتضاح أمره حين تآمر مع آلاف السحرة لقلب نظام الحكم في البلاد .. الى آخر هذه الافتراءات التي يتقن الدكتاتوريون اتهـام أعدائهم بها !..

« ونادى فرعون في قومه قال :

« ياقوم » ...

يا شعبي !..

« اليس لي مُلك مصر .

« وهذه الأنهار تجري من تحتي .

« أفلا تبصرون » ؟!.

شعبي .. أليس لي مُلك مصر .. حق ثابت لي .. ورثته عن أجدادي ..

فكيف ينازعني فيه هذا الرجل الحقير الخائن .. الذي يزعم أنه رسول ؟!.

أفلا تبصرون ؟!. هل هناك من أحد منكم يشك أدنى شك في ذلك ؟!.

فتعالت الهتافات .. الموت للخونة .. مصر للمصريين .: لا مكان للخونة في صفوفنا بعد اليوم !..

« أَم أنا خيرٌ مِن هذا الذي هو مهينٌ ولا يكاد يبينُ » .

سؤال خبيث يطرحه على الشعب .. وهو يعلم مقدماً .. أن أحداً لن يجرؤ على الإجابة بغير ما يشتهي !..

أنا .. أحسن .. أم هذا الذي هو مهين .. حقير .. لا حق له حق أن يتكلم .. لأنه لا يحسن النطق إذا تحدث !..

انه رجل من العبيد .. الأذلاء الفقراء ..

ثم لوح فرعون بيده .. فبدت أساور المُلك الذهبية التي يرصعهـــا حول يديه .. ثم قال :

« فلولا أُلقي عليه أسوِرَة من ذهب » ..

هل يحمل كما أحمل شارات المُلك .. وأساور الملوك ؟!.

ثم ان كان كما ذهب به الجنون .. رسولاً من ربه .. فأين دليله على ذلك .. لولا أرسل معه ربه ملائكة من عنده .. يقولون لنا هذا رسول ؟!.

« أو جاء معه الملائكة مُقترنين » ؟!.

وهكذا لعب بعقولهم .. واستخف بها ..

فجدّدوا الولاء .. وأكدوا الطاعة .. وحقق فرعون منهم غرضه الخبيث وهو تمهيد الأذهان لقتل غريمه .. موسى ..

« فاستخف قومه » استخف بعقولهم .. التي ألغاها بنظامه الاستبدادي الذي لا يسمح لأحد بالتفكير ..

« فأطاعوه » فوراً .. أطاعوه جميعـــاً .. في كل ما يقوله لهم .. وكل ما يريده منهم ..

فأطاعوه ؟!. طاعة عمياء .. لا معارضة .. ولا تفكير في معارضة ..

« انهم كانوا قوماً فاسقين » كانوا شعباً .. خرج عن كل الحدود .. وتجاوزا المعقول الى الاستسلام للخنوع !..

فلما مهد المذكور أذهان الشعب بدأ سياسته الإجرامية ..

فعقد مجلس إجرامه لبحث خطة إبادة أعداء الشعب ..

« وقال الملأ من قوم فرعون » أصحاب السلطة من حوله ..

« أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض » في المملكة .. ويرفضـــوا السخرة .. ويرفعوا رءوسهم .. ويعبدوا رب موسى وهارون ..

« ويذرك وآلهتك » ويترك ديانتنا المقدسة .. ويرفض عبادتك .. وعبادة آلهتك المقدسة .. يا ابن الآلهة ؟!.

فأعلن اليهم خطته الجهنمية :

« قال : سنقتّل أبناءهم » سنقتّل ؟!. بسبب وبدون سبب .. سنلفق لهم الاتهامات لنقتلهم .. ونذبّح شبابهم ..

« ونستحيى نساءهم » فلا وزن للنساء .. ثم نستمتع بهن ..

« وإنا فوقهم قاهرون » وماذا يستطيع أن يفعل هذا الموسى .. وقومه من العبيد .. الذين يئنون تحت السخرة ؟..

وفي سورة غافر :

« قالوا :

« اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم » ..

اقتلوا أبناء .. اقتلوا الشباب .. اقضوا على قوة المقاومة فيهم !..

ان فرعون في رعب شديد .. من هؤلاء الشباب .. بقيادة موسى ..

وفي نفس الوقت .. هؤلاء الشباب في رعب من تعذيب فرعون ..

« فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه »

« على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم .
« وإن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين » !..
ذرية ؟!. شباب .. دم جديد .. فيه جرأة الشباب ..
على خوف ؟!. خوف شديد .. دائم ..
أن يفتنهم ؟!. أن يعذبهم عذابه الرهيب ..
وكان لا بد من ترتيب المقاومة السرية الصامتة .. من موسى ..
« وأوحينا الى موسى وأخيه .
« أن تبوّءا لقومكما بمصر بيوتاً .
« واجعلوا بيوتكم قِبلة .
« وأقيموا الصلاة .
« وبشر المؤمنين » ..
هذه هي خطة المقاومة السرية .. ضد فرعون وتنظيماته ..
بيوتاً ؟!. اتخذوا بيوتاً ..
واجعلوا بيوتكم قبلة ؟.. معبداً .. تتعبدون فيه لربكم ..
« وأقيموا الصلاة » واجتمعوا فيها للصلاة ..
تنظيم عجيب .. وترابط أعجب !..
وأحس فرعون بالخطر ..
ان أعداءه يتجمعون .. وهذه المرة على رأسهم قائد من أخطر القادة السياسيين.
ولا مناص من إزالة هذه الزعامة .. التي يتجمع حولها هؤلاء ..
« وقال فرعون :
« ذروني أقتل موسى .
« وليدع ربه .
« اني أخاف أن يبدل دينكم .
« أو أن يُظهر في الأرض الفساد » !..

أتقتلون رجلا ... أن يقول ...
ربي الله ؟!...

بلغت الأمور ...

مرحلة اللاعودة .. بين فرعون وموسى ..

ففرعون قد استيأس من امكان القضاء على موسى ..

وموسى تأكد عنده أن فرعون لن يؤمن بشيء مما يدعوه اليه .. وأنه في نظره مجرد ساحر !..

أما فرعون .. فلا رأي عنده إلا قتل موسى .. « **ذروني أقتل موسى** » .

وأما موسى .. « **وقال موسى : ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك .**

« **ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم .**

« **قال : قد أُجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون** ».

ليس هناك أدنى أمل في إيمان فرعون .. أو شعبه ..

لماذا ؟!. بسبب ما هم فيه من نعيم .. هذا هو حجابهم .. فلا بد من كشط تلك الحجب « **اطمس على أموالهم** » ..

وحتى إذا كشِطت هذه الحجب .. فلن يؤمنوا .. ولن يستسلموا لرجل فقير .. من العبيد .. من بني إسرائيل !..

وان يُطلقوا هؤلاء العبيد !..

« وقالوا : مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين » ..

تركيب إجرامي .. وتفكير فرعوني !..

« وجحدوا بها .

« واستيقنتها أنفسهم .

« ظلماً وعلوّاً .

« فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » ؟!.

هم على يقين أن موسى على حق ..

ولكن تركيب الظلم .. وتركيب العُلوّ .. يمنعهم أن يستجيبوا للعبيد !..

بلغت الأمور .. الى مرحلة اللاعودة .. بين فرعون وموسى ..

أما فرعون فلجأ الى السُّلطة المطلقة التي في يديه .. يستعملها في القضاء على أعدائه :

« ذروني أقتل موسى » !..

« سنقتل أبناءهم » !..

وأما موسى .. فلجأ الى ربه ..

« وقال موسى : إني عُذت بربي وربكم من كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب » !..

ولما ضج اليه بنو إسرائيل .. من عذاب فرعون وإجرامه :

« قال موسى لقومه :

« استعينوا بالله واصبروا .

« ان الأرض لله يُورثها من يشاء من عباده .

« والعاقبة للمتقين » !..

فازداد قوم موسى ألماً على آلامهم التي لا تنتهي . إنهم قصة عذاب طويل واضطهاد مرير لا نهاية له ..

قبل موسى .. عذاب ..

وبعد إرسال موسى .. عذاب .. أما لهذا الليل من آخر ؟!.

« قالوا : أُوذينا من قبل ان تأتينا .

« ومن بعد ما جئتنا » .

ما رأينا راحة قبلك .. ولا بعدك يا موسى ..

مرارة .. وألم .. وليل اسود بهيم !..

« قال :

« عسى ربكم ان يهلك عدوكم .

« ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون » !..

منطق الأنبياء .. منطق من أفق أعلى ..

بنو إسرائيل يرونها قصة يائسة .. وليلاً طويلاً .. لا أمل فيه ..

وهو يرى النواميس الكلية .. التي تحتم تدمير الظلم .. ونصرة الحق في النهاية **« والعاقبة للمتقين » !..**

ماذا كان من فرعون ؟.

دعا مجلس البلاط الملكي الى اجتماع سري عاجل ..

فجاءه أمراء الأسرة المالكة الفرعونية المقدسة على عجَل ..

وتوافدوا اليه في مكان سري .. من قصوره المنتشرة في كل مكان بالعاصمة .. وأنحاء البلاد ..

ولما اكتمل الحاضرون .. نهض فرعون .. وقد بدا وجهه كأنه رءوس الشياطين ثم قال في صوت الآمر الذي لا يناقش :

« ان أعظم أسرة مالكة في الارض .. ان عرش الفراعنة المقدس العتيد .. يهتز ويميد .. فماذا أنتم فاعلون » .

فارتفعت الأصوات .. وقد أحسوا جميعاً بالخطر يتهددهم :

« اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه .

« واستحيوا نساءهم » ..

فصاح فيهم فرعون :

وماذا يجدي قتل الصعاليك ؟.

فارتفعت الأصوات : بالقضاء على الشباب .. تنقرض منهم قوة المقاومة ..

فصاح فرعون : يا لكم من أغبياء .. وتتركوا هذا الرجل .. هذا الساحر الحقير .. الذي يزعم أن له رباً يوحي اليه .. قائماً ؟.

فتنادوا : وما الرأي إذن ؟..

« وقال فرعون : ذروني أقتل موسى .

« وليدعُ ربه » .

ثم قهقه ساخراً .. عندما أقتله .. فليريني ماذا يفعل له ربه هذا ؟..

فرُعبوا هنالك .. كأنهم يخشون أن يفجّر قتل موسى .. الثورة في بني إسرائيل ..

فصاح فيهم فرعون :

« إني أخاف ان يُبدّل دينكم » .

ماذا تنتظرون أيها الأغبياء .. أتنتظرون حتى تنتشر دعوته .. ويبدل دينكم ؟..

« أو ان يُظهر في الارض الفساد » ؟..

أو يفصح عن نواياه الإجرامية .. ويقوم بانقلاب يستعمل فيه قومه .. وما التف حوله من شبابهم !..

وحينئذ ستذبحون جميعاً .. وتفعل بكم الأفاعيل .. وينتقم منكم أجمعين !..

ثم صاح فيهم : أريد قراراً إجماعياً منكم .. بقتل موسى ..

فسكتوا جميعاً .. فصاح فرعون : إذن أنتم موافقون ؟.

فانتفض من بينهم أمير منهم .. كبير السن .. عليه وقار الحكماء ..

كان هذا الرجل .. ابن عم فرعون .. وكان فرعون يحترمه لرجاحة عقله .. ووفور حكمته ..

وكان ذلك الرجل .. يتابع الأمور .. منذ هبط موسى البلاد .. وما كان بينه وبين فرعون من نضال ..

فآنس الرجل من أول لحظة .. أن موسى .. نبيّ الله ورسوله حقاً ..

وأن ما جاء به من آيات .. هي آيات الله .. وليست سحراً كما يدعي فرعون ..

إلا أنه كان يكتم إيمانه .. حتى لا ينكل به فرعون .. وينتظر اللحظة التي يظهر فيها إيمانه .. حيث يكون من الحكمة والسداد الإظهار ..

انتفض الأمير الكريم .. وهو ثائر غاضب أشد الغضب وصاح فيهم :

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه » :

رجلٌ .. مؤمنٌ ؟..

أكرم صفتين لشخصية ما ..

رجل ؟!. انسان بطل .. اكتملت رجولته .. واستوت بطولته ..

مؤمن ؟!. أعلى صفة من الصفات العليا ..

وإذا وصف الله سبحانه بشراً يتملكم الصفتين .. فقد أثنى عليه .. بجماع الصفات الكريمة ..

وآية رجولته أو بطولته .. أنه هو الصوت الوحيد .. الذي ارتفع في وجه فرعون .. الجبار العنيد ..

وأنه « **من آل فرعون** » من أمراء الأسرة المالكة .. بـــل من أكابر الأمراء .. بل كان المفروض أن يدافع عن الأسرة .. بل وقف يدافع عن موسى .. عدو الأسرة الأول !..

وآية اكتمال عقله أنه « **يكتم ايمانه** » .. يبالغ في كتمان هذا الإيمان .. عن فرعون وزبانيته .. وعن أهله وعشيرته .. فليس هو بالرجل الأهوج .. الذي يندفع في حماس ويعلن إيمانه .. في هذا الجو الأسود الكئيب .. ولكن لكل أمر ترتيب !..

وقف البطل .. وأشق أنواع البطولة التصدي للطاغية .. وهو في عنفوان طغيانه وسلطانه :

« سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب »

« ورجل قام الى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » !.. — أو كما قال —

ان هذا الموقف الذي وقفه .. ذلك البطل .. من أعلى مراتب البطولة !..

وقف ثائراً .. وقذفها في وجه فرعون .. كأنهـــا شواظ نار .. يشوي وجهه الجهنمي :

« أتقتلون رجلا ٠

« أن يقول ربي الله » ؟!.

أتُجمعون أيها المجرمون .. على قتل رجل .. لا جريمة عليه .. إلا أن قال .. ربي الله ؟!.

في أي عقل هذا يكون ؟..

فثار فرعون : ظهرت الخيانة في صفوفنا .. يا للعار .. وأي جريمة هي أكبر من تبديل ديننا أيها الخائن ؟..

فلم يلتفت البطل الى هذيان فرعون وقال :

« وقد جاءكم بالبينات من ربكم » ..

فصاح فرعون مهدداً : أيها المارق المفارق لدين آبائه .. أي بينات هذه التي تعني .. لعلك خُدعت بسحر هذا الكاذب الحقير ؟..

فواصل البطل حديثه في هدوء الموقنين :

« وإن يَكُ كاذباً فعليه كذبه ٠

« وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يَعِدكم » ..

فصاح فرعون : أنا لست مجنوناً .. لأصدق هذا الساحر المجنون .. وأسلم المملكة .. الى مشعوذ !..

فقال البطل :

« **ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب** » ..

وكانت قنبلة فجرها البطل ..

فصاح فرعون وقد نفذ صبره :

تعني أني كذاب ؟.. أحكم بلادي .. بالكذب ؟.. فلسوف تعلم مصيرك الأسود .. ان سياسة الشعوب يا هذا .. لا بد فيها من أكاذيب وألاعيب .. وهذا ما لا تستطيع له فهماً ..

أنسلم مُلكنا وعِزّنا وكبريائنا .. الى عبيدنا ؟. ان هذا لن يكون !..

فقال البطل .. وكأنه يتكلم من الأفق الأعلى :

« **يا قوم .**

« **لكم المُلك اليوم .**

« **ظاهرين في الأرض .**

« **فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا** » ؟..

يا إخوتي .. وبني عمومتي .. يا أعضاء الأسرة المالكة .. صحيح لكم الملك اليوم .. في أيديكم جميع السلطات .. تفعلون ما تشاءون .. لأنكم ظاهرين في الأرض .. بيدكم السُّلطة التي تمكنكم من ذلك .. ولكن نسيتم شيئاً هاماً .. لا بد من عقاب الله لنا على إجرامنا .. ورفضنا الحق المنزل من عنده .. وإذا أخذنا لم يفلتنا .. فسياستكم هذه ستجر علينا الوبال .. « **فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا** » .. من يستطيع يومئذ منعنا من عقاب الله ان نزل بنا ؟..

وكان فرعون آنس من المجتمعين ميلاً الى كلام الرجل فصاح :

« **قال فرعون** :

« ما أُريكم إلا ما أرى » .

لا أسمح لكم أن تقرروا قراراً إلا ما قررت أنا .. وما كان لفرعون أن يكون لأحد معه رأي !..

« وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » .

وما أوجهكم إلى الى الطريق الصحيح .. للمحافظة على المُلك والمملكة .. ولا رأي لأحد إذا رأيت أنا أمراً !..

هنالك انحاز المجتمعون جميعاً الى رأي فرعون .. كما اعتادوا في اجتماعاتهم التي يرصهم فيها رص الحجارة ..

ووقف البطل وحيداً لا نصير له .. وقد كاله فرعون بعار الخيانة العظمى للأسرة المالكة .. ولجميع البلاد !..

والطغاة إذا حكموا .. قلبوا الحقائق .. ولوّنوا العقول بما يشاءون .. وكذلك يفعلون !..

هنالك قال البطل :

« وقال الذي آمن : يا قوم اني أخاف عليكم مِثل يوم الأحزاب .

« مِثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يُريد ظلماً للعباد .

« ويا قوم اني أخاف عليكم يوم التناد .

« يوم تولون مدبرين ما لكم مِن الله مِن عاصم ومَن يضلل الله فما له مِن هاد .

« ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » .

فصاح فرعون : اكفف عنا هذه الأوهام ..

ثم صاح : يا هامان .. سجّل عليه صكوك الإعدام !..

فقال البطل :

« وقال الذي آمن : يا قوم اتـّبعونِ أهدِكم سبيل الرشاد .

« يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاعٌ وإن الآخرة هي دار القرار .

« ومَن عمِل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً مِن ذكرٍ أو انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب .

« ويا قوم ما لي أدعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار .

« تدعونني لأكفر بالله وأُشرك به ما ليس لي به علـــم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار .

« لا جرم انما تدعونني اليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردّنا الى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار .

« فستذكرون ما اقول لكم وافوّض أمري الى الله انّ الله بصير بالعباد » .

وكانت القاعة السرية .. صامتة صمتـــاً رهيباً .. والرجل المؤمن يقول ما يقول .. بين قوم قد ألغى منهم فرعون العقول ..

فلا التفات لشيء مما يقول ..

وإنما تركوه يُفرغ ما عنده .. لأن مصيره قد تحدّد .. وحكم الإعدام .. قد صدر عليه .. من اللحظة التي اجترأ فيهـــا على معارضة قرار فرعون بقتل موسى !..

إلا أن الأحداث القادمة .. شغلت فرعون عن تنفيذ جريمتيه .. جريمة قتل موسى .. وجريمة قتل مؤمن آل فرعون ..

« فوقاه الله سيئات ما مكروا »

« وحاق بآل فرعون سوء العذاب » ..

في اللحظة التي قرر فيها فرعون .. قتل موسى .. وقتل هذا المعارض ..

وأصدر أوامره السرية .. الى هامان .. لتدبير الجريمتين تدبيراً رهيباً ..

في تلك اللحظة .. كانت آيات الله .. الباهرات القاهرات الظاهرات ..

تتنزل .. لتذيق فرعون .. وقومه .. أسوأ أنواع العذاب ..

فشُل المذكور .. بالدفاع عن نفسه ..

ولم يكن عنده وقت لتنفيذ المؤامرة .. لقتل موسى .. أو قتل مؤمن آل فرعون !..

في ... تسع ... آيات ؟!...

الاجرام ...

صفة أصيلة في فرعون وقومه ..

« وكانوا قوماً مجرمين » ..

وكانوا شعباً وحكومة مجرمين !..

فموسى عندهم ساحر .. يُتخذ وسيلة للضحك والسخرية !..

« وقالوا : يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون .

« فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون » ..

هكذا ؟!. موسى مجرد ساحر ..

ادعُ لنا ربك ؟!. ربك أنت .. أما نحن فلا نعترف بهذا الرب ..

وعاهدوه لئن كشف عنهم العذاب .. أن يتبعوه .. فلما كشف عنهم العذاب .. ضحكوا عليه !..

طبيعة الإجرام !..

بل ما هو أحط من الإجرام .. اتخاذ معجزات موسى .. على أنها أضحوكة يضحكون بها !..

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فقال اني رسول رب العالمين .

« فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون » ؟..

هكذا كانوا .. الموضوع كله في نظرهم مجرد موضوع للضحك !..

وكان موقفهم الدائم .. وعلى رأسهم اللعين .. هو التكذيب مهما كانت الآية من الوضوح الذي لا يقبل المناقشة !..

« ولقد جاء آل فرعون النُّذر •

« كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذَ عزيز مُقتدر » ..

كلها ؟!. موقف ثابت .. موسى ساحر .. والآيات ألاعيب من السحر !..

« فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحرٌ مفترًى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأوَّلين » ..

كل هذه المعجزات .. ألاعيب ساحر !..

اجرام .. وإصرار على الإجرام !..

بل ذهب فرعون إلى أبعد من هذا .. ذهب إلى أن موسى نفسه رجلاً مسحوراً .. ألعوبة في يد ساحر أكبر منه .. فلا يستطيع موسى الفكاك من تأثيره عليه !..

« ولقد آتينا موسى تسع آيات بنيات فاسأل بني اسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون اني لأظنك يا موسى مسحوراً » !..

اني لعلى يقين .. أنك يا موسى مسحوراً .. يلعب بك ساحر ماكر يستعملك في هذه الألاعيب !..

ولقد أنزل الله .. تسع آيات .. تسع معجزات واضحات باهرات .. على امتداد السنين .. وعلى أوسع مستوى من البلاد كلها ..

وكانوا يصرخون ويولولون إذا وقعت بهم الآية .. ولم يجدوا منها مخرجاً .. فيعطوا المواثيق لموسى .. أنهم إذا رفع عنهم تلك المصيبة .. ليؤمنن به .. وليطلقن معه بني إسرائيل ..

ويُكشف عنهم الويل الذي هم فيه .. فإذا هم كعادتهم دائماً ينكثون !..

لماذا ؟!. لأن المجرم الذي يحكمهم .. يريد هـــذا .. لا يريد أن يُهزم أمام موسى ..

وما دام فرعون تلك رغبته .. فهي رغبتهم جميعاً ..

لقد تعودوا على هذا طيلة حكم الفراعنة المقدس ..

فرعون .. هو الرب وهو الإله ..

وهم جميعاً .. حجارة مرصوصة .. يتكون منهـــا الهرم .. ليتربع على قمته المذكور ..

« ولقد أريناه آياتنا كلها فكذّب وأبى » ..

أبى ؟!. ها هنا عقدته .. كيف أنزل من إله .. إلى عبد ؟!.

ومن رب يُعبد .. الى رجل يَعبُد ؟!.

إن هذا لن يكون !..

بل **« أنا ربكم الأعلى »** ..

تركيب إجرامي .. حوّل الشعب بالقهر والإذلال والإرهاب .. إلى عبيد لا رأي لهم ولا تفكير ..

يقول لهم .. موسى ساحر .. وهم يرددون من ورائه .. موسى ساحر ..

ببغاوات .. لا عقل لها ..

حتى لو أدى اصرار فرعون على موقفه .. إلى خراب البلاد .. وضياعها .. فلا مانع .. ما دام فرعون قائماً فيهم !..

انهم خسروا كل شيء .. وربحوا فرعون !..

« ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون » .

« فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيّروا بموسى ومن معه ألا انما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون .

« وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين .

« فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين .

« ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل .

« فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون » ..

هـــذه الآيات سجلت الموقف كله .. بين موسى .. وفرعون وقومه .. أحسن تسجيل ..

آيات مفصلات ؟!.

معجزات .. يتلو بعضها بعضا .. على أزمنة متباعدة متتابعة .. على مستوى البلاد كلها .. بحيث يراها الجميع .. ويصلاها الجميع .. ويولول منها الجميع ..

ويضطر الجميع أن يتوسلوا الى موسى .. أن يكشفها عنهم .. وحينئذ يؤمنون له .. ويطلقون معه بني اسرائيل ..

وموسى يستجيب لهم .. ويكشف عنهم العذاب بدعاء الله لهم ..

وهم ينتكسون وينقضون عهدهم في كل مرة .. ويضحكون من موسى.. وعلى موسى ..

« فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون .

« وما نريهم مِن آية إلا هي أكبر مِن أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون » ..

ولكن لا فائدة .. ولا جدوى ..

« وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً » ؟..

« فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » ؟..

والآن .. ماذا كانت تلـــك الآيات .. وما مدى اتساعها .. ومدى ضخامتها ؟ ! .

ولمـــاذا وصفها الله سبحانه بقوله :

« آياتٍ مُفصّلات » ؟!.

آية ... الدم ؟!...

قال عز وجل :

« فأرسلنا عليهم الطوفان »

« والجراد »

« والقُمّل »

« والضفادع »

« والدم »

« آيات مفصلات » ..

فأرسلنا عليهم ؟.

لعلهم يتذكّرون .. وحجـــة عليهم .. وعقاباً لهم .. وضرباً لكبرهم واستعلائهم .. وكسراً لشوكتهم !..

وقف اللعين يتيه ويتمايل كِبراً وعلوّاً يوماً ما يقول :

« أليس لي مُلك مصر ؟

« وهذه الأنهار تجري من تحتي » ؟!.

المذكور يكاد ينفجر كِبراً .. أين هـــو العالي المالك لمُلك مصر .. ونهر النيل وفروعه كلها .. من « هذا الذي هو مَهينٌ ولا يكاد يبين » ؟!.

لا وجه للمقارنة .. بين من يملك كل شيء .. ومن لا يملك شيئاً !..

والمُلك مصيبته الكبرى .. أنه حجاب الحُجب ..

المُلك أغلظ الحجب ..

ينظر المَلك إلى ما تحت يده من مقدرات وسلطات .. فيقول في نفسه : ليس كمثلي أحد !..

فإن لم يقترن المُلك بالإيمان .. تحول المَلك الى متأله .. لولا الحياء لقال : أنا ربكم الأعلى ..

وقد قالها أحدهم .. وهو هذا الفرعون وأعلنها : **أنا ربكم الأعلى** !..

وكأنه يوماً .. لم يكفه ذلك .. فنظر الى ما هو أعلى .. فقال : **ما علمت لكم من إله غيري** !..

ففرعون هنا .. اللسان الباطن لكل مَلِك لم يقترن مُلكه بالإيمن .. الذي يهذب من غروره .. ويحدث التعادل في تفكيره ..

وها هو يملن في موقف عام .. **أليس لي مُلك مصر .. وهذه الأنهار تجري من تحتي** ؟!.

فكان حتما .. أن يُضرب في هذا المُلك .. وأن يُضرب في هذه الأنهار التي تجري من تحته ..

ومعلوم أنه نهر واحد هو نهر النيل .. وله سبعة أفرع .. ومن هذه الأفرع تجري الترع والجداول إلى أنحاء المملكة ..

فتحتم ضربه في هذا النهر الذي يحجبه عن ربه .. وقد كان ..

قال أهل الكتاب .. في سِفر الخُروج :

« ثم قال الرب لموسى قلب فرعون غليظ .

« قد أبى ان يطلق الشعب .

« اذهب الى فرعون في الصباح .

« انه يخرج الى الماء .

« وقِف للقائه على حافة النهر .

« والعصا التي تحولت حيّة تأخذها في يدك .

« وتقول له الرب إله العبرانيين أرسلني اليك قائلا اطلق شعبي ليعبدوني في البرية .

« وهوذا حتى الآن لم تسمع .

« هكذا يقول الرب بهذا تعرف أني أنا الرب .

» ها أنا أضرب بالعصا التي في يدي على الماء الذي في النهر فيتحول دماً .

« ويموت السمك الذي في النهر ويبتن فيعاف المصريون ان يشربوا ماء من النهر .

« ثم قال الرب لموسى قل لهارون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين على أنهارهم وعلى سواقيهم وعلى آجامهم وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دماً .

« فيكون دمٌ في كل أرض مصر في الأخشاب وفي الاحجار .

« ففعل هكذا موسى وهارون كما أمر الرب .

« رفع العصا وضرب الماء الذي في النهر أمام عيني فرعون وأمام عيون عبيده فتحول كل الماء الذي في النهر دماً .

« ومات السمك الذي في النهر وأنتن النهر .

« فلم يقدر المصريون ان يشربوا ماء من النهر .

« وكان الدم في كل أرض مصر .

« وفعل عرّافو مصر كذلك بسحرهم .

« فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب .

« ثم انصرف فرعون ودخل بيته ولم يُوجِّه قلبه الى هذا أيضاً .

« وحفر جميع المصريين حوالَـي النهر لأجل ماء ليشربوا .

« لأنهم لم يقدروا أن يشربوا من ماء النهر » .

هذه صورة تفصيلية لآية الدم .. كما وردت عند أهل الكتاب ..

وكما ذكرنا أن شؤم منطق فرعون « **وهذه الانهار تجري من تحتي** » !.. قد أنزل به وبشعبه العقاب !..

ولسان حال المعجزة يقول : تتيه فخراً بهذا النهر يا فرعون ؟!. فلسوف نحرمك وشعبك منه .. ونحوله الى دم .. ونتشّن .. لعلكم تعقلون ..

وهكذا .. آية .. مفصلة .. منتشرة أمام الجميع .. ويرونها بأعينهم .. ولكن هيهات هيهات !..

رغم أن المذكور لم يأبه بتلك الآية ..

إلا أنها زلزلت أعماقه .. ولكن الكبر .. منعه أن يؤمن لهذا « **الذي هو مهين ولا يكاد يبين** » !..

« **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا** » !..

وبينما فرعون يتلقى الضربات . . كانت هنـــاك ضربة أفزعته . . وحطمته تحطيما ..

فانتفض كالأسد المصور .. يصب عليها صنوف الإجرام والتعذيب ..

كانت هذه الضربة .. من أقرب الناس عليه .. ممن لم يتصور يوماً أن يُضرب منها ..

فكيف كان ذلك ؟!.

آسية ... امرأة ... فرعون ؟!...

سبحان .. ذي الجبروت .. والملكوت .. والكبرياء .. والعظمة !..

كان للجبروت الإلهي .. الذي تجلى في المشهد الخالد :

« فالقى موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون »

« فأُلقِي السحرة ساجدين »

« قالوا آمنا برب العالمين »

« رب موسى وهارون » ..

كان لذلك الجبروت زلزلة .. في قلوب الشاهدين .. هـــزّت أعماقهم هزّاً عنيفاً ..

إلا أن إجرام فرعون .. منعهم أن يظهروا الانقلاب الذي هز أعماقهم ..

ثم كان لإجرام فرعون .. الذي صبّه على جميع السحرة :

« لأصلبنكم أجمعين » ..

ثم ثبات السحرة .. وهم يساقون الى الصّلب :

« فاقض ما أنت قاض » ..

زلزلة أخرى في نفوس الشاهدين ..

وكان من الشاهدين لتلك الأحداث العظمى ..

ومن الجالسات في مقصورة الأسرة المالكة المقدسة ..

امرأة وجهها .. كالقمر ..

وحُسنها .. أجمل نساء زمانها ..

إنها الملكة .. امرأة فرعون .. وزوجة الملك المقدس ..

إنها آسية بنت مُزاحِم !..

كانت تتابع ذلك المشهد الإلهي الفريد ..

وعينها مركزة على موسى !..

ها هي تتابعه وهو يقف وحيداً .. في يده عصـــاه .. وعن يمينه أخوه هارون ..

والجميع يقفون ضدّه !..

من أي لون من الرجال ذلك الرجل ؟!.

انه لا يهتز لما يجري أمامه من تحديات !..

لم لا يكون رسول الله حقاً ؟!.

وبينما هي شاردة في تفكيرها .. على استخفاء من زوجها الجبّار ..

فوجئت بموسى .. يلقى عصاه .. فتلقف كل ما في الساحة .. في طرفة عين أو أقل !..

هنالك أيقنت .. أن ما حـــدث .. شيء وراء العقل .. شيء من الله .. القاهر فوق عباده ..

وبينما ألقي السحرة ساجدين ..

ألقِيَت « آسية » ساجدة معهم .. بقلبها .. ولكن لم تستطع أن تسجد ببدنها .. خوفاً من بطشة الجبار .. الذي يجلس على رأس الشاهدين !..

من تلك اللحظة .. آمنت آسية بموسى .. رسولاً من الله ..

وزادها إيماناً أن موسى ليس جديداً بالنسبة اليها ..

فهي أول من استقبلته حين التقاطه من المــاء .. وقيل هي التي أسمته « مو ... شي » ماء .. وشجر .. لأنها وجدته بين الماء والحلفاء والشجر ..

وهي التي منعت زوجها أن يذبحه :

« وقالت امرأت فرعون :

« قُرت عين لي ولك لا تقتلوه .

« عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولداً » !..

وهي التي عاشت مع موسى لحظة بلحظة .. وشاهدت فيه مشاهد النبوة .. وعجائب الامتياز ..

إلا انها لم تكن تدري سر ذلك كله !..

« وألقيت عليك محبة مني » !..

وهي التي تبنته .. واتخذته إبناً .. وصارت له أمّاً ..

وهي التي أحبته .. وأكبرته .. لصفاته العليا .. وأمانته الكبرى ..

إلا أنها طيلة السنين التي قضاها موسى .. في القصر الملكي .. لم تستطع أن تفسر امتيازات موسى ..

حتى كانت هذه اللحظة .. فوجدت لسؤالها جواباً وتفسيراً ..

وأيقنت أن موسى رسول الله ..

ففهمت هنالك لمــاذا كان موسى دائماً .. ممتازاً امتيازاً لم تستطع له آنذاك تفسيراً !..

وانفض الحشد .. وسيق السحرة إلى مصارعهم ..

وعاد فرعون الى قصره .. وقد ازداد كفراً وإجراماً ..

وعادت الملكة .. آسية .. مع من عاد من نساء القصر .. إلا أنهــا هذه المرة .. قد تغيرت تغيراً تاماً ..

وما كان ذلك ليغيب عن عيون هامان وجواسيسه الذين يبثهم في كل مكان من القصور الملكية ..

واكتشف فرعون .. أن امرأته .. وأقرب الناس اليه .. آمنت بالله ربّاً .. وبموسى رسولاً ..

هنالك عذبها عذاباً .. لم يعذبه أحداً من رعاياه ..

وصب عليها كل ما عنده من إجرام ..

وقتلها قتلاً رهيباً !..

فكيف كان ذلك ؟..

قال تعالى :

« وضرب الله مثلا للذين آمنوا .

« امرأت فرعون .

« إذ قالت : رب ابن لي عندك بيتاً في الجنّة .

« ونجني من فرعون وعمله .

« ونجني من القوم الظالمين » .

دخلت آسية ..

دخلت أعظم امرأة في عصرها .. سجل الخلود .. سجل الشرف والخالدين .

حسبها هذه الآية المحكمة .. التي اختصها الله بها في كتابه العظيم !..

وأي شرف هو أعظم من شرفها ؟..

أن جعلها الله « مَثلا » ؟..

مَثلاً .. للذين آمنوا الى يوم القيامة ..

يا مَن تبحثون عن الخالدات .. العظيمات . الكاملات .. الشهيدات .. هاكم اقرءوا كتابها !..

وسجّل رسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. لها الكمال .. والمثال :

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« كَمُلَ من الرجال كثير .

« ولم يكمُل من النساء .

« إلا آسية امرأة فرعون .

« ومريم بنت عمران .

« وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

[رواه البخاري]

« كَمُلَ » المراد من الكمال التناهي في جميع فضائل الرجال .

« ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران » استدل بعضهم بهذا على أن آسية ومريم نبيتان .. لأن أكمل النوع الإنساني الأنبياء .. ثم الأولياء والصديقون والشهداء ..

وقيل : المراد تناهيهما في جميع الفضائل التي للنساء ..

ونقل الاجماع على عدم النبوة للنساء ..

ونقل عن الأشعري : ان من النساء من نبيء .. وهن ست .. حواء .. وسارة .. وأم موسى .. وهاجر .. وآسية .. ومريم .. وقد ثبت مجيء الملك لبعضهن في القرآن ..

وقال القرطبي : الصحيح أن مريم نبية .. لأن الله أوحى اليهـــا بواسطة الملك .. وأما آسية فلم يرد ما يدل على نبوتها ..

« وإن فضل عائشة – رضي الله تعالى عنها – على النساء » أي على نساء هذه الأمة في الفضيلة .. شبه فضلها بفضل الثريد على غيره من الطعام لما فيه من تيسير المؤنة وسهولة الاساغة .. وكان أجل أطعمتهم يومئذ ..

« قال رسول الله .. عليه الصلاة والسلام :

« حسبك من نساء العالمين بأربع .

« مريم بنت عمران .

« وآسية امرأة فرعون .

« وخديجة بنت خويلد .

« وفاطمة بنت محمد » .

[رواه أحمد والترمذي وابن عساكر]

وعن ابن عباس قال :

« خط رسول الله .. عليه الصلاة والسلام .. في الارض أربعة خطوط .

« فقال : أتدرون ما هذا ؟

« قالوا : الله ورسوله أعلم .

« فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أفضل نساء أهل الجنة .

« خديجة بنت خويلد .

« وفاطمة بنت محمد .

« ومريم بنت عمران .

« وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون » .

[رواه النسائي وغيره]

قالوا :

(ضَرَبَ الله مَثلا) إلى آخره .. مثل حال المؤمنين في أن وصلة الكافرين لا تضرهم .. ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله .. بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله مع كونها امرأة أعدى أعداء الله .. الناطق بالكلمة العظمى ..

« وأراد بامرأة فرعون .. آسية بنت مزاحم .

« لما غلب موسى سحرة فرعون آمنت .

« فلما تبين ايمانها لفرعون .. وثبتت عليه .

« أوتد يديها ورجليها .. بأربعة أوتاد .

« وألقاها في الشمس .

« وأمر بصخرة عظيمة .. فتلقى عليها .

« فلما أتوا بالصخرة قالت :

« رب .. ابن لي .. عندك .. بيتاً في الجنة .

« فابصرت بيتها في الجنة من درة بيضاء .

« وانتزع الله روحها .

« فالقيت الصخرة عليها .

« وليس في جسدها روح .

« فلم تجد ألماً .. من عذاب فرعون » .

وقالوا : « وآسية هي بنت مزاحم .. ابنة عم فرعون » !..

« وقتلها المجرم .. وألحقها بآلاف السحرة الذين قتلهم من قبل ..

وها هو يدبر لقتل موسى .. ويدبر لقتل مؤمن آل فرعون ..

ولا مانع عنده .. من تقتيل .. كل من يتوهم منه الخطر !..

سلام على آسية .. امرأة فرعون ..

سلام عليها .. حين أعلنت إلى فرعون .. إيمانها ..

سلام عليها .. حين نزلت عن نعيم الملوك .. وزينة الملكات .. وفخفخة زوجة فرعون ..

وتركت كل ذلك .. وآثرت ربها .. وجعلت تناديه .. في عذاب لا يحتمله أكابر الرجال :

« رب .. ابن لي .. عندك .. بيتاً .. في الجنة » ..

وتناديه : **« ونجني .. من فرعون .. وعمله » ..**

وتناديه : **« ونجني .. من القوم الظالمين » ..**

فناداها ! . .

ولبّاها ! . .

ونجّاها ! . .

مصرع ... ماشطة ... ابنة فرعون ؟!...

جريمة أخرى من جرائمه ...

عن ابن الأثير .. في اختصار :

« وكان مؤمن آل فرعون يكتم إيمانه .

« فلما رأى غلبة موسى السحرة أظهر إيمانه .

« وكان له امرأة مؤمنة تكتم إيمانها أيضاً .

« وكانت ماشطة ابنة فرعون .

« فبينما هي تمشطها إذ وقع المشط من يدها .

« فقالت : بسم الله .

« فقالت ابنة فرعون : أبي ؟

« قالت : لا .. بل ربي وربك .. ورب أبيك .

« فأخبرت أباها بذلك .

« فدعا بها وبولدها وقال لها : مَن ربك ؟

« قالت : ربي وربك الله .

« فأمر بتنّور نحاس فأحمى ، ليعذبها وأولادها .

« فقالت : لي اليك حاجة .

« قال : وما هي ؟

« قالت : تجمع عظامي وعظام ولدي فتدفنها .

« قال : ذلك لك .

« فأمر بأولادها فأُلقوا في التنور واحداً واحداً .

« وكان آخر أولادها صبياً صغيراً .

« فقال : اصبري يا أمّاه ، فإنك على الحق .

« فألقيت في التنّور مع ولدها » !..

ثم يقول :

« وكانت آسية امرأة فرعون .. مؤمنة تكتم إيمانها .

« فلما قُتلت الماشطة رأت آسية الملائكة تعرج بروحها .

« كشف الله عن بصيرتها ، وكانت تنظر اليها وهي تعذّب .

« فلما رأت الملائكة قوي إيمانها وازدادت يقيناً وتصديقاً لموسى .

« فبينما هي كذلك إذ دخل عليها فرعون فأخبرها خبر الماشطة .

« قالت له آسية : الويل لك !.. ما أجرأك على الله ؟

« فقال لها : لعلك اعتراك الجنون الذي اعترى الماشطة ؟.

« فقالت : ما بي من جنون .. ولكني آمنت بالله تعالى .. ربي وربك .. ورب العالمين .

« فدعا فرعون أمّها وقال لها : ان ابنتك قد أصابها ما أصاب الماشطة فأقسم لتذوقن الموت أو لتكفرن بإله موسى .

« فخلت بها أمّها وأرادتها على موافقة فرعون .

« فأبت وقالت : أمّا أن أكفر بالله فلا والله !

« فأمر فرعون حتى مُدّت بين يديه أربعة أوتاد .

« وعُذّبت حتى ماتت .

« فلما عاينت الموت قالت (**رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين**) .

« فكشف الله عن بصيرتها فرأت الملائكة وما أعدّ لها من الكرامة .

« فضحكت .

« فقال فرعون : انظروا الى الجنون الذي بها .

« تضحك وهي في العذاب .

« ثم ماتت » !..

هذه جريمة واحدة .. من آلاف الجرائم الكبرى .. التي يرتكبها فرعون بالليل والنهار ..

ان القتل عنده أصبح صناعة ..

وأقرب الوسائل إلى كتم أنفاس من يجترىء على الكفر به !..

وذهبت ماشطة ابنته .. أو وصيفة ابنته .. الى ربها .. راضية مرضية !.

آية ... الضفادع ...؟!

قال تعالى :

« فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون •

« وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون •

« وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون •

« فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون » •

إذا هم منها يضحكون ؟!.

ولعل آية الضفادع بالذات .. أثارت ضحكهم أكثر من غيرها ..

فالضفادع حيوان برمائي مألوف للمصريين .. وليس غريباً عندهم ..

فإذا فوجئوا بالبلاد من أقصاها الى أقصاها .. وقد غطاها الضفادع .. فهو منظر أثار ضحكهم ..

لأن الموضوع عندهم ليس معجزة من الله .. وإنما مجرد ألاعيب ساحر !..

وحركات الضفادع بالذات تثير الضحك .. فكيف وقد زاحمتهم في كل مكان .. واقتحمت عليهم ملابسهم .. وبيوتهم .. ومخادعهم .. ومزارعهم .. وأواني الطهي .. حتى قيل أنهم كانوا إذا جلسوا للطعام قفزت الضفادع الى الصحاف !..

« بما عهد عندك » بعهده الذي عهد اليك أننا إن آمنا بك ، واتبعناك كشف عنا الرجز .

« إذا هم ينكثون » يغدرون ، ويصرون على ضلالتهم !..

وإليك تفصيل تلك المعجزة .. كما وردت عند أهل الكتاب :

« ولما كملت سبعة ايام بعد ما ضرب الرب النهر قال الرب لموسى ادخل الى فرعون وقل له هكذا يقول الرب أطلق شعبي ليعبدوني .

« وإن كنت تأبى أن تطلقهم فها أنا أضرب جميع تخومك بالضفادع .

« فيفيض النهر ضفادع .

« فتصعد وتدخل الى بيتك والى مخدع فراشك وعلى سريرك والى بيوت عبيدك وعلى شعبك والى تنانيرك والى معاجنك .

« عليك وعلى شعبك وعبيدك تصعد الضفادع .

« فقال الرب لموسى قل لهارون مد يدك بعصاك على الأنهار والسواقي والأجام وأصعد الضفادع على أرض مصر .

« فمد هارون يده على مياه مصر .

« فصعدت الضفادع وغطت أرض مصر .

« وفعل كذلك العرافون بسحرهم وأصعدوا الضفادع على أرض مصر .

« فدعا فرعون وهارون وقال صليا الى الرب ليرفع الضفادع عني وعن شعبي فأطلق الشعب ليذبحوا للرب .

« فقال موسى لفرعون عين لي متى أصلي لأجلك ولأجل عبيدك وشعبك لقطع الضفادع عنك وعن بيوتك .

« ولكنها تبقى في النهر .

« فقال غدا .

« فقال كقولك .

« لكي تعرف أن ليس مثل الرب إلهنا .

« فترتفع الضفادع عنك وعن بيوتك وعبيدك وشعبك .

« ولكنها تبقى في النهر .

« ثم خرج موسى وهارون من لدن فرعون وصرخ موسى الى الرب من أجل الضفادع التي جعلها على فرعون .

« ففعل الرب كقول موسى .

« فماتت الضفادع من البيوت والدور والحقول .

« وجمعوها كوماً كثيرة حتى انتنت الأرض .

« فلما رأى فرعون أنه قد حصل الفرج أغلظ قلبه ولم يسمع لهما كما تكلم الرب » .

هذه آية الضفادع .. أو معجزة .. أو خارقة الضفادع ..

لقد استغاث المذكور بموسى .. ودعا موسى ربه .. فكشف عنهم كربهم ..

فلما آنسوا فرجاً .. غدروا .. وعادوا الى طبيعتهم !..

« ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك .

« لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل .

« فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه .

« إذا هم ينكثون » !..

إذا هم يغدرون !..

هكذا .. الأمر عندهم ألعوبة .. ووسيلة للضحك !..

آية ... القُمَّل ؟!..

قال تعالى :

« ... والقُمَّلَ ... »

فما هو هذا القُمَّل .. الذي أرسله الله .. على فرعون وقومه ؟..

قال الطبري

« والقُمَّل » قيل : هو السُّوس الذي يخرج من الحنطة . وقيل : هو صغير الجراد الذي لا أجنحة له .

والذي أميل اليه أن القُمَّل هو السوس .. لأن الجراد نصَّت الآية عليه .. كمعجزة مستقلة ..

وعلى هذا فقد أرسل الله عليهم آفة السوس .. فنخرت محاصيلهم وحبوبهم كلها .. فصارت هشيما لا فائدة فيه .. وهذه خسارة جسيمة نزلت بهم !..

فإنك لو تصورت أن السوس أفسد المخزون عندهم من القمح والشعير والفول والبرسيم وسائر المحاصيل التي يزرعونها .. لأدركت مدى الخسارة التي حلت عليهم !..

هذا رأي .. ورأي آخر يبدو جميلا إن شاء الله .. في تفسير كلمة « القُمَّل » ..

أن القُمّل .. هو كل حشرة ضارة مؤذية .. مفسدة للحياة كلها .. ويدخل في ذلك البعوض .. والذباب .. والبق .. والقراد الذي يصيب البهائم ..

وإنما آنست هذا الرأي مما جاء عند بعض المفسرين :

ففي البيضاوي : قيل هو كبار القُراد، وقيل صغار الجراد – قبل نبات أجنحتها –

« وعبارة القاموس : والقُمّل كسُكّر، صغار الذر، والدبا الذي لا أجنحة له، أو شيء صغير بجناح أحمر .. أو دواب صغار كالقردان واحدتها بهاء » ..

ففي الأمر كما ترى سعة .. وعلى هذا أستطيع أن أفهم أن « القُمّل » يدخل فيه الحشرات الضارة كالبعوض والذباب والبق والقراد ..

ففي كلمة « والقُمّل » إشارة الى الحشرات .. أي وأرسلنا عليهم كل حشرة تؤذيهم ..

وقد جاء عند أهل الكتاب .. أن البعوض والذباب .. أرسل على بني إسرائيل .. ضمن ما أرسل عليهم من آيات ..

وإليك ما جاء عندهم عن البعوض :

« ثم قال الرب لموسى قل لهارون مُد عصاك واضرب تراب الأرض ليصير بعوضاً في جميع أرض مصر .

« ففعلا كذلك .

« مد هارون يده بعصاه وضرب تراب الأرض .

« فصار البعوض على الناس وعلى البهائم .

« كل تراب الأرض صار بعوضاً في جميع أرض مصر .

« وفعل كذلك العرافون بسحرهم ليخرجوا البعوض فلم يستطيعوا .

« وكان البعوض على الناس وعلى البهائم .

« فقال العرافون لفرعون هذا اصبع الله .

« ولكن اشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب » .

والبعوض .. بلغة العوام هو الناموس ..

وهو عذاب وأي عذاب ؟!

أعداد لا تحصى في كل شبر من أرض مصر .. من البعوض .. تهاجم الناس والحيوانات وكل شيء !..

ثم اليك ما ورد عند أهل الكتاب .. عن إرسال الذباب على فرعون وقومه :

« ثم قال الرب لموسى بَكِّر في الصباح وقِف أمام فرعون .

« انه يخرج الى الماء .

« وقل له هكذا يقول الرب أطلق شعبي ليعبدوني .

« فانه ان كنت لا تطلق شعبي ها أنا أرسل عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك وعلى بيوتك الذُّبان فتمتلىء بيوت المصريين ذُبَّانا .

« وأيضاً الأرض التي هم عليها .

« ولكن أُميّز في ذلك اليوم أرض جاسان حيث شعبي مقيم حتى لا يكون هناك ذُبان .

« لكي تعلم أني أنا الرب في الأرض .

« واجعل فرْقاً بين شعبي وشعبك .

« غداً تكون هذه الآية .

« ففعل الرب هكذا .

« فدخلت ذُبان كثيرة إلى بيت فرعون وبيوت عبيده .

« وفي كل أرض مصر خربت الأرض من الذبان .

« فدعا فرعون موسى وهارون وقال اذهبوا اذبحوا لالهكم في هذه الأرض .

« فقال موسى لا يصلح أن نفعل هكذا .

« لأننا انما نذبح رجس المصريين للرب إلهنا .

« ان ذبحنا رجس المصريين أمام عيونهم أفلا يرجموننا .

« نذهب سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا كما يقول لنا .

« فقال فرعون أنا أطلقكم لتذبحوا للرب إلهكم في البرية .

« ولكن لا تذهبوا بعيداً .

« صَلّيا لأجلي .

« فقال موسى ها أنا أخرج من لدنك وأصلي الى الرب .

« فترتفع الذبان عن فرعون وعبيده وشعبه غداً .

« ولكن لا يعد فرعون يخاتل حتى يطلق الشعب ليذبح للرب .

« فخرج موسى من لدن فرعون وصلى الى الرب .

« ففعل الرب كقول موسى .

« فارتفع الذبان عن فرعون وعبيده وشعبه .

« لم تبق واحدة ».

« ولكن أغلظ فرعون قلبه هذه المرة أيضاً فلم يطلق الشعب » .

هـــذا تفصيل معجزة إرسال الذباب على فرعون وقومه .. عند أهل الكتاب ..

والذباب حشرة ثقيلة بغيضة .. من أعدى أعداء الإنسان .

وفي النهاية نقول .. أن « **القـُمَّل** » أرسل عذاباً على فرعون وقومه ..

فإن كان هو السوس فهو عذاب وأي عذاب .. وخراب وأي خراب !..

وإن كان يدخل فيه كل حشرة ضارة .. كالبعوض والذباب .. فقد أرسل البعوض .. ثم الذباب عليهم .. كما رأيت ..

كل أولئك .. آيات مُفصّلات .. ولكن هيهات هيهات !..

آية ... الطوفان ؟!...

قال تعالى :

« ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون •

« فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يَطَّيَّروا بموسى ومن معه ألا انما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون •

وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين •

« فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » •

فما هو هذا الطوفان .. الذي أرسله الله على فرعون وقومه ؟..

قال الطبري :

« الطوفان » قيل : هو الموت الذريع •

« وقيل : هو المطر الشديد » •

ثم قال الطبري :

« والصواب من القول في ذلك عندي – ما قاله ابن عباس – أنه أمر من الله طاف بهم ، وأنه مصدر من قول القائل .. طاف بهم أمر الله يطوف طوفانا .. وإذا كان ذلك كذلك ، جاز ان يكون ذلك الذي طاف بهم المطر وجاز الشديد ان يكون الموت الذريع » !..

وبالرجوع الى ما عند أهل الكتاب .. وجدت عندهم ثلاث آيات متتابعات

أرسلها الله على آل فرعون .. اثنتان فيهما الموت الذريع والوباء الذي طاف بهم طوفانا .. والثالثة الأخرى فيها المطر الشديد ..

فقلت في نفسي : أجمل الله تلكم الآيات الثلاث في كلمة واحدة هي « الطوفان » .. في قوله سبحانه « فأرسلنا عليهم الطوفان » !..

وهذا من بدائع إعجاز الكتاب العظيم !..

وإليك ما ورد عند أهل الكتاب .. عن الآية الأولى التي أرسلت على آل فرعون .. من هذه الثلاث :

« ثم قال الرب لموسى ادخل الى فرعون وقل له هكذا يقول الرب إله العبرانيين أطلق شعبي ليعبدوني .

« فانه ان كنت تأبى أن تطلقهم وكنت تمسكهم بعد فها يد الرب تكون على مواشيك التي في الحقل على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم وباءً ثقيلا جداً .

« ويُميز الرب بين مواشي اسرائيل ومواشي المصريين .

« فلا يموت من كل ما لبني اسرائيل شيء .

« وعيّن الرب وقتاً قائلا غداً يفعل الرب هذا الأمر في الأرض .

« ففعل الرب هذا الامر في الغد .

« فماتت جميع مواشي المصريين .

« وأما مواشي بني اسرائيل فلم يمت منها واحد .

« وأرسل فرعون وإذا مواشي اسرائيل لم يمت منها ولا واحد .

« ولكن غلظ قلب فرعون فلم يطلق الشعب » .

هذه هي الآية الأولى التي تدخل في قوله « الطوفان » .. وهو الموت الذريع الذي طاف طوفاناً بجميع مواشي آل فرعون .. وهـــذا تفصيلها عند أهل الكتاب ..

فما هي المعجزة الثانية .. التي تدخل في « الطوفان » ؟!.

قال أهل الكتاب :

« ثم قال الرب لموسى وهارون خُذا ملء أيديكما من رماد الأتون .

« وليُذرّه موسى نحو السماء أمام عيني فرعون .

« ليصير غباراً على كل أرض مصر .

« فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور في كل أرض مصر .

« فأخذا رماد الأتون ووقفا أمام فرعون وذرّاه موسى نحو السماء .

« فصار دمامل بُثور طالعة في الناس وفي البهائم .

« ولم يستطع العرافون أن يقفوا أمام موسى من أجل الدمامل .

« لأن الدمامل كانت في العرافين وفي كل المصريين .

« ولكن شدد الرب قلب فرعون فلم يسمع لهما كما كلم الرب موسى » .

هذه هي المعجزة الثانية .. التي تدخل في قوله سبحانه « الطوفان » ..

انه عذاب الوباء العام .. الذي طاف بهم جميعاً طوفاناً .. فانتشرت فوراً الدمامل ذات البثور .. في جميع الناس والبهائم !..

وهو عذاب أليم .. وأوجاع شديدة .. وقُبحٌ في وجوههم .. يزيدهم قبحاً على قبح !..

فما هي المعجزة الثالثة.. التي تدخل في قوله سبحانه المعجز « الطوفان » .. وتتوافق مع قول المفسرين أن الطوفان هو المطر الشديد ؟!.

قال أهل الكتاب :

« ثم قال الرب لموسى بَكِّر في الصباح وقِف أمام فرعون وقل له هكذا يقول الرب إله العبرانيين أطلق شعبي ليعبدوني .

« لأني هذه المرة أُرسل جميع ضرباتي الى قلبك وعلى عبيدك وشعبك لكي تعرف أن ليس مثلي في كل الارض .

« فانه الآن لو كنت أمد يدي واضربك وشعبك بالوباء لكنت تُباد من الارض .

« ولكن لأجل هذا اقمتك لكي أُريك قوّتي ولكي يُخبر باسمي في كل الارض .

« أنت معاندٌ بعد لشعبي حتى لا تطلقه .

« ها أنا غداً مثل الآن أُمطر برداً عظيماً جداً لم يكن مثله في مصر منذ يوم تأسيسها الى الآن .

« فالان أرسِل احمِ مواشيك وكل ما لك في الحقل .

« جميع الناس والبهائم الذين يوجدون في الحقل ولا يُجمعون الى البيوت ينزل عليهم البرد فيموتون .

« فالذي خاف كلمة الرب من عبيد فرعون هرب بعبيده ومواشيه إلى البيوت .

« وأما الذي لم يوجّه قلبه الى كلمة الرب فترك عبيده ومواشيه في الحقل .

« ثم قال الرب لموسى مُد يدك نحو السماء ليكون بردٌ في كل أرض مصر على الناس وعلى البهائم وعلى كل عشب الحقل في أرض مصر .

« فمد موسى عصاه نحو السماء .

« فأعطى الرب رُعوداً وبرداً وجرّت نار على الأرض وامطر الرب برداً على أرض مصر .

« فكان بردٌ ونارٌ متواصلة في وسط البرد .

« شيء عظيم جداً لم يكن مثله في كل أرض مصر منذ صارت أمة .

« فضرب البرَد في كل أرض مصر جميع ما في الحقل من الناس والبهائم .

« وضرب البرَد جميع عشب الحقل وكسّر جميع شجر الحقل .

« إلا أرض جاسان حيث كان بنو اسرائيل فلم يكن فيها برد .

« فأرسل فرعون ودعا موسى وهارون وقال لهما أخطأت هذه المرة .

« الرب هو البارُّ وأنا وشعبي الأشرار .

« صليا الى الرب وكفى حدوث رعود الله والبرد فأطلقكم ولا تعودوا تلبثون .

« فقال له موسى عند خروجي من المدينة أبسُط يدي إلى الرب فتنقطع الرعود ولا يكون البرد أيضاً لكي تعرف أن للرب الأرض .

« وما أنت وعبيدك فأنا أعلم أنكم لم تخشوا بعدُ من الرب الاله .

« فالكتان والشعير ضُربا .

« لأن الشعير كان مُسبِلاً والكتان مُبزِراً .

« وأما الحنطة والقطانيُّ فلم تُضرب لأنها كانت متأخرة .

« فخرج موسى من المدينة من لدن فرعون وبسط يديه الى الرب .

« فانقطعت الرعود والبرد ولم ينصبّ المطر على الأرض .

« ولكن فرعون لما رأى أن المطر والبرد انقطعت عاد يُخطىء واغلظ قلبه هو وعبيده .

« فاشتد قلب فرعون فلم يُطلق بني اسرائيل كما تكلم الرب عن يد موسى » .

هذه هي المعجزة .. أو الآية الثالثة .. التي تدخل في قوله تعالى « الطوفان » .. وهو المطر الشديد .. بما فيه من رعود وبروق وبرد ..

وهي تتطابق مع قول المفسرين أن الطوفان هو المطر الشديد ..

وعلى هذا تدخل آيات ثلاث .. هي الموت الذريع في البهائم .. والدمامل ذات البثور في جميع الناس وجميع البهائم .. ثم المطر والبرد المتواصل في جميع البلاد ..

ثلاث معجزات .. مفصلات .. متتابعات .. منتشرات على مستوى جميع الناس وجميع البلاد .. وعلى جميع المستويات .. من فرعون في أعلاها .. الى عبيده في أدناها ..

ثلاث آيات .. مُرسلات .. على فرعون وقومه ..

مُفصّلات .. مسجلات عند بني إسرائيل .. وفي كتابهم .. كما قرأت آنفاً ..

ثم يأتي كتاب الله العزيز .. فيضع كل تلك الآيات .. وكل هذه التفاصيل .. وكل هذه العجائب .. في كلمة واحدة !..

« الطوفان » ؟!.

اللهم إني أشهدك ..

وأشهد حملة عرشك .. وملائكتك .

وجميع خلقك ..

أنك الحق !..

وكتابك الحق ! .

ونزل بالحق !..

على نبيٍّ حق ! .

لا إله إلا أنت !..

آية ... الجراد ؟!...

قال تعالى :

« فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد » ..

فماذا عند أهل الكتاب في تفصيل تلك المعجزة ؟!

قالوا :

« فدخل موسى وهارون الى فرعون وقالا له هكذا يقول الرب إله العبرانيين الى متى تأبى أن تخضع لي .

« أطلق شعبي ليعبدوني .

« فانه ان كنت تأبى أن تطلق شعبي ها أنا أجيء غداً بجراد على تخومك .

« فيغطي وجه الارض حتى لا يستطاع نظر الارض .

« ويأكل الفضلة السالمة الباقية لكم من البرد .

« ويأكل جميع الشجر النابت لكم من الحقل .

« ويملأ بيوتك وبيوت جميع عبيدك وبيوت جميع المصريين .

« الأمر الذي لم يره آباؤك ولا آباء آبائك منذ يوم وُجدوا على الارض الى هذا اليوم .

« ثم تحوّل وخرج من لدن فرعون .

« فقال عبيد فرعون له الى متى يكون هذا لنا فخاً .

« أطلق الرجال ليعبدوا الرب إلههم .

« ألم تعلم بعد ان مصر قد خربت .

« فرُدَّ موسى وهارون الى فرعون .

« فقال اذهبوا اعبدوا الرب إلهكم .

« ولكن مَن ومَن هم الذين يذهبون .

« فقال موسى نذهب بفتياننا وشيوخنا .

« نذهب ببنينا وبناتنا بغنمنا وبقرنا .

« لأن لنا عيداً للرب .

« فقال لهما يكون الرب معكم هكذا كما أطلقكم وأولادكم .

« انظروا ان قدّام وجوهكم شرّاً .

« ليس هكذا .

« اذهبوا أنتم الرجال واعبدوا الرب .

« لأنكم لهذا طالبون .

« فطُرِدا من لدن فرعون .

« ثم قال الرب لموسى مُد يدك على أرض مصر لأجل الجراد .

« ليصعد على أرض مصر ويأكل كل عشب الارض كل ما تركه البرد .

« فمد موسى عصاه على أرض مصر .

« فجلب الرب على الارض ريحاً شرقية كل ذلك النهار وكل الليل .

« ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد .

« فصعد الجراد على كل أرض مصر وحل في جميع تخوم مصر .

« شيء ثقيل جداً لم يكن قبله جراد هكذا مثله ولا يكون بعده كذلك .

« وغطى وجه كل الارض حتى أظلمت الارض .

« وأكل جميع عشب الارض وجميع ثمر الشجر الذي تركه البرد .

« حتى لم يبق شيء أخضر في الشجر ولا في عشب الحقـــل في كل أرض مصر .

« فدعا فرعون موسى وهارون مُسرعاً وقال أخطأتُ الى الـــرب إلهكما واليكما .

« والآن اصفحا عن خطيّتي هذه المرة فقط .

« وصلّيا الى الرب إلهكما ليرفع عني هذا الموت فقط .

« فخرج موسى من لدن فرعون وصلى الى الرب .

« فردّ الرب ريحاً غربية شديدة جداً .

« فحملت الجراد وطرحته الى بحر سُوف .

« لم تبق جرادة واحدة في كل تخوم مصر .

« ولكن شدد الرب قلب فرعون فلم يطلق بني اسرائيل » .

هذا تفصيل .. آية الجراد .. كما وردت عندهم ..

ولكن هل تراجع اللعين عن إجرامه وإصراره ؟!.

نفس الموقف المتكرر .. يخادع حتى يُكشف عنه العذاب .. ثم يعود الى غدره ومكره !..

آية ... الظلام ؟!...

قال تعالى :

« وما نريهم من آية إلا هي أكبر مِن أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون » .

إلا هي أكبر مِن أختها ؟!.

إشارة الى التدرج بهم .. من آية .. الى آية أكبر .. وهكذا ..

من عذاب .. الى عذاب أشد ..

من ضربة .. الى ضربة أكبر من سابقتها .. من أختها التي سبقتها ..

ما الحكمة من هذا التدرج .. نحو الأشد والأكبر ؟!.

لعلهم يرجعون .. نزيد لهم العذاب .. في كل مرة .. لعلهم يرجعون عن إجرامهم ..

كالمجرم حين يُساق الى المحاكمة .. في الجريمة الأولى .. يراعى تخفيف العقوبة عنه .. لعله يرجع عن إجرامه .. فإذا عاد الى ارتكاب الجريمة .. حُكم عليه بعقوبة أشد .. بعقوبة أكبر ..

ولكن هؤلاء كانوا قوماً مجرمين .. عتاة في الإجرام .. مهما زيدت لهم العقوبات .. فهم لا يرجعون !..

في البداية :

« ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون»؟!.

بدأ بهم بالسنين .. بالقحط .. ونقص من الثمرات .. المحاصيل موجودة .. ولكن تُنقص .. لماذا ؟!. لعلهم يذكرون !.

تنبيه خفيف لطيف يُطاق .. لعلهم ينتبهون !..

فلما استمروا في غفلتهم .. ولم يستفيدوا من هذه الأجراس ..

ضربهم بما هو أشد .. ثم الأشد .. وهكذا ..

« فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » .

ضربات متتابعة .. كل ضربة أكبر من أختها .. ولكن لا جدوى .. كما شاهدنا سابقاً !..

لماذا ؟.. وكانوا قوماً مجرمين .. عتاة في الإجرام .. مهما عوقبوا .. أو زيد لهم العقاب ..

فهؤلاء لا يصلح معهم إلا الإبادة ..

وإليك ما ورد عند أهل الكتاب .. عن معجزة أرسلت عليهم .. ضمن الآيات التي أرسلت على آل فرعون ..

قالوا :

« ثم قال الرب لموسى مُد يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر حتى يُلمس الظلام .

« فمد موسى يده نحـو السماء فكان ظـلام دامس في كل أرض مصر ثلاثة أيام .

« لم يبصر احد أخاه ولا قام احد من مكانه ثلاثة أيام .

« ولكن جميع بني اسرائيل كان لهم نور في مساكنهم .

« فدعا فرعون موسى وقال اذهبوا اعبدوا الرب .

« غير أن غنمكم وبقركم تبقى .

« اولادكم ايضاً تذهب معكم .

« فقال موسى انت تعطي ايضاً في أيدينا ذبائح ومُحرَقات لنصنعها للرب إلهنا .

« فتذهب مواشينا ايضاً معنا .

« لا يبقى ظِلف .

« لأننا منها نأخذ لعبادة الرب إلهنا .

« ونحن لا نعرف بماذا نعبد الرب حتى نأتي الى هناك .

« ولكن شدد الرب قلب فرعون فلم يشأ أن يطلقهم .

« وقال له فرعون اذهب عني .

« احترز .

« لا ترَ وجهي ايضا .

« انك يوم ترى وجهي تموت .

« فقال موسى نِعمّا قُلت .

« أنا لا أعود ارى وجهك ايضا » !..

وافترقا .. أما فرعون فقد هدد موسى تهديداً نهائيـــاً : انك يوم ترى وجهي تموت ؟!.

سوف أقتلك فوراً .. إذا رأيت وجهي !..

وأما موسى .: فقد رحّب أيما ترحيب .. بهذا التهديد : نعمّا قلت .. أنا لا أعود أرى وجهك أيضاً !.٠

افترقا .. فرعون .. ليذهب الى الهاوية ..

وموسى .. ينتظر أمر ربّه !..

صراخ عظيم ... في كل أرض ... مصر؟!...

قال تعالى :

« وأوحينا الى موسى أنْ أسْر بعبادي انكم مُتَّبعون » .

وقال سبحانه :

« فاسْر بعبادي ليلا انكم مُتَّبعون » .

صدر الأمر الإلهي .. « فاسْرِ بعبادي ليلا » ؟!.

ولكن !. كيف يستطيع موسى .. أن يخرج ببني إسرائيل جميعاً .. وقد كانوا نحو سبعمائة ألف .. أي شعباً ضخماً .. كيف يمكن له الخروج بهذا العدد الضخم .. وقد وضعهم فرعون جميعاً تحت الرقابة والتعذيب ؟..

ها هنـــا تتجلى بدائع التدبير الإلهي .. الذي غاب عن تفكير فرعون وهامان وجنودهما .. ويغيب عن تفكير كل بشر ..

فكيف كان ذلك التدبير العجيب ؟..

قال أهل الكتاب :

« فحدث في نصف الليل ان الرب ضرب كل بِكْر في أرض مصر من فرعون الجالس على كرسيه الى بكر الاسير الذي في السجن وكل بكر بهيمة .

« فقام فرعون ليلا هو وكل عبيده وجميع المصريين .

« وكان صراخ عظيم في مصر .

« لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميّت »

« فدعا موسى وهارون ليلا وقال قوموا اخرجوا من بين شعبي أنتما وبنو اسرائيل جميعاً »

« واذهبوا اعبدوا الرب كما تكلمتم »

« وباركوني أيضاً »

« والح المصريون على الشعب ليطلقوهم عاجلا من الارض »

« لأنهم قالوا جميعنا أموات » »

تدبير لا يخطر على قلب بشر .. انه تدبير الله !..

ان المجرم اللعين .. يتعالى كِبْراً .. ويأبى ..

وها هو بنفسه يقول لهم : قوموا .. اخرجوا من بين شعبي ؟..

فلماذا هذه المرة ؟..

لأن الضربة قاضية .. انه الموت يهددهم جميعاً .. في كل بيت مصري ميت أو أكثر .. من الناس .. ومن البهائم ..

ومَن يدري .. هذه الضربة .. قتلت البعض .. وأبقت البعض .. فربما الضربة القادمة .. تقتل الجميع من فرعون الى أقل الناس !..

« لأنهم قالوا جميعنا أموات » .. الحديث الدائر على أفواه المصريين جميعاً « جميعنا أموات » كلنا سوف نموت ..

والمجرمون إذا أيقنوا بالموت .. وتأكدوا أنه نازل بهم .. انهارت أعصابهم واستسلموا .. وهم أحقر من كل حقير ..

وهذا يفسر لنا .. لماذا دعا فرعون هذه المرة .. موسى وهارون .. ليلاً..

وقال لهما : قوموا .. اخرجوا .. من بين شعبي .. أنتما .. وبنو اسرائيل .. جميعاً ! . .

انه في حالة انهيار تام !..

انه يخشى أن يلحقه الموت .. وإذا مات .. فعلى أي شيء يقاوم ؟..

انه يقاوم .. ويقاوم .. ليبقى ملِكاً معبوداً مقدساً ..

أما وقد مات .. فما جدوى ذلك كله ؟..

هذه عقلية أولئك الفراعنة .. لا علاج لإجرامهم .. إلا الموت !..

منظر من المناظر الإلهية الفريدة .. وآية أخرى من آيات الله ..

في كل بيت مصري .. ميِّت .. وصراخ وولولة ..

يمكن أن يقال .. أكثر من مليون .. من الموتى .. في لحظة واحدة .. من الليل .. في كل بيت بلا استثناء من بيوت المصريين .. من قصر فرعون .. إلى أقل كوخ من أكواخ المصريين ..

فزع .. في الجميع ..

رعب .. في الجميع ..

صراخ عظيم .. في كل بيت ..

العظماء يبكون ويولولون .. والصعاليك يبكون ويولولون !..

« فانتقمنا منهم » !..

أما بنو إسرائيل .. فلم يمسسهم سوء .. آية أخرى !..

لقد ضحك آل فرعون طويلا .. وبكى بنو إسرائيل طويلا ..

فالآن يضحك بنو إسرائيل .. ويبكي آل فرعون طويلا !..

ثم ماذا ؟!.

ثم نقول : لقد كان تكتيك فرعون « سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون » !..

وها هو يُسقى من نفس الكأس .. التي كان يسقي منها أولئك المستضعفين .

ها هو .. يُقتَّل أبناؤه .. وأبناء المصريين جميعاً .. ويُستحيى نساؤهم .. فلماذا يفزع ويجزع ويهلع .. ولماذا الصراخ والعويل .. أليس هذا تكتيكه من قبل ؟.. أمن أجل أن الكأس قد دارت عليه .. فهو يتجرعه ولا يكاد يُسيغه .

اشرب أيها اللعين .. وليشرب معك أولئك الذين استخففت بعقولهم !..

وما ينتظركم .. مما لا يخطر على قلوبكم .. أدهى وأمَرّ !..

ثم ماذا ؟!.

قال أهل الكتاب :

« فحمل الشعب عجينهم قبل ان يختمر ومعاجنهم مصرورة في ثيابهم على أكتافهم .

« وفعل بنو اسرائيل بحسب قول موسى .

« طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا .

« وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم .

« فسلبوا المصريين .

« فارتحل بنو اسرائيل من رعمسيس الى سُكّوت نحو ست مائة ألف ماشٍ من الرجال عدا الاولاد .

« وصعد معهم لفيف كثير أيضا مع غنم وبقر مواشٍ وافرة جداً .

« وخبزوا العجين الذي أخرجوه من مصر خبز مَلّةٍ فطيراً إذ كان لم يختمر .

« لأنهم طُردوا من مصر ولم يقدروا ان يتأخروا .

« فلم يصنعوا لأنفسهم زاداً .

« وأما إقامة بني اسرائيل التي أقاموها في مصر فكانت أربع مائة وثلاثين سنة » .

وهكذا .. طُرد بنو إسرائيل .. من أرض مصر جميعاً ..

وكان الآمر بطردهم .. هـو فرعون .. الذي رفض مراراً .. الإذن لهم بالخروج !..

« وقال موسى للشعب اذكروا هذا اليوم الذي فيه خرجتم من مصر من بيت العبودية » .

وساروا في اتجاه خليج السويس .. في اتجاه البحر الأحمر ..

« فأدار الله الشعب في طريق بَرِّيَّة بحر سُوف » .

وكانت آية ..

تبعتها آية أكبر من أُختها !..

اضرب ... بعصاك ... البحر ؟!...

عاد اللعين ...

يستأسد من جديد !..

فبعد أن طرد بني إسرائيل جميعاً .. وخلت منهم البلاد .. وذهبوا بعيداً في الصحراء الشرقية .. في اتجاه خليج السويس .

استأسد مرة أخرى .. وقرر أن يعيدهم كما كانوا .. الى الذل والسخرة .. وليسترد منهم ما سلبوه من المصريين من ذهب وفضة .. ثم تكون فرصة يعلن فيها أنه ما زال مسيطراً على الأمور ..

فأعلن التعبئة العامة في البلاد .. ليتجمع له أكبر قوة ضاربة .. يطارد بها بني إسرائيل .. ويمزقهم شر ممزق .. ويعيد من بقي منهم أسيراً ذليلاً ..

« فأرسل فرعون في المدائن حاشرين .

« ان هؤلاء لشرذمة قليلون .

« وإنهم لنا لغائظون .

وإنا لجميعٌ حاذرون .

« فأخرجناهم مِن جنّاتٍ وعيونٍ » .

« لشرذمة قليلون » طائفة قليلة .. حقيرة .. حفنة من الشعب !..

« لنا لغائظون » لنا جميعاً .. فقد تسببوا في قتل وموت من كل بيت في مصر .. ثم نهبوا مجوهرات المصريات وهربوا بها ..

« وإنّا لجميع حاذرون » مُعِدُّون .. والحاذر الذي يجدد حذره .. وهو تام السلاح .. لأنه فعل ذلك حذراً واحتياطاً لنفسه ..

لقد عاد اللعين ينتفخ مرة أخرى !..

وخرج فرعون على رأس جيشه .. وقيل انه حشد سبعمائة ألف فارس .. يقودهم هامان .. وفرعون يسير خلف الجيش ..

وعند أهل الكتاب :

« فلما أُخبر ملك مصر ان الشعب قد هرب تغيَّر قلب فرعون وعبيده على الشعب .

« فقالوا ماذا فعلنا حتى اطلقنا اسرائيل من خدمتنا .

« فشد مركبته وأخذ قومه معه .

« وأخذ ست مائة مركبة منتخبة وسائر مركبات مصر وجنوداً مركبية على جميعها .

هذا هو تفصيل ذلك المشهد العجيب .. عند أهل الكتاب ..

« وشد الرب قلب فرعون ملك مصر حتى سعى وراء بني اسرائيل وبنو اسرائيل خارجون بيد رفيعة .

« فسعى المصريون وراءهم وأدركوهم .

« جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه وهم نازلون عند البحر .

« فلما اقترب فرعون رفع بنو اسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون وراءهم .

« ففزعوا جداً وصرخ بنو اسرائيل الى الرب .

« وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية .

« ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر .

« أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين ُكفَّ عنا فنخدم المصريين .

« لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من ان نموت في البرية .

« فقال موسى للشعب لا تخافوا .

« قِفوا وانظروا خلاص الرب الذي يصنعه لكم اليوم .

« فانه كما رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم أيضاً الى الأبد .

« الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون .

« فقال الرب لموسى مالك تصرخ إليّ .

« قل لبني اسرائيل ان يرحلوا .

« وارفع انت عصاك ومُد يدك على البحر وشقه .

« فيدخل بنو اسرائيل في وسط البحر على اليابسة .

« وها أنا ُأشدد قلوب المصريين حتى يدخلوا وراءهم .

« فأتمجد بفرعون وكل جيشه بمركباته وفرسانه .

« فيعرف المصريون أني أنا الرب حين أتمجد بفرعون ومركباته وفرسانه .

« فانتقل ملاك الله السائر أمام عسكر اسرائيل وسار وراءهم وانتقل عمود السحاب من أمامهم ووقف وراءهم .

« فدخل بين عسكر المصريين وعسكر اسرائيل وصار السحاب والظلام وأضاء الليل .

« فلم يقترب هذا الى ذاك كل الليل .

« ومد موسى يده على البحر .

« فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء .

« فدخل بنو اسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سورٌ لهم عن يمينهم وعن يسارهم .

« وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم .

« جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه الى وسط البحر .

« وكان في هزيع الصبح ان الرب أشرف على عسكر المصريين في عمود النار والسحاب وأزعج عسكر المصريين .

« وخلع بكر مركباتهم حتى ساقوها بثقلة .

« فقال المصريون نهرب من اسرائيل .

« لأن الرب يقاتل المصريين عنهم .

« فقال الرب لموسى مُد يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم .

« فمد موسى يده على البحر فرجع البحر عند اقبال الصبح الى حاله الدائمة والمصريون هاربون الى لقائه .

« فدفع الرب المصريين في وسط البحر .

« فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر .

« لم يبق منهم ولا واحد .

« واما بنو اسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم .

« فخلّص الرب في ذلك اليوم اسرائيل من يد المصريين .

« ونظر اسرائيل المصريين أمواتاً على شاطىء البحر .

« ورأى اسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين .

« فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعبده موسى » .

ولما كان كتاب الله العظيم .. القرآن الكريم .. هو المهيمن على ما سبقه من كتاب .. وهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. كان التأمل فيما ورد فيه .. أو في بعض ما ورد به عن ذلـــك المشهد .. يُثبت الفؤاد .. ويطمئن القلوب ..

« ولقد أوحينا الى موسى أن أسْرِ بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دَرَكا ولا تخشى .

« فأتبَعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم .

« وأضل فرعون قومه وما هَدَى » .

وقال تعالى في الشعراء :

« فاتبعوهم مُشرقين .

« فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدْركون .

« قال كلا ان معي ربي سيهدين .

« فاوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فِرْق كالطود العظيم .

« وأزلفنا ثم الآخرين .

« وانجينا موسى ومن معه أجمعين .

« ثم اغرقنا الآخرين .

« ان في ذلك لآية وما كانوا اكثرهم مؤمنين .

« وان ربك لهو العزيز الرحيم » .

وفي سورة القصص :

« فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » .

وفي سورة الزخرُف :

« فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين » .

وفي سورة الدخان :

« فاسْر بعبادي ليلا انكم مُتبعون .

« واترك البحر رهواً انهم جندٌ مُغرقون » .

وفي سورة الذاريات :

« فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مُليمٌ » .

« رَهواً » ساكناً .. حتى يتم دخول فرعون وجنوده بداخله .. لا تتعجل التئامه الآن !..

وهكذا ذهب الطاغية .. مَدعِي الربوبية والألوهية .. الكاذب .. المخادع .. الجبار العنيد ..

وابتلعه البحر .. هو وجنوده أجمعين ..

وكان منظر أخيراً .. يثير الضحك .. وهو يحاول عند الغرق .. أن يخادع .. لينجو من الموت المحقق !..

الآن ... وقد عصيت قبل ...
وكنت من المفسدين ؟!...

آخر ألعوبة ...

لعبها اللعين .. أنه حاول أن يخادع ويداور كعادته :

« **وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعَدْواً حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين** ».

« **الان وقد عصيت قبلُ وكنت من المفسدين** ».

« **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون** » !..

المذكور يريد أن يلعب ألعوبة من الاعيبه التي تعوَّد أن يلعبها مع أغبياء شعبه ..

لقد ضحك على موسى أكثر من مرة .. ووعده ليؤمنن به إن هو كشف عنه العذاب .. ثم يغدر في كل مرة ..

فلماذا لا يلعب تلك اللعبة هـذه المرة .. ويخرج من ورطة الغرق .. ثم يعود فيغدر ؟!.

« **حتى إذا أدركه الغرق** » تحقق أنه غارق لا محالة ..

« **قال** » مخادعاً ..

« **آمنتُ** » صدقت وتحققت .. **أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل** »

لم يقل لا إله إلا الله .. على إطلاقها .. وإنما إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل .. انه يريد هذا الإله الذي يفعل العجائب لبني إسرائيل .. فلعله يُصَدِّق أنه آمن به .. فينجيه من الغرق !.. ثم يكون له موقف آخـــر بعد إفلاته من الموت .. وكأنه قد شك أن يكون إله بني اسرائيل غير مصدق لـما يقول .. فأكَّد قوله ..

« وأنا من المسلمين » وأنا من المسلمين لكَ يا إله بـــني اسرائيل .. فقط نجِّني هذه المرة .. صدِّقني !.

كذلك يفكر المجرم .. كأنما هو يخاطب بشراً فهو يخادعه !..

الآن ؟ ! .

كلا أيها الحقير .. ثم كلا .. ما كان الله ليُخدع .. وإنما استدرجناك ها هنا وجميع قواتك المسلحة . وجميـــع من حشدتهم .. لنُنكِّل بك نكالاً .. ونريك أنك أيها الكاذب المكذب .. أحقر من أن تضاد إرادتنا .. وإنما تركناك قليلاً لعلك تعقل .. فما ازددت إلا إجراماً .. فالآن ذُق .. عذاب الخزي والهوان والعار .. الآن تعلم أنا أم أنت .. إرادتي أم إرادتك ..

أيها الدعيّ .. الآن نجردك من كل شيء آتيناك إياه .. وتعود الينا فرداً !.

الآن ؟ ! .

جمالها رفيع منيع جميع .. الآن ؟!. تريد أن تلعب مرة أخـــرى .. كلا ثم كلا ..

« وقد عصيتَ قبلُ » لم يصدر عنك خير قط .. وإنما سلسلة متواصلة من الإجرام .. والاستعلاء .. والاستكبار ..

« وكنت من المفسدين » حياتك كلها إفساد وفساد .. فلا بد من استئصالك أيها الجرثومة العفنة !..

« فاليوم » فالآن نغرقك .. ومن معك ..

« نُنَـجّيك » نأمر البحر بإلقائك جيفة منتنة على شاطئه ..

« ببدنك » بجسمك النجس ..

« لتكون لمن خَلفَـك آية » لمن يبقى بعدك الى يوم القيامة .. برهاناً ودليلاً على قدرتنا .. ويراك هؤلاء الذين استضعفتهم جثة هامدة أمام عيونهم !..

وفشلت ألعوبة اللعين هذه المرة .. وألقى البحر جثته الى الشاطىء .. ضمن ألوف الجثث التي ألقاها !..

« **فجعلناهم سلفاً** » ماضياً .. فيه عبرة لكل من تفكر فيه ..

« **ومثلاً للآخرين** » ها هـــو فرعون .. الرب .. الإله .. الذي استعبد شعبه كله بجبروته .. وأذلّ شعب بني إسرائيل كله بإجرامه .. ها هو أمامكم جثة منتنة !..

واتبعوا ... في هذه لعنة ...
ويوم القيامة ؟!...

قلنا من قبل ...

أن قصة موسى .. وفرعون .. هي أضخم قصة في التاريخ .. تمثل أضخم صراع خالد .. بين الحق ممثلاً في موسى .. والباطل ممثلاً في فرعون ..

ويزيدها ضخامة وفخامة .. أن موسى يقود شعباً يريد الله أن يعبده .. وفرعون يريد منع هذا الشعب من عبادة ربه ..

وأن فرعون يمنع شعبين من الاتجاه الصحيح .. يمنع المصريين أن يكونوا بشراً « ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » ..

ويمنع شعب بني إسرائيل .. أن يعبدو ربهم ..

فإجرامه ذو شعبتين خبيثتين.. إماتة شعبه .. وإماتة شعب بني اسرائيل .

ويزيده إجراماً على إجرامه .. أنه يضـــاد الله .. وينازعه الربوبية والألوهية « أنا ربكم الأعلى » .. « ما علمت لكم من إله غيري » !..

ثم يزداد كفراً على كفر .. حين يزعم لمن تحته أنه صاعد الى إله موسى .. فيقتله إن وجده !..

« فاطلع الى إله موسى » !..

مثل هذا الكائن العفن المتعفن .. المجرم المركب الإجرام ..

يعتبر أخطر كائن إذا صار حاكماً !..

لأنه يُسخّر الإمكانيات التي تحت يده لنشر هـــذه الأكذوبة الكبرى وتركيزها في عقول الناس ..

وهذا ما فعله المجرم الأكبر !..

نطق بأقبح منطوق « أنا ربكم الأعلى » .. « وما علمت لـــكم من إله غيري » .. « لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين » !..

وفعل أقبح الأفاعيل « سنقتل أبناءهم .. ونستحيي نساءهم » ..

وارتكب أقبح قبائح الإجرام « لأصلبنكم أجمعين » !..

وقتل زوجته أقبح قتلة !..

وقتل ماشطة ابنته أبشع قتلة !..

ولو قد ظفر بموسى .. لقتله أقبح القتل !..

فحقيقة هذا التركيب الفرعوني .. أنه قبيح الاعتقاد .. قبيح الفساد .. قبيح التنكيل بالعباد !..

ولما كان الجزاء من جنس الاعتقاد .. وجنس العمل ..

كان جزاؤه :

« وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة »

« ويوم القيامة هم من المقبوحين » ؟!.

المقبوحين ؟!.

تأمل .. حقيقتهم تظهر آنذاك عياناً .. فهم أقبح أهل النـــار وجوهاً .. وأحوالاً !..

ولما كان فرعون دائب العمل على إبعاد الناس عن ربهم ..

كان جزاؤه من جنس العمل الذي كان يعمل ..

أن يكون الناس الى يوم القيامة .. دائبين الدعاء لإبعاده عن ربه:

« وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة » !..

لعنة ؟ ! .

إبعاداً عن رحمتنا .. الناس جميعاً يدعون ربهم أن يبعدهم عن رحمته .. أي يلعنوهم دائماً !..

ولما كان مكر فرعون الليل والنهار .. كيف يتفنن في تعذيب بني إسرائيل وإرهاقهم وإذلالهم ..

كان الجزاء من جنس العمل ..

« وحاق بآل فرعون سوء العذاب .

« النار يُعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخِلوا آل فرعون أشد العذاب » ..

عدل مطلق .. وهذه بتلك !..

كان عمله **« يسومونكم سوء العذاب » ..**

فكان جزاؤه **« أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » ؟!.**

وكان يقول للسحرة « أيُّنا أشد عذابا وأبقى » ..

فكان جزاؤه **« أشد العذاب » !..**

بل أعجب من هذا .. انهم هم أنفسهم يقررون أن الله قد حكم الحكم العدل فيهم :

« قال الذين استكبروا إنا كلٌّ فيها .

« ان الله قد حكم بين العباد » ..

وأخرى أعجب وأعجب !..

أن حقيقة كل إنسان .. ستظهر عياناً .. هناك .. ويكشف عنها الغطاء ..

« يَقْدُمُ قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الوِرْدُ المورود » .

كان المذكور يريد أن يكون دائماً هو القائد الأعلى ..

انه مصـــاب بجنون العظمة .. وجنون الفردية .. وجنون الأنا « أنا ربكم الاعلى » ..

حقيقته أنه يريد دائماً أن يكون عالياً « وإن فرعون لعال في الارض » ..

وأن يكون دائماً هو الرئيس وهو القائد الأوحد ..

فهنالك تلك الحقيقة عياناً ..

« يَقْدُم قومه » هو قائد عام .. شعبه .. يسير وهم من ورائه .. كما كانوا يسيرون في الدنيا .. ويقودهم إلى النار !..

يا موسى ... اجعل لنا إلهاً ...
كما لهم آلهة ؟!...

الحرية ... قبل الايمان ...

فمن لا حرية له .. لا إيمان له !..

فالحرية هي المناخ الحتمي .. لنمو شجرة الإيمان الطيبة ..

فإذا فقد الإنسان حريته .. ذبلت شجرة إيمانه .. ثم ماتت !..

ومن هنا كانت مهمة موسى أولاً .. هو تحرير ذلـــك الشعب المستعبد .. ورفع يد فرعون عنه .. « أطلِق شعبي ليعبدوني » .. لا بد من إطلاقهم أولاً .. من منحهم الحرية أولاً .. ثم بعد هذا يمكنهم أن يؤمنوا بي .. ويعبدوني !..

ومن هنا .. كان هدف الاستعمار الأول .. حين اجتاح دول الإسلام هو سلب حريتهم ..

ومتى سلب حريتهم .. فقد سلب إيمانهم !..

لأن الحرية للإيمان .. كالهواء للإنسان ..

فإذا كان ممكناً أن يعيش الإنسان بلا هواء .. أمكن أن يؤمن بلا حرية !..

والاستعمار بشتى أنواعه .. يعلم تلك القضية ..

ولذلك ركـّز على سلب حـــرية المسلمين السياسية .. فتحقق له سلب إيمانهم بالتبعية !..

فليفهم هذا الأغبياء .. من المؤمنين والمؤمنات !..

انهم لا يمنعون الكهنوت .. فليتعبد المسلمون ما شاءوا .. ولكنهم يمنعون عنهم الحرية .. وسلام على الإيمان بعد ذلك !..

ولذلك كان أول صراخ لموسى في وجه فرعون « **فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم** » .

اطلق أيها المجرم هؤلاء .. وارفع عنهم يدك المغلولة !..

وكان فرعون دائما يأبى .. شأنه شأن كل مستعمر أثيم .. يأبى أن يمنح الحرية لمن تحت يده من الدول والشعوب !..

حتى كانت البطشة الكبرى .. التي فكت يده عن ذلك الشعب .. « **فأغرقناهم أجمعين** » !..

وانتهت بذلك مهمة موسى الأولى .. مهمة تحرير الشعب ..

وبدأ المهمة الثانية .. مهمة إعادة الإيمان الصحيح إلى ذلك الشعب .. الذي فقد ايمانه تحت طول الاستعباد .. وطول الذل والمهانة والعذاب ..

خرج موسى من البحر بشعب شبه ميت ..

يحمل في تركيبه .. عفونات الذل .. ومخاوف المهانة .. لا يصدق أن فرعون قد مات ..

حتى قذفه البحر جيفة أمام عينيه ..

ومن هنا لقي موسى من شعبه من الأذى .. أكثر مما لقي من فرعون وقومه ..

ذلك أن فرعون كافر صريح .. يضاد موسى في وضوح .. فمقاومته أيسر .

أما هؤلاء .. فهم بقايا شبه موتى ..

مطلوب منه تطهيرهم .. وتعليمهم .. وترقيتهم .. وردهم إلى حقائق الإيمان ..

وها هنا الصعوبة العظمى .. والمهمة المثلى لموسى وهارون !..

وإليك أول مشكلة واجهته .. وكان نباتهـــا .. من آثار ما ألفوا من الذل والمهانة !..

« وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون »

« ان هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون »

« قال أغيرَ الله أبغيكم إلهاً وهو فضّلكم على العالمين » ؟!.

« وجاوزنا » قطعنا ..

« يعكفون » يقيمون عليها معظمين .. كما يقيم العاكفون في المساجد ..

« اجعل لنا إلهاً » صنماً .. نتخذه إلهاً كما لهؤلاء ..

« مُتَبَّرٌ » مُهلكٌ ومُخسَّرٌ ..

« أغير الله » أسوَى الله ..

« أبغيكم » ألتمس لكم إلهاً ..

« على العالمين » على الخلْق ..

أخرجهم من البحر بمعجزة .. وأغرق فرعون وجيشه بمعجزة .. وأنقذهم من تعذيب فرعون .. وأنجـــاهم وهم يحملون كل ما لهم .. وما سلبوه من المصريين ..

معجزات تترى أمام أعينهم ..

ودلائل القدرة .. تتنزل عليهم بلا توقف ..

ولكن وما ورثوا في تركيبهم من عفونات الذلة الطويلة .. غلب عليهم .. فسرعان ما نسوا عجائب قدرة الله .. وصنائعه معهم .. ففاجأوا موسى بهذا المطلب الذي يدل على جهالة مركبة .. وعفونة معقدة !..

اجعل لنا إلهاً .. كما لهم آلهة ؟!.

اجعل لنا صنماً .. كما لهم أصنام ؟!.

شيء عجيب .. كأن موسى ينادي في موتى .. طيلة هـــذه السنين التي قضاها بينهم في مصر . ثم في صحراء سيناء من بعد !..

وهذا ما يؤكد .. أن فقدهم للحرية .. سنين طويلة .. أفقدهم القدرة على التفكير السليم ..

ونطقوا بتلك الجهالة القبيحة « اجعل لنا إلهاً .. كما لهم آلهة » !..

وثار موسى ثورة كبرى « إنكم قوم تجهلون » .. وأي جهـــل هو أعظم مما يقولون ؟!.

ثم جعل موسى يشرح لهم لعلهم يفهمون ..

ان هؤلاء .. الذين اتخذوا الأصنام ..

مُتَبَّرٌ .. مُهلَكٌ ..

ما هم فيه .. كل ما يصنعون ويفعلون ..

وباطلٌ .. ووهمٌ .. وخرافة .. وجهل ..

ما كانوا يعملون .. كل ما عملوا في حياتهم .. لا وزن له عند الله .. وسوف يؤاخذهم عليه ..

ثم صاح فيهم .. ليهزّ أعماقهم :

« أغيرَ الله أبغيكم إلهاً » .. كيف ألتمس لكم إلهـاً غير الله .. الذي لا إله سواه ؟!. أفلا تعقلون ؟!.

ثم تنزّل الى عقولهم الجوفاء .. وذكّرهم بإنعاماته تعالى عليهم .. فإن لم يستطيعوا إدراك التوحيد .. فليدركوا أن إلههم هو الذي أنعم عليهم ..

وأنقذهم من عذاب فرعون .. فليعبدوه لإنعامه .. إن لم يعبدوه لذاته .. فقال لهم : « وهو فضّلكم على العالمين » ؟!.

تتركون الإله الذي رفع خستكم .. من أسفل سافلين .. إلى أعلى عليين ..

الذي رفعكم من أحقر الأوضاع الاجتماعية .. من الذل والسخرة والاستعباد الى الحرية التامة .. بل الى ما لم يرفع اليه أمة من الأمم في عصركم هذا « فضلكم على العالمين » .. لم يكتف باستنقاذكم من عدوكم .. بل أهلكه أمام أعينكم .. ثم بالغ في إكرامكم .. ففضلكم على جميع الأمم في عصركم !..

هكذا .. صنع بكم .. من أذل الأذلين .. الى أعز الأعزين !..

ثم يبلغ بكم الجهل .. أن تطلبوا بعد هـــذا كله أن يكون لكم صنم تعبدوه !..

هذه مشكلة أولى .. واجهت موسى .. بعد أن عبر ببني إسرائيل البحر .

ضربة في أصول التوحيد ..

فعالجها موسى علاج الأنبياء !..

اضرب ... بعصاك ... الحجر ؟!...

طلبوا إليه الماء ...

حيث لا ماء في صحراء سيناء ..

فكانت معجزة أخرى !..

« وإذ استسقى موسى لقومه .

« فقلنا اضرب بعصاك الحجر .

« فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً .

« قد علم كل أُناس مَشربهم .

« كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوْا في الأرض مفسدين » .

وفي موضع آخر .. من الكتاب الكريم :

« وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً وأوحينا الى موسى إذ استسقاه قومه ان اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مَشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

« وقطّعناهم » يعني : قوم موسى من بني اسرائيل ، فرّقهم الله فجعلهم ..

« اثنتي عشرة » قبيلة ..

« أمماً » جماعات ..

« فانبجست » انصبّت وانفجرت ..

« كل أناس » من الأسباط الاثني عشر ..

« مشربهم » لا يدخل سَبط على سبط في مشربه ..

« وظللنا عليهم الغمام » صار عليهم الغمام ظِلاً يكنفهم من الشمس وأذاها .

تنظيم إلهي .. فريد عجيب ..

أسباط بني اسرائيل اثنتا عشرة ..

العيون اثنتا عشرة عيناً ..

لكل سبط عينه التي يشرب منها ..

ومعلوم أن عدد كل سبط بالألوف من الأفراد .. عشرات الألوف ..

كما نظمهم عند عبور البحر .. وجعل لكل سبط طريقه ..

فهل انتهت المطالب عند الماء ؟.

كلا .. فأين الطعام .. وهذه صحراء .. لا طعام فيها ولا ماء ؟!.

وأنزلنا عليكم ... المن ... والسلوى ؟!...

قال تعالى :

« وأنزلنا عليهم المن والسلوى .

« كلوا من طيبات ما رزقناكم » . .

قال أهل الكتاب :

« فتذمّر كل جماعة بني اسرائيل على موسى وهارون في البرية .

« وقال لهما بنو اسرائيل ليتنا مِتنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع .

« فانكما أخرجتمانا الى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع .

« فقال الرب لموسى ها أنا أمطر لكم خبزاً من السماء .

« فيخرج الشعب ويلتقطون حاجة اليوم بيومها .

« لكي أمتحنهم ايسلكون في ناموسى أم لا » . .

ثم قالوا :

« فكلم الرب موسى قائلا :

« سمعت تذمر بني اسرائيل .

« كلمهم قائلا في العشية تأكلون لحما وفي الصباح تشبعون خبزاً .

« وتعلمون أني انا الرب إلهكم .

« فكان في المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة .

« وفي الصباح كان سقيط الندى حوالي المحلة .

« ولما ارتفع سقيط الندى إذا على وجـــه الأرض البرية شيء دقيق مثل قشور .

« دقيقٌ كالجليد على الارض .

« فلما رأى بنو اسرائيل قالوا بعضهم لبعض من هو .

« لأنهم لم يعرفوا ما هو .

« فقال لهم موسى هو الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا .

« هذا هو الشيء الذي أمر به الرب .

« التقطوا منه كل واحد على حسب أكله .

« ففعل بنو اسرائيل هكذا والتقطوا بين مكثر ومقلل . .

« وقال لهم موسى لا يُبقِ أحد منه الى الصباح .

« لكنهم لم يسمعوا لموسى بل أبقى منه أناس الى الصباح .

« فتولّد فيه دود وأنتن .

« فسخط عليهم موسى .

« وكانوا يلتقطونه صباحا فصباحا كل واحد على حسب أكله .

« وإذا حميت الشمس كان يذوب » . .

وقالوا :

« ودعا بيت اسرائيل اسمه مَنًّا .

« وهو كبزر الكزبرة أبيض وطعمه كرقاق بعسل » . .

« واكل بنو اسرائيل المن أربعين سنة حتى جاءوا الى أرض عامرة » .

هذا ما عند .. أو بعض ما عند أهل الكتاب .. عن قصة المن والسلوى ..

وإنها لقصة عريضة .. أربعون سنة يأكلون المن والسلوى ..

والمن كما رأينا .. يمكن أن يقال هو فطير لذيذ حلو ..

والسلوى .. هو طيور السُّماني ..

فطير محلى بالعسل ..

ولحم طير جميل ..

فهو طعام كامل لذيذ ..

ولكن نفوسهم تاقت الى الأطعمة المصرية الشعبية .. وعافت هـذا الطعام الواحد :

« وإذ قلتم يا موسى .

« لن نصبر على طعام واحد .

« فادع لنا ربك .

« يخرج لنا مما تنبت الأرض .

« من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها .

« قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير .

« اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم .

« وضربت عليهم الذلة والمسكنة .

« وباءو بغضب من الله » ..

والأطعمة الشعبية التي ألفوها في مصر .. ونبتت لحومهم وعظامهم منها ..

من بقلها .. البقول المختلفة ..

وقثائها .. القثاء .. والشمام والبطيخ والخيار ..

وفومها .. الثوم المصري ..

وعدسها .. العدس الطعام المصري الشعبي ..

وبصلها .. البصل الأخضر والجاف ..

حنين شديد الى الأطعمة المصرية ..

لن نصبر على طعام واحد .. كرهت نفوسنا هذا الفطير وهذا اللحم .. نريد التغيير يا موسى !..

انها طبيعة الإنسان .. لو أقمته في جنة .. لكرهها وطلب غيرها !..

وظللنا ... عليكم ... الغمام ؟!...

معجزة أخرى ...

سيناء شديدة الحرارة .. ولا ظل ولا ماء ولا طعام ..

أما الماء فقد توفر لهم ..

وأما الطعام فقد جاءهم يوماً بيوم ..

بقيت مشكلة الشمس الحارقة ..

وها هنا كانت معجزة :

« وظللنا عليكم الغمام » ..

« الغمام » ما غمّ السماء .. وغطى وجهها عن الناظرين .. سحاب أو ما أشبهه ..

وهو مشهد من المشاهد الإلهية الجميلة .. ومعجزة من المعجزات الخالدة !..

شعب ضخم .. مئات الألوف .. يظلله أينما كان من صحراء سيناء .. الغمام.

فتراهم في ظل ظليل .. والشمس الحارقة فوقهم ومن حولهم ..

منتهى الرحمة .. ومنتهى اللطف .. إن ربي لطيف لما يشاء !..

وهكذا .. تم توفير عناصر الحياة الرئيسية لهم .. الطعام .. الشراب .. الظلّ ! ..

ربِّ ... أرني ... أنظر إليك ؟!...

الكلـــيم ...

صلى الله على نبينا .. وعليه .. وسلم ..

له مقامات لا تحصى ..

لأنه في كل طرفة عين .. يُرقى ثم يرقى ..

ونحن الآن أمام مقام من تلك المقامات العُلى .. قال تعالى :

« وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه اربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين.

« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر اليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخرّ موسى صَعِقا فلما افاق قال سبحانك تُبت اليك وأنا اول المؤمنين .

« قال يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين .

« وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأُوريكم دار الفاسقين .

« سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين .

« والذين كذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت اعمالهم هل يُجزون إلا ما كانوا يعملون » .

اللهم ان الأمر فوق طاقتي .. فهب لي .. من لدنك فهماً .. وعلمني من لدنك علماً !..

ماذا أقول .. أو ماذا أستطيع أن أقول ؟!.

اليك أولاً .. شيئاً مما قال المفسرون :

« وواعدنا موسى ثلاثين ليلة » يصومها متواصلات .. لا يأكل فيها ولا يشرب .. ثلاثين ليلة بنهارهن ..

« وأتممناها بعشر » عشرة أيام يصومها متواصلات .. لنتم عليه نعمتنا .. ويزداد رُقياً واستعداداً لتلقى كلامنا ووحينا .

« فتم ميقات ربه أربعين ليلة » صائماً عن الطعام والشراب ..

فتمّ .. كَمُلَ .

ميقات ربه .. الوقت الذي وعد الله موسى – عليه السلام –

« وقال موسى لأخيه هارون اخلفني » صر خليفتي .. كن نائباً عني ..

« في قومي » في جميع بني إسرائيل ..

« وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » الذين يفسدون عقائد الضعفاء ..

« ولما جاء موسى لميقاتنا » للموعد الذي حددناه ..

« وكلمه ربه « أي كلم معه لسان مرتبته التي قد حصل له عند الله .. وانكشف بها من الله .. إذ لكل ذرة من ذرائر المظاهر مرتبة خاصة .. وظن مخصوص .. وانكشاف مستقل بالنسبة إلى الله .. لذلك قال سبحانه أنا عند ظن عبدي بي ..

« وأعلى المراتب وأبهاها مرتبة النبوة والرسالة .. مع تفاوت طبقاتها .. ثم الأمثل فالأمثل ..

ثم لما انبسط موسى مع ربه .. وانكشف له من ربه ما انكشف .. بحيث سمع كلامه من جميع الجوانب والجهـــات .. بلا وسيلة آلة وواسطة من مَلك وغيرها .. وبلا تلفظ كلمة حاصلة من تراكيب الحروف الحاصلة من تقطيع الأصوات .. قـــد اضطرب حينئذ موسى ووله وارتعد .. ومن غاية ولهه وسكره تسارع الى انكشاف أجلى منه وأكشف حيث ..

« قال » بعد سماع كلام الحق .. لا على الوجه المتعارف المعهود .. وانجذابه نحوه انجذابا لا على الوجه المعتاد ..

« ربِّ » يا رب ..

« أرني » ذاتك .. التي قد تنزهت عن المقابلة والمحاذاة والمماثلة والمحاكاة .. كما أسمعتني كلامك المنزه عن ترتيب الكلمات .. وتقاطع الحروف والأصوات ..

« أنظر اليك » ببصري كما سمعت كلامك بسمعي ..

« قال » سبحانه ..

« لن تراني » يا موسى .. ما دمت في جلباب تعينك .. وغشاوة هويتك ..

« ولكن » ان أردت أن تعرف استعدادك لرؤيتي ..

« انظر الى الجبل » حين تجليت عليها بهويتي .. المسقطة للهويات مطلقاً ..

« فإن استقر » وثبت عندك انه تمكّن ..

« مكانه » بعد ما أتجلى عليه بذاتي .. أي بقي هو على هويته التي هو فيها قبل التجلي ..

« فسوف تراني » أي فيمكن لك حينئذ أن تراني بهويتك ..

« فلما تجلى ربه للجبل » حسب أوصافه القهرية الجلالية ..

« جعله دكا » مدكوكا .. مفتتاً .. متلاشياً .. كأنه لم يكن شيئاً مذكوراً وبالجملة قد اضمحلت تعيناته الباطلة مطلقاً .. ورجع الى ما كان عليه من العدم واللاشيء المحض ..

« و » بعد ما رأى من قدرة الله ما رأى ..

« خرّ » وسقط ..

« موسى » الكليم .. بعد ما نظر نحوه ولم يره ..

« صعقاً » حائراً .. هائماً .. قلقاً .. مغشياً عليه .. كأنه انفصل عنه لوازم هويته مطلقاً ..

« فلما أفاق » موسى عن ولهه وسكره .. وانكشف من ربه بما انكشف .. من أنه لا يرى الله إلا الله .. ولا يعرف الله إلا الله .. ولا ينظر نحوه إلا عينه .. ولا يدرك ذاته إلا ذاته ..

« قال » مستحيياً .. منيباً .. خائفاً .. مستنزهاً ..

« سبحانك » انزهك تنزيهاً بليغاً .. وأقدسك تقديساً متناهياً .. من أن يحيط بك وبأسمائك وصفاتك أحد من مصنوعاتك ..

« تبت » ورجعت ..

« اليك » يا ربي » مما اجترأت من سؤال ما ليس في وسعي وطاقتي ..

« و » بعد ما عرفتك الآن يا ربي .. عرفاناً أكمل .. وانكشفت منك انكشافاً أتم .. بحيث لم انكشف مثله من قبل ..

« أنا أول المؤمنين » الموقنين .. بعظمتك وجلالك .. إذ لا اعتداد لإيماني بك من قبل ..

« ثم لما استحيى موسى من الله .. وندم عن سؤاله بلا استئذان منه سبحانه

تغمم وتحزن حزناً بليغاً من اجترائه بما ليس في وسعه .. أزال سبحانه اشفاقاً له .. ما عرض عليه من الندم والخجل حيث ..

« قال » سبحانه منادياً له ..

« يا موسى » المستخلف مني ..

« إني » بمقتضى حولي وقوتي .. وحسب اختياري وإرادتي قد ..

« اصطفيتك » واخترتك من بين الناس وبعثتك ..

« على الناس برسالاتي » وبحمل أحكامي وأوامري وتذكيراتي .. حتى توصلها إلى عبادي .. نيابة عني ..

« و » قد خصصتك من بين الرسل ..

« بكلامي » أي بسماعه .. بلا كيف وحرف .. وبلا واسطة سفير .. مَلَك ..

« فخذ ما آتيتك » تفضلاً عليك .. بقدر وسعك واستعدادك .. ولا تبادر إلى سؤال ما لا طاقة لك به .. ولا يسع في وسعك الاستكشاف عنه ..

« وكن من الشاكرين » لنعمنا الواصلة اليك .. واصرفها على الوجه الذي أمرناك به من المصارف .. ووفقناك عليه .. ولا تكن من الكافرين لنعمائنا المنصرفين عن أوامرنا وأحكامنا .. لتفوز منا بالرضا .. الذي هو أحسن أحوال أرباب الكشف والشهود ..

« و » من جملة اصطفائنا له .. وإنعامنا إياه .. انا قد ..

« كتبنا له » وأثبتنا لأجل تربيته وإرشاده ..

« في الألواح » أي ألواح التوراة[1] ..

---

(١) هذا ما ذهب اليه صاحب التفسير ...

« من كل شيء » يتعلق بتهذيب الظاهر والباطن ..

« موعظة » تذكرة وتبياناً يتعظ بها هو ومن تبعه ..

« وتفصيلاً » وتوضيحاً وتبييناً متعلقاً ..

« لكل شيء » أي لكل حكم من الأحكام المتعلقة بأمور معاشهم ..

« فخُذها » أي فقلنا له خذها .. أيها الداعي للخلق الى الحق ...

« بقوة » عزيمة صادقة وجزم خالص ..

« وأمُر قومك » أيضاً ..

« يأخذوا بأحسنها » يعني بعزائمها دون رخصها .. حتى تستعد نفوسهم لأن يفيض عليها المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات .. التي هي عبارة عن الجنة المأوى .. والفردوس الأعلى .. والرتبة العليا .. عند العارف المحقق .. ولا يميلوا عنها وعن أحكامها حتى لا يلحقوا بزمرة الفساق المنحطين عن رتبة الخلافة الإنسانية .. وبالجملة ..

« سأُريكم » في النشأة الأخرى .. أيها المائلون عن مقتضى الأحكام الإلهية التي هي صراط الله الأقوم ..

« دار الفاسقين » التي هي عبارة عن جهنم الحرمان .. وجحيم الخذلان .. وسعير الخيبة والخسران ..

ثم قال سبحانه :

« سأصرف » اميل واغفل ..

« عن آياتي » الظاهرة في الآفاق والأنفس .. الدالة على توحيدي واستقلالي في عموم التصرفات الكائنة في الآفاق .. والتدابير الجارية فيها .. بالاستقلال والاستحقاق القوم ..

« الذين يتكبرون » ويمشون خيلاء ..

« في الأرض » وهم يظلمون عليها ..

« بغير الحق » لخبث طينتهم ورداءة فطرتهم .

« و » هم من نهاية جهلهم المركوز في جبلتهم ..

« أن يروا كل آية » دالة على الصدق والصواب ..

« لا يؤمنوا بها » عتواً وعناداً ..

« و » بالجملة ..

« أن يروا سبيل الرشد » والهداية ..

« لا يتخذوه سبيلا » لعدم موافقة طباعهم إياه ..

« وأن يروا سبيل الغيّ » والضلال ..

« يتخذوه سبيلا » لميل نفوسهم نحوه بالطبع ..

« ذلك » أي الصرف والانحراف العارض لهم والأهوية الباطلة والآراء الفاسدة كلها ..

« بأنهم » من غاية انهماكهم في الضلال قد ..

« كذبوا بآياتنا » الدالة على توحيدنا .. المنزلة على رسلنا ..

« وكانوا » من غاية جهلهم ..

« عنها » وعن الامتثال بها .. والعمل بمقتضاها والتدبر في معناها ..

« غافلين » غفلة مؤبدة .. لا تيقظ لهم منها أصلا » ..

هذا شيء يسير .. مما عند المفسرين ..

وإليك شيئاً مما عند أهل الكتاب :

« وقال الرب لموسى اصعد إليّ الى الجبل وكن هناك .

« فأعطيك لوحَي الحجارة والشريعة التي كتبتُها لتعليمهم .

« فقام موسى ويشوع خادمه .

« وصعد موسى الى جبل الله .

« واما الشيوخ فقال لهم اجلسوا لنا ههنا حتى نرجع اليكم .

« وهوذا هارون وحُور معكم .

« فمن كان صاحب دعوى فليتقدم اليهما .

« فصعد موسى الى الجبل .

« فغطى السحاب الجبل .

« وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام .

« وفي اليوم السابع دُعيَ موسى من وسط السحاب .

« وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل امام عيون بني اسرائيل .

« ودخل موسى في وسط السحاب وصعد الى الجبل .

« وكان موسى في الجبل اربعين نهاراً وأربعين ليلة » .

وقالوا :

« ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحَي الشهادة لوحي حجر مكتوبين باصبع الله » .

ثم ماذا ؟ ! .

ثم نعود الى المشهد الجميل الجليل .. المقدس ..

في أمواج الجمال .. وبهجة المحبين .. وشوق النبيين .. نادى الكليم :

« رب ..

« أرني ..

« أنظر اليك » !..

انه الشوق .. انه الحب .. انه الأُنس ..

أرِني ؟ ! .

كيف شئت ؟!.

أنظر اليك ؟!.

بعيني رأسي .. أو بعيني قلبي .. أو بما شئت ؟!.

فقال سبحانه : لن تراني ؟!.

ها هنا يا موسى .. لن تراني ..

لا يسعني أرض ولا سماء .. فكيف تراني .. وأنت في تركيبك هذا ؟!.

ولكن انظر الى الجبل .. أنت تريد أن تنظر إليّ .. يكفيك أن تنظر إلى الجبل ..

فإن استقر مكانه فسوف تراني !..

تجربة عملية .. على الغاية من الجمال !..

فلما تجلى ربّه للجبل .. لهذه الكتلة الضخمة من المـــادة .. على امتداد البصر .

جعله .. فوراً .. في .. لا .. زمن ..

دَكّاً .. سوّاه بالأرض .. وتلاشى وجود الجبل ..

وخَرّ موسى صَعِقاً !..

بمجرد التجلي .. بدّد وجود الجبل !..

مجرد التجلي .. فكيف بالظهور ؟!.

مشهد .. يا له من مشهد !..

ترقّى فيه الكليم .. ما ترقى !..

« سلامٌ على موسى وهارون »

« إنا كذلك نجزي المحسنين »

« انهما من عبادنا المؤمنين » !..

عِجْلاً ... جَسداً ... لهُ خُوار ؟!...

أشق البلاء ...

بلاء الأنبياء ..

بينما هم في أعلى عليين .. يُكلفون بمخالطة .. من هم في أسفل سافلين !.

وهذا تكليف شاق .. لا يطيقه إلا الأنبياء !..

انظر .. ها هو الكليم .. في أعلى درجات الترقي والقرب ..

في قمة السمو .. في أمواج .. « أرني .. أنظر .. اليك » !..

ثم يفاجأ .. بأغلبية شعبه .. بالألوف من شعبه .. يعبدون عجلاً .. ويرقصون من حوله ؟!.

هكذا .. هو في أعلى الدرجات .. وهؤلاء في أسفل سافلين.. فيما هو أحط من البهائم . لأنهم اتخذوا أحد البهائم إلهاً ؟!.

فانظر .. كيف يكون شعور موسى .. حين يُكلف وهو فيما هو أعلى من السماء .. أن يهبط فجأة الى هؤلاء ؟!.

أن يتنزل سريعاً .. من الأفق الأعلى .. إلى هاوية هؤلاء السفلى !..

وهذا يُفسر لك .. لماذا ألقى موسى الألواح .. ولماذا أخذ برأس أخيه يجره اليه ؟!.

ولماذا رجع اليهم .. غضبان أسِفاً ؟!.

ان أعصابه تكاد تتمزق .. أبَعد هذه الآيات كلها .. وهذا الإرشاد الطويل

أبعد هذا كله تكون الحصيلة تجمع الشعب حول عجل حقير ليعبدوه ؟!.

ألا إن أشق بلاء للأنبياء .. أنهم في الأفق الأعلى .. ويؤمرون أن يهبطوا الى مخالطة أحقر الناس .. ليستنقذوهم من الرجس الذي يعيشون فيه !..

كيف كانت هذه التجربة .. من تجارب موسى الكبرى ؟!.

وكيف وقعت .. وماذا حدث هناك ؟!.

قال عز وجل :

« واتخذ قوم موسى من بعده من حُليّهم عجلا جسداً له خُــوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين .

« ولما سُقِط في ايديهم ورأوا انهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين .

« ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسِفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجِلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس اخيه يجره اليه قال ابن أم ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تُشمت بي الاعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين .

« قال رب اغفر لي ولأخي وادخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين » .

« واتخذ قوم موسى من بعده » بعد مسيره ، لمناجاة ربه — عز وجل —

« عجلا » شبيهاً بولد البقرة ..

« جسدا له خُوار » له صوت ..

« أسِفاً » حزيناً .. الأسف : شدة الغضب والتغيظ على من أغضبه ..

« بئسما خلفتموني من بعدي » بئس الفعل فعلتم ، بعـــد فراقي إياكم ، وأوليتموني في قومي ..

« أعجلتم أمر ربكم » سبقتم أمر ربكم في أنفسكم ؟!

وفي سورة طه :

« وما اعجلك عن قومك يا موسى .

« قال هم أولاء على اثري وعجلت اليك رب لترضى .

« قال فانّا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامريُّ .

« فرجع موسى الى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد ام اردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي .

« قالوا ما اخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حُمّلنا اوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك القى السامري .

« فاخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي .

« أفلا يرون الا يرجع اليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً .

« ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم انما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا امري .

« قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى .

« قال يا هارون ما منعك إذ رايتهم ضلوا .

« الا تتبعن افعصيت امري .

« قال يبنؤُمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي اني خشيت ان تقول فرّقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي .

« قال فما خطبك يا سامريُّ .

« قال بَصُرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من اثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي .

« قال فاذهب فان لك في الحياة ان تقول لا مِساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر الى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً .

« إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء عِلماً » .

هذا البهلوان المسمى بالسامري .. هو رأس الفتنة .. وهو صانع الخدعة ..

فكيف كان ذلك ؟! . قال أهل التفسير .. مختصراً :

« ثم لما كان موسى حريصاً على هداية قومه .. اختار منهم بإذن الله سبحانه .. سبعين رجلاً من خيارهم حتى يذهبوا معه الى الطور .. ليأخذوا التوراة .. فساروا معه .. فتسارع موسى في الصعود شوقاً الى لقاء ربه .. وأمرهم أن يتبعوه في الارتقاء الى الجبل .. فوصل موسى الموعد قبل وصولهم .. فقال له ربه تنبيهاً على اضطرابه واستعجاله في أمره ..

« وما أعجلك » وأي شيء أسبقك .

« عن قومك » المستكملين برفاقتك ..

« يا موسى » المبعوث المرسل لتكميلهم .. بل الأليق بحالهم أن تجيء أنت معهم مجتمعين ..

« قال » موسى ..

« هم » من غاية قربهم ..

« أولاء » المشار اليهم التابعون ..

« على أثري وعجلت اليك » يا ..

« رب لترضى » عني .. ويزداد تقربي اليك ..

« قال » تبارك وتعالى .. بعد ما فارقتهم وتركتهم مع أخيك .. قد صرت أنت سبباً تاماً لوقوعهم في البلاء العظيم ..

« فإنا قد فتننّا » وابتلينا ..

« قومك » وهم الذين قد أبقيتهم مع أخيك ..

« من بعدك » من بعد خروجك من بينهم .. بعباده غيرنا .. فأشركوا بنا ..

« و » ما ..

« أضلهم » إلا ..

« السامري » المفرط بسبب صوغه صورة العجل من حُلي المصريين .. وقوله بعد ما خار العجل .. هــذا إلهكم وإله موسى .. وبعدما سمع موسى من ربه ما سمع ..

« فرجع موسى » من ساحة عــز حضور ربه .. ومقام السرور معه .. مسرعاً ..

« إلى قومه » المتخلفين عن أمره .. المشركين بربه .. قــد استولى عليه الغضب .. غيرة على ربه .. فصار ..

« غضبان » من فعلهم ..

« أسِفاً » متأسفاً .. متحزناً .. متفكراً هل يمكن التدارك أم لا ؟ .. فلما وصل اليهم ..

« قال يا قوم » المضيعين سعيي في ارشادكم وتكميلكم .. أما تستحيون من ربكم الذي رباكم بأنواع النعم .. وأنجاكم من أصناف البلاء .. سيما عند وعد الزيادة لكم ؟!.

« ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً » يحسن أحوالكم .. ويوصلكم الى مقام القرب .. بإنزال التوراة عليكم .. لتكملوا بها أخلاقكم ؟!.

« أ » تنكرون انجاز وعده .. أم ..

« فطال عليكم العهد » المدة والزمان .. بأن صـــار أربعين .. بعد ما كان ثلاثين ؟!.

« أم أردتم » وقصدتم بالإنكار والإصرار ..

« أن يحل » وينزل ..

« عليكم غضب من ربكم فأخلفتم » لذلك ..

« موعدي » الذي قد وعدتكم من متابعتي لأخذ التوراة ..

« قالوا » يا موسى ..

« ما أخلفنا موعدك بِمَلكنا » أي بقدرتنا واختيارنا .. من غـــير ظهور دليل يشغلنا عن موعدك .. بل ..

« ولكنا » قد كنا على ما وعدتنا .. ولا تصدر عنا مخالفتك .. غـــير أنا قد ..

« حُملنا أوزارنا » وأحمالاً .. وأثاثا مستماراً ..

« من زينة القوم » أي من حُلي المصريين .. ولم يمكننا الرد اليهم لاستئصالهم ولا يمكننا أيضاً حملها وحفظها دائماً .. لذلك اضطررنا فحفرنا حفرة وصيرناها مملوءة من النار ..

« فقذفناها » أي فقذف كل منا ما في يده من الحُلي فيها ..

« فكذلك ألقى السامريّ » فيها ما في يده من الحلي .. بعد ما قذفنا .. بلا صنع زائد منا .. وبعد ما قذف الكل حليهم فيهـــا .. ادخل السامري يده فيها ..

« فأخرج لهم » منها ..

« عجلاً » أي صـــورة عجل .. ولم يكن من ذوي الحس والحركة .. بل كان ..

« جَسَداً » وهيكلاً ..

« له خُوار » يصوت صوت البقر ..

« فقالوا » السامري أصالة .. والباقي تبعا ..

« هذا » الجسد الذي خار خورة ..

« إلهكم » الذي أوجدكم من العدم ..

« وإله موسى » المتردد في بيداء الطلب .. هو هذا قد أنزله موسى في هذه الحفرة من قبل ..

« فنسي » منزله .. وسعي في طلبه سعياً بليغاً .. فرقى الطور أيضاً لطلب هذا ..

« أ » هم قد خرجوا عن طور العقل باعتقاد ألوهية الجماد .. بل عن الحس أيضاً ..

« فلا يرون » ولا يتفكرون في شأن هذا الجماد ..

« ان لا يَرجِع » أي أنه لا يرجع .. أي أنه لا يرد ..

« اليهم قولاً » جواباً عن سؤالهم ..

« ولا يملك لهم ضراً » لو لم يؤمنوا له ..

« ولا نفعاً » لو آمنوا ..

« ولقد قال لهم هارون من قبل » أي قبل رجوع موسى اليهم .. نيابة عنه .. إصلاحاً لحالهم .. بعد ما أفسدوا على أنفسهم ما أمرهم موسى وأوصاه إياه من الأصلح بحالهم ..

« يا قوم » المائلين عن طريق الحق بسبب هذه الصورة ..

« إنما فتنتم به » أي ما هـذا إلا ابتلاء لكم من ربكم .. ليختبر سبحانه

رسوخكم .. وتمكنكم على التوحيد .. اعرضوا عن الشرك بالله .. وتوجهوا إلى توحيده ..

« وإن ربكم الرحمن » لكم .. بإرسال أخي اليكم رسولاً .. وأنجاكم من عدوكم .. وأنا نائب عن أخي .. قد استخلفني عليكم ..

« فاتبعوني » لتتبعوا الحق .. ولا تميلوا الى الباطل ..

« وأطيعوا أمري » هذا .. واقبلوا قولي وإرشادي لكم .. حتى يصلح حالكم ..

« قالوا » له .. انك وإن كنت نائباً عن أخيك .. لا تعرف أنت ربه .. ولا تكلمت معه .. بل يعرفه ويتكلم معه موسى ..

« لن نبرح » ونزال ..

« عليه » أي على عبادة الجسد ..

« عاكفين » مقيمين حوله .. متوجهين اليه .. متضرعين عنده ..

- « حتى يرجع الينا موسى » فرآه وتكلم معه ..

« ثم لما رجع موسى من ميقاته ومناجاته مع ربه .. بعد ما أخبر له الحق حال قومه .. ووجدهم ضالين منحرفين .. صار غضبان عليهم .. أسفاً بضلالهم حيث ..

« قال » من شدة غيظه لأخيه .. منادياً باسمه على الاستحقار .. مع انه أكبر منه سناً ..

« يا هارون ما منعك » وأي شيء صرفك عن قتالهم وقت ..

« إذ رأيتهم ضلوا » عن طريق الحق وتوحيده .. بعبادة العجل .. وما لحقك ..

« ألا تتبعن » في مقاتــلة المشركين .. بعد ما أوصيتك به مراراً .. وقد أقمتك فيهم لإصلاح حالهم فأفسدتهم ..

« أ » كفرت وضللت أنت أيضاً ..

« فعصيت أمري » فأخــذ من شدة غيظه وغضبه .. بشعر أخيه ولحيته يجره ...

« قال » له حينئذ هارون .. قولاً يحــرك مقتضى الأخوة .. وينبه على قبول العذر ..

« يا ابن أمّ » نسبه الى الأم استعطافاً .. احــذر عن الغضب المفرط .. وتوجه إليّ .. واسمع عذري ..

« لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي » ما لم تسمع عذري .. لم أترك القتــال معهم إلا ..

« إني » وإن كنت لا أقدر على قتالهم لكثرتهم قد ..

« خشيتُ » ان قاتلت معهم ..

« ان تقول » انت معاتباً عليّ قد ..

« فرقت بين بني اسرائيل » وجعلتهم فرقاً .. متخالفة متقاتلة ..

« ولم ترقُب قولي » ولم تحفظ ما أقول لك .. اخلفني في قومي واصلح بينهم حتى أرجع .. فلما سمع موسى عذره ندم على ما فعله .. فرجع الى معاتبة يضلهم حيث ..

« قال فما خطبك » وأي شيء هو أعظم مقاصدك ومطالبك من هــذه التفرقة والإضلال ..

« يا سامريّ » المضل ..

« قال » السامري .. ليس مقصودي إلا الرياسة والزيادة عليهم .. بشيء يميزني عنهم .. إذ قد ..

« بَصُرت بما » اي شيء ..

« لم يبصروا به » أصلا .. وذلك اني رأيت جبرائيل راكباً على فرس الحياة .. ما وضع قدمه على شيء إلا حيى ..

« فقبضت قبضة من أثر الرسول » اي من تراب قد وطئه حافر فرس الرسول الذي هو جبرائيل .. وقد كنت احفظها .. الى ان اذابوا حُليهم ..

« فنبذتها » فيها .. فسرت الحياة الدنيا منها .. الى الصورة المتخذة من الحُلي .. فخار .. فأمرتهم باتخاذها إلهاً ..

« و » بالجملة ..

« كذلك سَوّلت » وزينت ..

« لي نفسي » حتى أكون متبوعاً لهم .. مقتدى به بينهم ..

« قال » له موسى ..

« فاذهب » من عندي .. وتنح عن مرآي ..

« فإن لك » اي قد حق وثبت لك ..

« في الحياة » أي في حين حسك وحياتك ..

« ان تقول لا مِساس » لك .. ولا احساس ولا ادراك .. يعني انك في حياتك من جملة الأموات الفاقدين للحواس وإدراك عموم المشاعر والمدارك .. لاعتقادك بحياة هذا الجماد .. وأخذك هذا إلهـا حياً قيوماً متصفاً بصفات الكمال .. وأضللت بسبب هذا جماً عظيماً من الناس ..

« وإن لك » في النشأة الأخرى ..

« موعداً » من الجحيم ..

« لن تُخلفه » أنت أبداً .. ولن تنتقل عنه أصلاً .. إذ لا توبة الك منها ..

« و » متى عرفت حالك في دنياك وأخراك ..

« انظر الى إلهك الذي ظلتَ » وصرت ..

« عليه » وعلى عبادته ..

« عاكفاً » مقيماً عازماً جازماً ..

« لنحرقنّه » ولو كان هذا إلهاً لم تحرقه النار ..

« ثم » بعد الإحراق .. وبعد صيرورته رماداً ..

« لننسفنه » وننشرنه ..

« في اليم نسفاً » نشراً .. ونثراً .. بحيث لم يبق من أجزائه في البر شيء ..

وبالجملة قد أحرقها موسى عليه السلام .. ونسفها .. ثم توجه إلى بني اسرائيل فقال ..

« إنما إلهكم الله » المستجمع لجميع أوصاف الكمال .. وهو الحي القيوم ..

« الذي لا إله » ولا موجود في الوجود ..

« إلا هو » وما سواه أعدام باطلة .. ولو تعقل سواه فلا يخرج أيضاً عن حيطة حضرة علمه المحيط .. إذ هو سبحانه قد ..

« وسع كل شيء » في الذهن الخارج ..

« علماً » ...

هذا شيء مما قاله المفسرون .. فماذا نستخلص من الآيات وتفسيرها ؟!.

الخطوط العريضة من هذا الحادث الخطير .. هي هذا ..

واعد الله موسى ثلاثين ليلة .. يصومها متواليات متواصلات .. بلا طعام ولا شراب .. وهذه خصيصة لموسى ..

ولحكمة إلهية .. ستظهر فيما بعد .. أمره أن يتمهـــا بعشر أخرى .. فتم ميقات ربه أربعين ليلة ..

واستخلف موسى على قومه هارون .. وأوصاه ووجَّهه .. على أنه سيعود اليهم بعد الثلاثين .. ومناجاة ربه .. وتلقي الألواح المقدسة ..

وأخذ موسى معه سبعين من شيوخ بني اسرائيل ..

وتركهم في سفح الجبل .. ينتظرون عودته ..

وذهب هو يصعد جبل الطور المقدس .. ليظفر بالمناجاة وتلقي الألواح ..

وانقضت الثلاثون ليلة .. ولم يرجع موسى !.

وها هنا بدأت الفتنة تطل برأسها !..

وظهرت حكمة الله من امتداد الثلاثين ليلة الى أربعين ..

وبدأ الناس يتحدثون : أين موسى .. موسى لا يخلف الميعاد.. لعله نسي .. ربما يكون قد مات وصُعِق في هذا الجبل .. ابحثوا لكم عن إله تعبدوه !..

وهارون حائر بينهم .. والفتنة إذا اشتعلت فقد الناس عقولهم ..

هارون يحاول التهدئة ولا فائدة !..

ثم حفروا حفرة واسعة .. وجعلوا يلقون فيها ما حملوا معهم من الذهب .. الذي سلبوه من المصريين عنـــد هروبهم من مصر .. وامتلأت الحفرة بالحـُلي والجوهرات الثمينة .. كانت النساء تلقي بحليها لتتخاص من هذه الأوزار التي حملوها معهم ولا يستطيعون ردها إلى أهلها فقد هلكوا في البحر .. ولا سبيل إلى عودتهم الى من بقي في وادي النيل ..

وانبعث أشقاها .. هذا الرجل المسمى بالسامري ..

كان يتقن صناعة الصياغة .. فأخذ كمية من الذهب المكدس في الحفرة ..

وأذابه وأخرج منه تمثالاً رائعاً لعجل من البقر يضارع أحسن العجول المعبودة عند المصريين جمالاً وروعة ..

وجوّفه من الداخل في مكر ودهاء !..

وجاء السامري بقبضة من التراب الذي أخذه من أثر حافر فرس جبرائيل فألقاه فيه ..

فصار الحلي عجلاً جسداً له خوار .. يخور ويمشي ..

فلما رأوه قال لهم السامري (هذا إلهكم وإله موسى فنسي) موسى وتركه ها هنا وذهب يطلبه !

فعكفوا عليه يعبدونه !..

وصاح فيهم هارون .. فأطاعه بعضهم وعصاه بعضهم ..

فأقام بمن معه ولم يقاتلهم !..

وما كان يستطيع أن يفعل شيئاً مع قوم مجانين !..

وكانت صدمة أليمة .. خلخلت أعصاب موسى ..

وكيف لا .. وها هو يرى ما لا يُعقل من القوم !..

عجل .. بهيم .. يعكفون على عبادته .. ويرقصون من حوله ؟!.

عِجل ؟!. يتدهورون هذا التدهور .. وفيهم نبي الله هارون ؟!.

ورجع موسى الى قومه .. غضبان .. ثائر أشد الثورة..

أسِفاً .. حزيناً أشد الحزن ..

لقد فشل كل سبيل .. في تصحيح أفهام هؤلاء الأغبياء !..

وصب موسى غضبه على هارون .. المسئول الأول عن الشعب أثناء غيابه عنهم ..

« وأخذ برأس اخيه يجره اليه » . أمسك بشعر رأس أخيه .. وشعر لحيته الطويلة .. يشده اليه .. يريد أن يبطش به بطشاً ..

أمام الجماهير كلها .. وهارون يحاول أن يتفاهم مع موسى .. وموسى قد منعه الغضب أن يلتفت الى قوله ..

وقال هارون : « يا ابن ُام .. لا تأخذ بلحيتي .. ولا برأسي » ..

وكانت ثورة في القيادة العليا ..

واستدعى موسى .. السامري .. المجـــرم الأول .. وناداه على مشهد من الجميع :

– فما خطبك يا سامريُّ ؟!

ما مصيبتك .. وجريمتك الكبرى .. أيها البهلوان الأفاك ؟!.

وجعل السامري يشرح أمام الجميع .. سر الألعوبة التي لعبها ..

وأنه قد ألقى على التمثال .. تراباً كان قد أخـــذه من موضع حافر فرس جبرائيل ..

ففوجىء بالتمثال يحيى . ويتحول الى عجل حقيقي .. يمشي ويخور ..

فانتهزها فرصة .. ونادى في الشعب : (هذا إلهكم .. وإله موسى .. فنسيَ) موسى .. وذهب يطلب إلهه في الجبل !..

وسرعان ما صدّقوه .. فتحلّقوا حول العجل .. يعبدونه .. ويرقصون فرحاً من حوله !..

وتلاشى صوت هارون .. بينهم .. فاضطر الى اعتزالهم هو ومَن ثبت معه من المؤمنين الصادقين ! .

وعلى مشهد من الجميع عاقب موسى .. هذا السامري :

– فان لك في الحياة .. ان تقول .. لا مساس !..

طول حياتك .. سوف تتألم آلاماً لا تطاق .. إذا مسست أحداً .. أو مَسَّكَ أحـــد .. سوف تصيح وتصيح .. لا مساس .. لا تقتربوا مني .. ابتعدوا عني .. ستعيش وحشياً .. منبوذاً .. لا تخالط أحداً .. ولا أحد يخالطك ..

وأمر موسى الشعب .. باعتزال هذا المجرم الأثيم ..

ثم تصرف موسى .. في هذا الإله الباطل .. في العجل .. فأمر بحـــرقه حرقاً « **لنحرقنه** » ..

فلما تم إحراقه .. حتى صار رماداً ..

أمر بنسف هـــذا الرماد عن آخره .. ونثره في البحر .. **ثم لننسفنه في اليم نسفاً** » ..

حتى يفهم الجميع .. أنه أحقر من أن يُتخذ إلهاً ..

ثم صحّح الأفهام .. وأعلن فيهم التوحيد الصحيح :

– **انما إلهكم الله .. الذي لا اله إلا هو .. وسع كل شيء علما** !..

هذه هي الخطوط العريضة .. من ذلك الحادث الخطير ..

فما هي الحكمة مما حدث ؟!

الحكمة .. ما كان الله لينذر هذا الشعب .. حتى يميز الخبيث من الطيب ..

وقد كان .. تجمع حول العجل كل كاذب في ايمانه تحت قيادة السامري ..

وتجمع حول هارون .. كل صادق في ايمانه .. تحت قيادة هارون ..

فتحقق انكشاف النفوس للجميع ..

فالفتنة حققت أهدافها ..

وكانت تصفية رائعة .. لهؤلاء الذين يريد الله تعالى .. أن يتخذهم شعباً

للدعوة .. يتخصصون لتوحيده .. فعزل بذلك الخبائث بعيداً عن الطيبين !..

وهذه حكمة جليلة .. بل هي سُنّة من سُنن الله التي لا تتغير ..

أي جماعة تدعي أنها تعمل لله .. من الحتم ان تفتن وتبتلى . ليميز الله الخبيث من الطيب ..

لأن الادعاء خطير .. فلا بد أن يكون البلاء أخطر !..

ولو لم تثمر هذه الفتنة غير عزل الكاذبين عن الصادقين .. لكان هذا شيئاً عظيماً ..

ولكنها أثمرت الكثير .. وكان تدريباً عملياً رائعاً .. لفن قيادة الشعوب..

ذهب موسى ليتلذذ بالمناجاة .. ففوجىء بـ « **فانا قد فتنا قومك من بعدك** » ..

فكانت الإشارة من هذا .. أن يا موسى .. ليست مهمتك أن تتلذذ بمناجاتنا .. وإنما مهمتك الأولى .. أن تخوض مرارة مشاكل الجماهير .. وأن تعود الى هؤلاء البهائم .. الذين انتكسوا فعبدوا عجلا .. فتصحح عقولهم .. تلك هي مهمتك الأولى كرسول .. أما لذة الرؤية .. فـ « **لن تراني** » .. وأما لذة المناجاة .. فلن تفوتك .. فأنا معك حيث كنت « **انني معكما اسمع وأرى** » !..

هناك فوائد كبرى .. لهذا الحادث الخطير ..

فماذا كان من موسى .. بعد أن حكم في السامري « **لا مساس** » ؟..

فماذا كان حكمه في أولئك الذين عبدوا العجل ؟!.

فاقتلوا ... أنفسكم ؟!...

قال تعالى :

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العِجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذالـــكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم » .

وقال سبحانه :

« ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون .

وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطـُّور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين » .

ماذا حدث لهؤلاء الذين عبدوا العجل .. وماذا قضى فيهم موسى ؟!.

ومعلوم انهم قد ارتدُّوا .. والمرتد جزاؤه القتل !..

فهل قتلهم موسى .. وهل يقتل أغلبية الشعب .. هل يقتل عشرات الألوف ؟!.

قال ابن الأثير :

« ففي تلك الليالي العشر افتتن بنو اسرائيل .. لأن الثلاثين انقضت ولم يرجع اليهم موسى ..

« فقال هارون : يا بني اسرائيل ان الغنائم لا تحل لكم .. والحُلي الذي استعرتموه من (المصريين) غنيمة .. فاحفروا حفيرة وألقوه فيها .. حتى يرجع موسى فيرى فيه رأيه .. ففعلوا ذلك .

« وجاء السامري بقبضة من التراب الذي أخذه من أثر حافر فرس جبرائيل فألقاه فيه .

« فصار الحُلى عجلا جسداً له خوار .

« وقيل : كان يخور ويمشي » !..

« ثم يقول ثم أخذ (أي موسى) العجل وبرده بالمبارد واحرقه .. وأمر السامري فبال عليه .. وذراه في البحر .

« فلما ألقى موسى الألواح ذهب ستة أسباعها وبقي سُبع .

« وطلب بنو اسرائيل التوبة .. فأبى الله ان يقبل توبتهم .

« وقال لهم موسى : (يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم) .

« فاقتتل الذين عبدوه والذين لم يعبدوه .

« فكان مَن قُتل من الفريقين شهيداً .

« فقُتل منهم سبعون ألفاً .

« وقام موسى وهارون يدعوان الله .

« فعفا عنهم .. وأمرهم بالكف عن القتال .. وتاب عليهم » .

هذه رواية ابن الأثير .. وهي صريحة في قتل آلاف من بني اسرائيل .. فماذا عند أهل الكتاب ؟!. قالوا :

« وقف موسى في باب المحلة .

« وقال مَن للرب فإليّ .

« فاجتمع اليه جميع بني لاوي .

« فقال لهم .

« هكذا قال الرب إله اسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومُرّوا وارجعوا من باب الى باب في المحلة واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه .

« ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى .

« ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل .

« وقال موسى املأوا أيديكم اليوم للرب حتى كل واحد بابنه وبأخيه .

« فيُعطيكم اليوم بَركة » .

هذا ما عند أهل الكتاب ..

أوامر صريحة من موسى .. بقتلى كل من عَبَد العجل !..

٣٠٠٠ .. ثلاثة آلاف رجل .. قُتِلوا !..

لقد كانت مذبحة .. حمّام دم .. عملية تطهير دموية كبرى ..

ان الدعوات الإلهية .. جدّ وحقّ .. وثمنهـا فادح .. بنسبة ضخامة الفكرة .. وسمو الدعوة !..

وما أشبه هذا الحادث .. في تاريخ دعوة موسى ..

بالحادث الفذ .. في تاريخ دعوة رسول الله .. محمد .. صلى الله عليه وسلم..

حادث حروب الردّة .. حين ارتد الكثير عن الإسلام .. فكانت أوامر الصدّيق .. رضي الله عنه .. حازمة حاسمة .. بقتلهم وإبادتهم ..

ونفّذ سيف الله المسلول .. تلك الأوامر . وسقط من هـــؤلاء المرتدة الألوف قتلى !..

انها عملية تطهير كبرى .. لإبادة الأدعياء .. من صفوف الصادقين ..

ولن تجد لسُنّة الله تبديلا ! .

واختار موسى ... قومه سبعين رجلا ...
لميقاتنا !؟...

قال تعالى :

« واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت اهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت وليُّنا فاغفر لنـــا وارحمنا وأنت خير الغافرين . **واولئك هم المفلحون** .

« واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هُدنا اليك قال عذابي أصيب به من اشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . **واولئك هم المفلحون** .

« الذين يتبعون الرسول النبي الأُميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك **هم المفلحون** .

قال ابن الأثير :

« ثم ان موسى .. اختار من قومه سبعين رجلا من أخيارهم .

« وقال لهم : انطلقوا معي الى الله .. فتوبوا مما صنعتم وصوموا وتطهروا .

« وخرج بهم الى طور سيناء .. للميقات .. الذي وقته الله له .

« فقالوا : اطلب أن نسمع كلام ربنا .

« فقال : أفعل .

« فلما دنا موسى من الجبل .. وقع عليه الغمام .. حتى تغشّى الجبل كله .

« ودخل فيه موسى .. وقال للقوم : ادنوا .

« فدنوا حتى دخلوا في الغمام .

« فوقعوا سجوداً ..

« فسمعوه وهو يكلم موسى بأمره وينهاه .

« فلما فرغ انكشف عن موسى الغمام .. فأقبل اليهم .

« فقالوا لموسى : (**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**) .

« فأخذتهم الصاعقة .. فماتوا جميعاً .

« فقام موسى يناشد الله تعالى ويدعوه ويقول :

« يا رب اخترت أخيـــار بني اسرائيل .. وأعود اليهم وليسوا معي .. فلا يصدقونني ؟!

« ولم يزل يتضرع .. حتى رد الله اليهم أرواحهم .

« فعاشوا رجلا .. رجلاً .. ينظر بعضهم الى بعض كيف يحيون ؟

« فقالوا : يا موسى .. أنت تدعو الله .. فلا تسأله شيئاً إلا أعطاكه » !..

« فماذا عند المفسرين ؟!

قالوا :

« و » اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك .. قصة الكليم حين ..

« اختار موسى قومه » أي اختار وانتخب موسى .. بإذن منا إياه .. من قومه ..

« سبعين رجـــلا لميقاتنا » ومناجاتنا .. وذهب موسى معهم .. فسمعوا

يتكلم سبحانه مع موسى يأمره وينهاه .. وهو يناجي مع ربه .. فلما تم الكلام .. وانكشف الغمام .. قالوا بعد ما سمعوا كلامه سبحانه .. مستكشفين عن ذاته .. لن نؤمن لك حتى نرى الله جهـــرة .. ظاهرة منكشفة ذاته لأبصارنا .. كما انكشف كلامه لأسماعنا .. فأخذتهم الرجفة بسبب سؤالهم هذا.

« فلما أخذتهم الرجفة » أي الصاعقة .. النازلة من قهر الله وغضبه .. لطلبهم ما ليس في وسعهم واستعدادهم ..

« قال » موسى .. مشتكياً الى الله .. يا ..

« رب لو شئت أهلكتهم » أي لو تعلقت مشيئتك لإهـــلاكهم .. لم لم تهلكهم ..

« من قبل » أي قبل اسماعهم كلامك ..

« وإياي » أيضاً .. لِمَ لم تهلكني .. حتى لا ينسب إليّ إهلاكهم عند عوام بني اسرائيل وهم لا يتشاءمون بي ؟!. ثم قال موسى من غاية اضطرابه ..

« أتهلكنا » بالصاعقة الشديدة يا رب ..

« بما فعل السفهاء منا » أي بسبب سؤال سأل سفهاؤنا .. وصدر عنهم هذا هفوة بلا علم لهم بعظمتك وجلالك .. وحق قدرك وعزّك ؟!. بل ..

« ان هي » أي هذه الفعلة المستبعدة .. والمسألة المستحيلة أيضاً .

« إلا فتنتك » اختبارك .. وابتلاؤك اياهم .. إذ أسمعت أنت لهم كلامك .. فأوقعتهم بهذه الفتنة العظيمة .. إذ أنت ..

« تضل بها » أي بفتنتك ..

« مَن تشاء » من عبادك .. بأن اجترءوا عليك بعد ما انكشفت عليهم نوع انكشاف .. وجذبتهم نحوك نوع انجـــذاب .. الى انكشاف أعلى منه .. وأجلى .. فضلّوا وكفروا بلا علم لهم الى مقتضيات استعداداتهم ..

« وتهدي » بها أيضاً ..

« من تشاء » بأن سكتوا عن السؤال مطلقاً.. وفوضوا أمورهم كلها اليك.. ولا يسألوا عنك ما لم يستأذنوا منك .. والكل بيدك .. وما صدر عموم ما صدر عمن صدر إلا بتوقيعك واقدارك .. بل بك ومنك.. وبمقتضى قدرتك وإرادتك .. وبالجملة ..

« أنت ولينا » ومولى أمورنا .. ومولى نعمنا ..

« فاغفر لنا » عموم ما جرى علينا من المعاصي والآثام ..

« وارحمنا » برحمتك الواسعة .. تفضلاً علينا وامتناناً .. واعف عنا بفضلك وجودك ..

« وأنت خير الغافرين » الساترين ذنوب عصاة المسرفين المفرطين ..

« واكتب لنا » يا ربنا ..

« في هذه الدنيا حسَنة » لا توقعنا في فتنتك ..

« وفي الآخرة » أيضاً حسَنة توصلنا الى ذروة توحيدك ..

« إنا » بعد ما تحققنا بعلو شأنك وسمو برهانك ..

« هُدنا » أي تُبنا ورجعنا ..

« اليك » من أن نسأل منك ما ليس لنا علم به .. سيا بما يتعلق بذاتك ..

« قال » سبحانه متعززاً برداء العظمة والكبرياء ..

« عذابي » ونكالي ..

« أصيب به مَن أشاء » من عصاة عبادي ..

« ورحمتي وسعت كل شيء » من المطيعين والعاصين وغيرهم ..

« فسأكتبها » وأثبتها حتماً ..

« للذين يتقون » ويحذرون عن المحارم مطلقاً .. طلباً لمرضاتي ..

« ويؤتون الزكاة » أي يعطون ممـــا في أيديهم .. من الرزق الصوري والمعنوي .. تمريناً على نفوسهم ملكة الكرم والجود .. وتطهيراً لها عن الشح المطاع الموجب للقسوة والغفلة ..

« والذين هم بآياتنا » أي بجميعها ..

« يؤمنون » يوقنون .. ويمتثلون بمقتضاها .. ألا وهُم ..

« الذين يتبعون الرسول » المرسل بالتوحيد الذاتي ..

« النبي » المتمم لمكارم الأخلاق ..

« الأُميّ » المتحقق .. المخصوص بالعلم اللدني .. الملقى له من ربه .. بلا واسطة كسب وتعلم من معلم ألا وهو النبي الموعود ..

« الذي يجدونه » يعني عموم أهل الكتب ..

« مكتوباً » في كتبهم .. ببعثته .. ودينه .. واسمه .. وحليته .. وجميع أوصافه ثابتة ..

« عندهم في التوراة والإنجيل » بأنه إذا بُعث ..

« يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحلُّ لهم الطيّبات التي يحرمونها على نفوسهم ..

« ويحرّم عليهم الخبائث » التي قد حللوها على أنفسهم ..

« و » بالجملة ..

« يَضَع عنهم إصرهم » أي يزيح .. ويزيل عنهم ثقلهم .. التي يترهبون .. ويتزهدون فيهـــا .. فوق طاقتهم .. كقطع الأعضاء والجوارح التي يخطئون بها .. وقطع موضع النجاسة من الثوب .. وغير ذلك ..

« و » يضع أيضاً ..

« الأغلال » أي التكاليف الشاقة ..

« التي كانت عليهم » وبالجملة ..

« فالذين آمنوا به » حين ظهوره ودعوته ..

« عزّروه » ووقروه حق توقيره .. وتعظيمه ..

« ونصروه » تقوية لدينه ..

« واتّبعوا النور » أي القرآن ..

« الذي أنزل معه » من عند الله .. تأييداً له .. وتصديقاً إياه ..

« أولئك » السعداء .. المقبولون عند الله .. الموفقون من عنده باتباعه ..

« هم المفلحون » المقصورون من عنده .. على الفلاح والفوز بالنجاح » .

هذا قليل .. مما عند أهل التفسير .. فهل عند أهل الكتاب من شيء ؟!.

قالوا :

« ثم قال الرب لموسى انحت لك لوحين من حجر مثل الأوليْن .

« فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما .

« وكن مستعداً للصباح .

« واصعد في الصباح الى جبل سيناء وقف عندي هناك على رأس الجبل .

« ولا يصعد أحد معك وأيضاً لا يُرَ أحد في كل الجبل .

« فنحت لوحين من حجر كالأولين .

« وبكّر موسى في الصباح وصعد الى جبل سيناء كما أمره الرب .

« وأخذ في يده لوحَي الحجر » .

ثم قالوا :

« فأسرع موسى وخر الى الارض وسجد .

« وقال ان وجدت نعمة في عينيك أيها السيد فليَسِر السيد في وسطنا .

« فانه شعبٌ صُلبُ الرقبة .

« واغفر اثمنا وخطيتنا واتخذنا مُلكاً » .

ثم قالوا :

« وقال الرب لموسى اكتب لنفسك هذه الكلمات .

« لأنني بحسب هذه الكلمات قطعت عهداً معك ومع اسرائيل .

« وكان هناك عند الرب اربعين نهاراً واربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماءً .

« فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر .

« وكان لما نزل موسى من جبل سيناء ولوحا الشهادة في يد موسى عند نزوله من الجبل ان موسى لم يعلم ان جلد وجهه صار يلمع في كلامه معه .

« فنظر هارون وجميع بني اسرائيل موسى واذا جلد وجهه يلمع .

« فخافوا أن يقتربوا اليه .

« فدعاهم موسى .

« فرجع اليه هارون وجميع الرؤساء في الجماعة .

« فكلمهم موسى .

« وبعد ذلك اقترب جميع بني اسرائيل .

« فأوصاهم بكل ما تكلم به الرب معه في جبل سيناء » .

ثم ماذا ؟!. ثم حسبنا هذا !..

فإنها محرمة عليهم ... أربعين سنة ...
يتيهون في الأرض ؟!...

قال تعالى :

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم مُلوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين .

« يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين .

« قالوا يا موسى ان فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فانا داخلون .

« قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين .

« قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون .

« قال رب اني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين .

« قال فانها مُحرّمة عليهم اربعين سنة يتيهون في الارض فلا تأسَ على القوم الفاسقين » .

تعب موسى .. أشد التعب ..

وأرهقه بنو إسرائيل .. أشد الإرهاق ..

يحاول في كل مرة .. أن يرفع خستهم .. ويرقى بهم .. إلا أنهم ينتكسون ويرتدون ..

وهـذا كله من آثار الذل والهوان الذي نشأوا فيه في مصر .. فحطم بنيانهم ..

نظمهم كما أمره الله .. أحسن تنظيم ..

« ٦٠٠٠٠٠ » ستمائة ألف .. يقودهم أحسن قيادة .. ويرتحل بهم .. عن أمر الله .. من صحراء الى صحراء أخرى في سيناء ..

ولكن ماذا يجدي التنظيم . في شعب لم يألف إلا السخرة والعبودية ؟!

وإليك الآن .. صورة طبيعية لتلك الأحداث .. مما ورد عند أهل الكتاب :

« وفي السنة الثانية في الشهر الثاني في العشرين من الشهر ارتفعت السحابة عن مسكن الشهادة .

« فارتحل بنو اسرائيل في رحلاتهم من برية سيناء فحلت السحابة في برية فاران » .

ثم عادوا ينوحون .. ويطلبون ما كانوا يأكلون في مصر .. أو لحماً فقد كرهوا هذا المن !..

« واللفيف الذي في وسطهم اشتهى شهوة .

« فعاد بنو اسرائيل أيضاً وبكوا وقالوا من يطعمنا لحماً .

« قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم .

« والآن قد يبست أنفسنا .

« ليس شيء غير أن أعيننا الى هذا المن » !..

الشعب ينوح .. ويطلب شيئاً غير هذا المنّ !..

فضج موسى منهم .. واشتكى الى ربه :

« فقال موسى للرب لماذا أسأت الى عبدك ولماذا لم أجد نعمة في عينيك حتى انك وضعت ثقل جميع هذا الشعب عليّ » !..

لا أقدر أنا وحدي أن أحمل جميع هذا الشعب لأنه ثقيل عليّ ..

موسى يتألم ويتألم .. ويتأوه الى الله ..

ثقيلٌ عليّ ؟!. شعب كله عُقد .. ومشاكل والتواءات .. وجُبن .. وعدم رغبة في حمل المسئولية .. وهذه الأثقال كلها .. يحملها القائد .. وهو في حاجة الى من يعينه في تلك المهمة الشاقة !..

وقد كان ..

« فقال الرب لموسى اجمع اليّ سبعين رجلا من شيوخ اسرائيل الذين تعلم انهم شيوخ الشعب وعرفاؤه واقبل بهم الى خيمة الاجتماع فيقفوا هناك معك.

« فانزل أنا واتكلم معك هناك وآخذ من الروح الذي عليك وأضع عليهم فيحملون معك ثقل الشعب فلا تحمل أنت وحدك » .

« فقال موسى ست مئة ألف ماشٍ هو الشعب الذي أنا في وسطه » .

« فخرج موسى وكلم الشعب بكلام الرب وجمع سبعين رجلا من شيوخ الشعب وأوقفهم حوالي الخيمة .

« فنزل الرب في سحابة وتكلم معه وأخذ من الروح الذي عليه وجعل على السبعين رجلا الشيوخ .

« فلما حلت عليهم الروح تنبأوا ولكنهم لم يزيدوا » .

انتهت مشكلة القيادة .. وانفراد موسى بثُقل المسئولية ..

ولكنه عاد يواجه مشكلة أخطر وأخطر ..

مشكلة شعب بأكمله يرفض رفضاً باتاً . أوامر الله اليه .. بدخول الأرض المقدسة ..

شعباً يكشف عن حقيقته .. ويعلنها بلا حياء ولا استحياء .. وبئس ما أعلن وبئس ما أذاع !..

« فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت وبكى الشعب تلك الليلة .

« وتذمر على موسى وعلى هارون جميع بني اسرائيل وقال لهما كل الجماعة ليتنا متنا في أرض مصر أو ليتنا متنا في هذا القفر .

« ولماذا أتى بنا الرب الى هذه الأرض لنسقط بالسيف .

« تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة .

« أليس خيراً لنا أن نرجع الى مصر .

« فقال بعضهم لبعض نُقيم رئيسا ونرجع الى مصر » .

وهكذا .. رفض كل الشعب .. وثورة في كل الشعب ..

ورفعوا أصواتهم .. أصوات الجُبْن والهلع والجزع ..

كيف يأمرهم موسى بقتال هؤلاء .. كيف يدفعهم الى الموت .. ليتهم ماتوا في مصر .. أو ماتوا في هذا القفر .. بدلاً من موتهم بالسيف !..

ويمكن أن نسأل هؤلاء الجبناء : وما الفرق بين موتة مصر وموتة السيف ؟

انها مجرد معاذير .. ومحاولة لتغطية جبنهم !..

وكانت الطامة .. حين أعلنوا « نُقيم رئيساً .. ونرجع الى مصر » ؟!.

انه قلب نظام الحكم كله ..

اسقاط موسى .. تعيين رئيس غيره .. يعود بهم الى مصر !..

هكذا .. ببساطة .. كأن هذا الذي حدث كله .. هذا التاريخ العريض لم يحدث ! ..

إجرام . وعفونة سارية في النفوس !..

فماذا كان من موسى ؟!.

« فسقط موسى وهارون على وجهيهما امام كل معشر جماعة بني اسرائيل.

« ويشوع بن نون وكالِب بن يَفُنَّة من الذين تجسسوا الأرض مَزّقا ثيابهما .

« وكلّما كل جماعة بني اسرائيل قائلين .

« الأرض التي مررنا فيها لنتجسسها الأرض جيدة جداً جداً .

« ان سُر بنا الرب يدخلنا الى هذه الأرض ويعطينا اياها أرضاً تفيض لبناً وعسلاً .

« انما لا تتمردوا على الرب ولا تخافوا من شعب الأرض لأنهم خبزنا .

« قد زال عنهم ظلهم والرب معنا . لا تخافوهم » .

وهذان هما الرجلان اللذان أشار اليهما القرآن العظيم « قال رجلان من الذين يخافون » !..

فماذا كان حكم الله في هؤلاء المتمردين .. أو بلغة القرآن «القوم الفاسقين» ؟.

« وكلم الرب موسى وهارون قائلا حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة عليّ .

« قد سمعت تذمر بني اسرائيل الذي يتذمرونه عليّ .

« قل لهم حيّ أنا يقول الرب لأفعلن بكم كما تكلمتم في أذنيّ .

« في هذا القفر تسقط جثثكم جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين فصاعداً الذين تذمّروا عليّ .

« لن تدخلوا الارض التي رفعت يدي لأسكنكم فيها ما عدا كالب بن يَفُنة ويشوع بن نون .

« وأما أطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة فاني سأدخلهم فيعرفون الارض التي احتقرتموها .

« فجثثكم أنتم تسقط في هذا القفر .

« وبنوكم يكونون رعاة في القفر أربعين سنة ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم في القفر .

« كعدد الايام التي تجسستم فيها الارض أربعين يوماً للسنة يومٌ تحملون ذنوبكم أربعين سنة فتعرفون ابتعادي .

« أنا الرب قد تكلمت لأفعلن هذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة عليّ .

« في هذا القفر يفنون وفيه يموتون » .

هذا هو حُكم الله في هؤلاء المتمردين .. ولا راد لقضائه !..

هذا هو حكم الله .. الذي سجله كتاب الله العظيم .. القرآن العظيم :

« فانها محرّمة عليهم .

« أربعين سنة .

« يتيهون في الارض » !..

ان عظمة القرآن العظيم .. أنه أصدق قول .. على الإطلاق .. على وجه الأرض .. الى ما شاء الله للحياة أن تكون !..

وإنما كان كذلك .. لأن الله .. هو المتحدث فيه ..

« ومَن أصدَق مِن الله حديثاً » ؟!.

ليس ذاك وحده .. بل ومستحيل أن يُزاد فيه حرف أو يُنقص ..

« إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون » !..

ومن دلائل تلك القضية .. هذه الآيات الكريمة .. التي سجّلت .. هـــذا الموقف الخطير من بني اسرائيل .. وما انتهى اليه .. من حكم الله فيهم حكما أبديا !..

وسجّل أدق أقوالهم .. مما يخفى على الخلق .. ولا يعلم إلا الله !..

« يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة » المطهرة عن شوائب الفتن ..

« التي كتب الله لكم » أي قدّرها في حضرة علمه القديم لمقركم ومسكنكم .. إذ هي منازل الأنبياء .. ومقر الأولياء والأصفياء .. فعليكم أن تقبلوا اليها .. تاركين ديار العمالقة والفراعنة .. التي هي محل أنواع الجور والعناد .. ومجمع أصناف البغي والفساد ..

« و » عليكم أن ..

« لا ترتدّوا » بعدما سمعتم الوحي ..

« على أدباركم » خوفاً من الجبابرة ..

« قيل لما سمعوا أوصاف جبابرة الكنعان من نقبائهم .. خافوا واستوحشوا وفزعوا .. وقالوا : ليتنا نرد على أعقابنا .. تعالوا ننصب رأساً ينصرف بنا الى مصر .. إذ موتنا فيها خير من الحياة في موضع آخر .. وان ترتدوا وترجعوا..

« فتنقلبوا خاسرين » خسرانا عظيما .. لذلك صاروا بعد انقلابهم .. في الدنيا تائهين حـــائرين .. وفي الآخرة خاسرين خائبين .. وبعد ما سمعوا من موسى ما سمعوا ..

« قالوا » على صورة الاعتذار .. وإظهار العجز وعدم الاقتدار .. وما هي إلا من عدم تثبتهم على الإيمان .. وعدم رسوخهم في مقتضياته .. وعدم وثوقهم

بنصر الله وإعانته .. سيما بعد ما أمرهم بالنقل والترحال .. ووعدهم ما وعدهم من النصر والظفر ..

« يا موسى ان فيها قوماً جبّارين » لا يتأتى منا مقاومتهم ومقاتلتهم ..

« و » بالجملة ..

« إنا لن ندخُلها حتى يخرجوا منها » بقتال أو غيره ..

« فإن يخرجوا منها » على أي وجه ..

« فإنا داخلون » إذ لا طاقة ولا قدرة لنا معهم ..

« قال رجلان مِن الذين يخافون » من قهر الله وغضبه .. سيما بعد ورود أمره .. إذ هما من أهل الوثوق بنصر الله .. وإنجاز وعده .. إذ قد ..

« أنعم الله » المنعم المفضل ..

« عليهما » بالإيمان والإذعان .. وبإعطاء الحكمة والمعرفة ..

« ادخلوا عليهم الباب » أي ضيقوا على عدوكم باب بلدهم .. وقربوهم الى حيث يضطرون ويخافون من جسامتهم وضيق أمكنتهم ..

« فإذا دخلتموه » على هذا الوجه ..

« فإنكم غالبون » غانمون البتة ..

« وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » بما وعدتم ..

« قالوا » مستهزئين مصرحين بما تكن صدورهم من الكفر .. وعدم الوثوق والإخلاص .. ومناقضة العهود والمواثيق الإلهية ..

« يا موسى » لا تحملنا ما لا طاقة لنا به ..

« إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها » وإن شئت ..

« فاذهب أنت » أيها الداعي ..

« وربك » الذي دعوتنا اليه .. وادعيت الإعانة والانتصار منه ..

« فقاتلا » مع العدو ..

« إنا ها هنا قاعدون » منتظرون إلى أن يظهر الأمر ..

« قال » موسى .. بعد ما سمع منهم ما سمع .. يؤوساً .. قنوطاً .. باثاً الشكوى مع ربه ..

« رب إني لا أملك » ولا أثق لامتثال أمرك ..

« إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » الخارجين عن مقتضى أمرك .. التاركين الامتثال به .. من عدم وثوقهم بإعانتك وتأييدك ..

« ثم لما سمع سبحانه من موسى ما سمع .. من بث الشكوى .. وكان حالهم وصلاحهم معلومة عنده سبحانه ..

« قال » مهدداً إياهم ..

« فإنها » أي الأرض المقدسة ..

« محرمة عليهم » مدة ..

« أربعين سنة » خص هذا العدد .. لأنهم لما أعادوا نفوسهم بعدم امتثال أمر الله .. والاستهزاء به وبرسوله .. الى ما هم عليه قبل ايمانهم .. والإيمان ما يكمل غالباً إلا بعد الأربعين . لذلك خص هذه المدة لمجازاتهم ومجاهداتهم ليكمل الإيمان فيها .. وبعد ما ارتدوا ..

« يتيهون في الأرض » تائهين حائرين .. مذبذبين لا إلى مصر .. ولا إلى الشام .. في تلك المدة وموسى سار معهم فيها .. ليرشدهم إلى أن يخرجهم من الحيرة والضلال الصوري والمعنوي ..

« ثم لما رأى موسى اضطرار قومه .. وحزنهم وقلقهم واضطرابهم رحمهم ..

وندم عما دعا عليهم .. فدعا لهم بمقتضى شفقة النبوة ومرحمتها .. لذلك رد الله سبحانه عليه بقوله ..

« فلا تأسَ » أي لا تحزن أيها النبي الشاكي ..

« على القوم الفاسقين » الخارجين عن مقتضى التصديق والإيمان .. التاركين سبيل اليقين والعرفان » .

هذا ما ذهب اليه أحد المفسرين ..

فماذا يستنبط من ذلك الأمر العظيم ؟!.

ولماذا أربعين سنة بالذات ؟!

ولماذا حُكم عليهم أن يموتوا بالقفر .. ويفنوا في التيه ؟!.

أربعون سنة .. أي جيل من الناس ..

أي المدة الكافية لفناء ذلك الجيل المتمرد .. من سن العشرين !..

هؤلاء يموتون بالقفر .. ويذهبوا الى حيث لا رحمة .. بظلماتهم والتواءاتهم .. ونجاساتهم ..

ثم ينشأ الجيل الجديد .. الذي تربى في حرية الصحراء .. وترعرع بين ربوع الحرية .. حيث لا فرعون ولا تعذيب ..

هذا الجيل الجديد .. هو الذي سيدخل الأرض المقدسة ..

أما هؤلاء .. فقد نطقوا بقدَرِهم « **إنا .. لن ندخلها .. أبداً .. ما داموا فيها** » ..

إذن . « ليكن لهم ما أرادوا .. « **فانها محرمة عليهم أربعين سنة** » ..

« حتى ينقرضوا هؤلاء جميعاً .. وتطهر الأرض من شؤمهم وإجرامهم !..

فاذهب أنت وربُّك فقاتلا ؟!.

منتهى التمرد .. ومنتهى التحدي .. ومنتهى الإجرام !..

إنا .. ها هنا .. قاعدون ؟!.

بلطجة .. وتنبلة .. يريدون أن يعيشوا تنابلة .. يأكلون ويشربون .. ويتلذذون .. وعلى موسى وربه القتال !..

لقد نطقوا بألسنتهم .. بالحُكم عليهم ..

وعوقبوا بشؤم منطقهم ..

لقد كشفوا حقيقة نفوسهم .. الخبيثة !..

وكان حادثاً عظيماً ..

وحُكماً .. عدلاً ..

وهو أحكم الحاكمين !..

إلا أن الاستنباط الأعظم هو هذا ..

أن أي أمة .. أي شعب تُريد أن تكشف عن حقيقة معدنه .. فادعُه الى القتال ..

فإن لبَّى .. كان إيمانه صحيحاً ..

وإن أبى .. كان إيمانه زائفاً ..

وقد اختبرهم الله بهذا ..

« ادخلوا الأرض المقدسة » قاتلوا مَن فيها .. وادخلوها ..

فأبوا .. فانكشفوا فوراً .. أنهم لا شيء ..

وقارن بين هؤلاء .. وبين أصحاب رسول الله .. صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر .. حين قال قائل منهم ..

« والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى (فاذهب أنت وربُّك

فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) .. ولكن اذهب أنت وربك فقـــاتلا إنا معكما مقاتلون » !.

فسُرَّ .. صلى الله عليه وسلم .. ثم قال .. سيروا .. وأبشروا ..

ها هنا ثبت أن هؤلاء فرسان ..

وإن أولئك أهل لحمل كلمة .. لا إله إلا الله ..

بينما أصحاب موسى .. أثبتوا أنهم لا شيء ..

ومن هنا كانت فرضية القتال .. لأنه المختبر الذي يكشف حقائق النفوس ..

وكما كانت بذْراً .. هي بدء تمدد أمواج النور في الأرض ..

فكل نصر بعد ذلك المسلمين .. كان امتداداً لتلك الشعاعة الأولى ..

كان موقف أصحاب موسى .. ظلمة أصابتهم مدى أربعين عاماً !..

حتى هلكوا جميعاً .. وتساقطت جثثهم في القفر ..

وشبَّ جيل جديد .. ليس في تكوينه هذا الجـُبن ..

فدخل من بعد ذلك .. الأرض المقدسة !..

قارون ... المجرم ... البليونير ؟!...

قال تعالى :

« ولقد ارسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين .

« الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحرٌ كذابٌ » .

ابتلى موسى .. بثلاثة من أكابر مجرميها .. ليمكروا فيها ..

فرعون .. رأس الكفر ..

وهامان .. رأس الإجرام ..

وقارون .. رأس النفاق السياسي .. وإجرام الأغنياء !..

أما فرعون .. وهامان . فقد تم القضاء عليهما .. بإغراقهما مع من غرق ..

وتم النصر لموسى .. على الكفر والإجرام ! .

بقي إجرام الأغنياء .. ونفاقهم السياسي . إجرام قارون !..

وتبدأ قصته .. حين كان ضمن بني اسرائيل في مصر ..

نظر قارون بعبقريته الشيطانية .. فرأى قومه ما بين ذليل وأسير ومُسخّر .. فهم في ليل لا آخر له ..

فاتخذ لنفسه خطاً سياسياً يخالفهم ..

فأظهر الولاء لفرعون ونظامه .. وناصب قومه العداء ..

وكان لموقفه هذا الذي يدل على خُبث ودهاء ..

أثره بأن أصبح بعيداً عن أرضاع بني اسرائيل الاضطهادية .. قريباً من السلطة .. مما مكنه من أن يكون رجـــلا غنياً .. ذا مصالح عديدة .. وثروات مديدة ..

والسُّلطة إذا وجدت رجـــلا خائناً لأعدائها من بين أعدائها .. تلقفته واستعملته في سياستها ضد أولئك الأعداء ..

لأنه ذو وجهين .. وجه الى السلطة .. ووجه إلى قومه .. فيمكن بذلك أن يلعب دوراً خطيراً في خدمة الدولة !..

وكان الرجل منافقاً عليماً .. يلعب لعبته ذات الوجهين في براعة ..

فمصالحه مع الدولة ميسرة .. وفرص الثراء أمامه مفتوحة .. فهو موضع.. وما ثقة الدولة وفرعون ..

وأموره كرجل من بني اسرائيل ماضية .. فهو منهم ومطلع على أسرارهم يدور بينهم ..

وبحكم ما كان فيـــه قومه في مصر من استضعاف وسُخرة وذل .. فهم لا يستطيعون له تقويماً .. لأنه مقرب من الدولة وزبانيتها ..

جمع الرجل نتيجة لهذه السياسة ثروة ضخمة وصفها القرآن :

« وآتيناه من الكنوز .

« ما ان مَفاتِحه لتنوء بالعصبة أولي القوة » ...

مفاتيح الخزائن .. تثقل على العصبة من الرجال الأشداء أولي القـــوة .. أن يحملوها !..

فكيف بالخزائن نفسها وما فيها ؟!.

ثم كان ما كان بين موسى وفرعون ..

وأمر فرعون بطرد بني اسرائيل جميعاً ..

وشمل هذا الأمر قارون .. باعتباره منهم ..

ووجدها قارون بنظرته السياسية البعيدة .. وإحساسه ان المجد السياسي القادم سوف يكون لموسى وبني اسرائيل .. وليس لفرعون وقومه .. وأنه قد استنفد أغراضه من فرعون وجمع ثروته من التقرب اليه ..

أما وقد جاءت الفرصة .. ليهرب بتلك الأموال الضخمة .. ليتنعم بها بعيداً عن فرعون وقومه ..

فهرب قارون .. وحمل معه تلك الكنوز كلها .. وسار مع بني اسرائيل ..

وكان ما كان من معجزة فلق البحر ..

وعبر قارون مع قومه الى خارج البحر .. ومعه كنوزه ..

ثم سار مع بني اسرائيل .. ومعه كنوزه التي لا يملك أحد منهم مثلها ..

ولا يبلغ موسى .. ولا هارون منها شيئاً ..

فهم فقراء .. وهو أغنى الأغنياء ..

فلماذا لا ينتزع الزعامة منهم .. وهو أولى بالزعامة من هذين الفقيرين ؟!.

إنهـا القصة الخالدة .. **« لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »** ؟!.

يريد الرجل .. أن يستعمل تلك الأموال الضخمة في تحقيق المجد السياسي .. ليجتمع له المجد من أطرافه !..

أما كون النبوة والرسالة .. تقوم على عناصر غير المال والجاه .. فهذا شيء لا يعنيه .. الموضوع عنده .. كما هو شأن الأغنياء .. لا يخرج عن كونها زعامة يمكن أن يصعد اليها بأمواله وكنوزه !..

وقد كان .. وبدأ ينظم الشغب والمعارضة ضد موسى !..

وفي هذا يقول أهل الكتاب :

« واخذ قورح .. وداثان وابيرام .. وأون .. يقاومون موسى مع اناس من بني اسرائيل مئتين وخمسين رؤساء الجماعة مدعوين للاجتماع ذوي اسم » .

لقد بدأت المؤامرة وعلى رأسها .. البليونير قورح .. أي قارون .. يقاومون موسى ؟!.

المعارضة تنظم صفوفها .. وقارون ينفث سمومه ..

مئتين وخمسين رؤساء الجماعة مدعوين للاجتماع ذوي اسم ؟!.

الإنسان هو الإنسان ..

٢٥٠ من الوجهاء في اجتماع .. ضد موسى وزعامته !..

ثم ماذا ؟!

« فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لهما كفاكما .

« ان كل الجماعة بأسرها مقدسة وفي وسطها الرب .

« فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب » .

لماذا تذهبان بالزعامة .. علينا جميعاً ؟!.

انها العقدة الخالدة .. عقدة الزعامة والرياسة !..

« فلما سمع موسى سقط على وجهه .

« ثم كلم قورح وجمع قومه قائلا غداً يعلن الرب من هو له ومن المقدس حتى يقربه اليه .

« فالذي يختاره يقربه اليه » .

التجأ موسى الى ربه .. ليفصل بينه وبين قارون وأتباعه ..

وحاول موسى أن يصلح من شأن الذين اشتركوا مع قارون .. ولكنهم رفضوا !..

« فارسل موسى ليدعو داثان وأبيرام ..

« فقالا لا نصعد .

« أقليل انك أصعدتنا من أرض تفيض لبنا وعسلا لتميتنا في البرية حتى تترأس علينا أيضاً ترؤسا .

« كذلك لم تأت بنا الى ارض تفيض لبنا وعسلا ولا أعطيتنا نصيب حقول وكروم .

« هل تقلع أعين هؤلاء القوم .

« لا نصعد » .

هكذا .. انهما يحملان موسى ما آل اليه أمر هـــذا الشعب الممزق في الصحراء .. نتيجة لسياسته الخرقاء .. وبعد هذا يريد أن يترأس عليهم ؟!.

هذا تمرد خطير .. لا يفصل فيه إلا الله ..

« فاغتاظ موسى جداً وقال للرب لا تلتفت الى تقدمتهما .

« حماراً واحداً لم آخذ منهم ولا أسأت الى أحد منهم .

« وقال موسى لقورح كن أنت وكل جماعتك أمـــام الرب انت وهُم وهارون غداً .

« وخذوا كل واحد مجمرته واجعلوا فيها بخوراً وقدموا أمام الرب كل واحد مجمرته .

« مئتين وخمسين مجمرة .

« وانت وهارون كل واحد مجمرته .

« فأخذوا كل واحد مجمرته وجعلوا فيها ناراً ووضعوا عليها بخوراً ووقفوا لدى باب خيمة الاجتماع مع موسى وهارون .

« وجمع عليهما قورح كل الجماعة الى باب خيمة الاجتماع فتراءى مجد الرب لكل الجماعة .

« وكلم الرب موسى وهارون قائلا افترزا من بين هذه الجماعة فاني أفنيهم في لحظة .

« فخرّا على وجهيهما وقالا اللهم إله أرواح جميع البشر هل يخطىء رجل واحد فتسخط على كل الجماعة .

« فكلم الرب موسى قائلا كلم الجماعة قائلا اطلعوا من حوالي مسكن قورح وداثان وأبيرام .

« فقام موسى وذهب الى داثان وأبيرام وذهب وراءه شيوخ اسرائيل .

« فكلم الجماعة قائلا اعتزلوا عن خيام هؤلاء القوم البغاة ولا تمسوا شيئاً مما لهم لئلا تهلكوا بجميع خطاياهم .

« فطلعوا من حوالي مسكن قورح وداثان وأبيرام وخرج داثان وأبيرام ووقفا في باب خيمتهما مع نسائهما وبنيهما وأطفالهما .

« فقال موسى بهذا تعلمون أن الرب قد أرسلني لأعمل كل هذه الاعمال وأنها ليست من نفسي .

« ان مات هؤلاء كموت كل انسان وأصابتهم مصيبة كل انسان فليس الرب قد أرسلني .

« ولكن ان ابتدع الرب بدعة وفتحت الارض فاها وابتلعتهم وكل ما لهم فهبطوا أحياء الى الهاوية تعلمون ان هؤلاء القوم قد ازدروا بالرب ».

ثم ماذا ؟!. ثم المشهد الرهيب !..

« فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الارض التي تحتهم وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل ما كان لقورح مع كل الاموال .

« فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء الى الهاوية وانطبقت عليهم الارض فبادوا من بين الجماعة .

« وكل اسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم .

« لأنهم قالوا لعل الارض تبتلعنا .

« وخرجت نار من عند الرب وأكلت المئتين والخمسين رجلا الذين قربوا البخور » !..

وهكذا تم القضاء على قارون .. وعلى الزعيمين اللذين قادوا معه الفتنة .. وعلى المئتين والخمسين الذين تجمعوا من حولهم !..

كل هذه التفاصيل .. وما وراءها مما يغيب عن عقول البشر .. أجملها وسجّلها .. كتاب الله العظيم .. القرآن العظيم .. فقال :

« ان قارون كان من قوم موسى فبَغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوءُ بالعصبة ُأولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين .

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين .

« قال انما أُوتيته على علم عندي أوَ لم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون .

« فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أُوتي قارون انه لذو حظ عظيم .

« وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خيرٌ لمن آمن وعمل صالحاً ولا يُلقاها إلا الصابرون .

« فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين .

« واصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون .

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

« فبغى عليهم » تجاوز حدّه في التكبر والتجبر عليهم ..

« وآتيناه من الكنوز » كنوز الأموال ..

« ما ان مفاتحه » جمع : مِفتح .. وهو الذي يُفتح به الأبواب ..

« لتنوءُ » لتثقل ..

« بالعصبة » الجماعة ما بين العشرة الى الأربعين ..

« لا تفرح » لا تبطر ولا تبغِ ..

« ان الله لا يحب الفرحين » الأشرين البطرين ..

« وابتغ فيما آتاك الله » التمس بما أعطاك من المال ..

« الدار الآخرة » خيرات الآخرة بالعمل بطاعة الله – عز وجل –

« ولا تنس نصيبك من الدنيا » لا تترك حظك منها .. أن تأخذ فيهـــا بنصيبك من الآخرة ، فتعمل فيها بما ينجيك غداً .

« وأحسِن كما أحسن الله اليك » أحسن في الإنفاق المالك لوجهه ، كما أحسن الله اليك ، فوسّع عليك منه ..

« إنما أوتيته » يعني : الكنوز ..

« على علم عندي » علمه الله مني ، فرضيَ بذلك عني ، وفضلني به عليكم ، لعلمه بفضلي عليكم ..

« ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون » يدخلون النار بغير حساب ..

« فخرج على قومه » خرج قارون على قومه ..

« في زينته » في ثياب حُمر ..

« لذو حظ عظيم » لذو نصيب من الدنيا عظيم ..

« وقال الذين أوتوا العلم » بالله ..

« ولا يُلقـّاها » لا يوفق لقبل هذه الكلمة ، وهي قوله (ثواب الله خير لمن آمن وعمِل صالحاً) ..

« إلا الصابرون » عن زينة الحيـــاة الدنيا .. المجدين في طاعة الله – عز وجل –

« فخسفنا به وبداره الأرض » به وبأهل داره .. ومن كان معه من جلسائه ورُوِي في خبر طويل اختصرناه: انه افترى على موسى – صلى الله عليه وسلم– فأخذه الله بعقوبة ذلك .

« فما كان له من فئة » جُند يرجع اليهم ..

« ينصرونه » يمنعونه من عذاب الله ..

« لولا أن مَنّ الله علينا » تفضل الله علينا ، فصرف عنـــا ما كنا نتمناه بالأمس ..

« ويكأنه » معناه : ألم ترَ أنه ؟..

« عُلـُوّاً في الأرض » تكبّراً عن الخلق ..

« ولا فساداً » ولا ظُلماً للناس بغير الحق ، وعملاً بالمعاصي ..

« والعاقبة » والجنة . .

« للمتقين » الخائفين الله – عز وجل – » .

هذا لون من التفسير المختصر عن الطبري ..

فماذا عند صاحب « لطائف الإشارات » ؟!

« ولا تنس نصيبك من الدنيا » ليس النصيب من الدنيا جمعها ولا منعها .. انما النصيب منهـــا ما تكون فيه فائدة بحيث لا يُعقب ندماً ، ولا يوجب في الآخرة عقوبة .

« ويقال النصيب من الدنيا .. ما يحمل على طاعته بالنفس .. وعلى معرفته بالقلب .. وعلى ذِكره باللسان .. وعلى مشاهدته بالسر ..

« وأحسِن كما أحسن الله اليك » إنما كان يكون منه حسنة لو آمن بالله .. لأن الكافر لا حسنة له .. والآية تدل على أن لله على الكافر نِعماً دنيوية ..

« والإحسان الذي أُمِر به انفاق النعمة في وجوه الطاعة والخـــدمة .. ومقابلته بالشكران لا بالكفران ..

« ويقال الإحسان رؤية الفضل .. دون توهّم الاستحقاق ..

« قال إنما أوتيته على علم عندي » ..

« ما لاحظ أحدٌ نفسه إلا هلك بإعجابه ..

« ويقال السمُّ القاتل ، والذي يطفىء السراج المضيء النظر إلى النفس بعين الإثبات .. وتوهُّم أن منك شيئاً من النفي أو الإثبات ..

« فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليتَ لنا مثل ما أوتيَ قارون انه لذو حظ عظيم » تمنى مَن رآه ممن كان في حب الدنيـــا ساواه .. أن يعطيه الله مثل ما أعطاه ..

« أما من كان صاحياً عن خمار غفلته ، متيقظاً بنور بصيرته فكان موقفهم :

« وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خيرٌ لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون » ..

« وبعد أن كان ما كان ، وخسفنا به وبداره الأرض قال هؤلاء :

« لولا أن مَنَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يُفلح الكافرون » .

« مَنَّ الله علينا فلم ننجرف في نهجه .. ولم ننخرط في سِلكه .. وإذاً لوقع بنا الهلاك ..

« أما المتمنُّون مكانه فقد ندموا .. وأما الراضون بقسمته — سبحانه — فقد سَلِموا .. سلموا في العاجل الى أن تظهر سعادتهم في الآجل .

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علُوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » ..

« قيل « العُلو في الدنيا » أن تتوهَّم أن على البسيطة أحداً هو شرٌّ منك ..

« والفساد » أن تتحرك لحظ نفسك ونصيبك .. ولو بنفَسٍ أو خطوةٍ .. وهذا للأكابر ..

« فأما الأصاغر والعوام .. فتلك الدار الآخرة « نجعلها للذين لا يريدون عُلوّاً في الأرض « كعلو فرعون .. « ولا فساداً » كفساد قارون ..

« ويقال الزهاد لا يريدون في الأرض عُلوّاً .. والعارفون لا يريدون في الآخرة والجنة علواً ..

« ويقال « تلك الدار الآخرة » للعُبّاد والزُّهاد .. وهذه الرحمة الحاضرة لأرباب الافتقار والانكسار » .

هذه لطائف .. صاحب « لطائف الإشارات » .. ثم ماذا ؟!.

ثم نقول .. في مطلع هذا الفصل .. قلنا أن موسى ابتلى بثلاثة من أكابر مجرميها ليمكروا فيها .

فرعون .. وهامان .. وقارون ..

لأن كل عتلّ منهم يمثل إجراماً معيناً .. يتكرر في البشرية إلى يوم القيامة ..

فرعون .. اجرام السلطة العليا ..

هامان .. اجرام السلطة التنفيذية ..

قارون .. اجرام الرأسماليين أي الأغنياء ..

وكلٌ منهم .. مجرم خطير ..

وهذا الثالوث .. هو الثالوث الذي يضاد دائماً .. كل صاحب دعوة جديدة .. أو فكرة للإصلاح ..

فرعون .. أو صاحب العرش .. يفعل كل شيء .. المحافظة على عرشه .. ولو اقتضى ذلك .. قتل النبي الذي يدعوه .. فهو يقتله ولا يبالي !..

« ذروني أقتل موسى » ..

هامان .. أو صاحب السلطة التنفيذية .. على استعداد دائماً للبطش الجهنمي الإجرامي .. خدمة لصاحب العرش .. « يا هامان ابن لي صرحاً » !..

قارون .. أو الرأسمالي .. أو الغني صاحب المصالح .. على استعداد دائماً .. لمحاربة أي نبي .. أو صاحب فكرة .. حفاظاً على مصالحه وثروته !..

« وما أرسلنا في قرية من نذير ..

« إلا قال مُترفوها إنا بما أُرسلتم به كافرون » !..

و « مترفوها » أي الرأسماليون .. أي « قارون » .. أي الأغنيـــاء وأصحاب المصالح !..

وهـــذا هو السر في ذكر ذلك الثالوث بالذات .. من دون سائر أعداء موسى .. وما أكثر أعداء موسى ..

لأن هؤلاء الثلاثة .. هم رءوس زوايا الإجرام !..

« وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الارض وما كانوا سابقين » .

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين .

« الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحرٌ كذّاب » !..

انظر . الثلاثة اتفقوا على اتهام واحد .. ساحرٌ كذّاب ؟!.

لأن العدو واحد .. الذي يتهددهم واحد .. والخطر عليهم واحد ..

إذاً فليرشقوه بإتهام موحّد !..

هذا من ناحية هذا الثالوث ..

وأن على كل نبي أو رسول .. يأتي قومه بدينٍ .. أن يستعد لأن يرشقه هؤلاء الثلاثة رشقاً .. ويقاوموه ما استطاعوا المقاومة ..

صاحب العرش .. فرعون ..

السلطة التنفيذية .. هامان ..

الرأسماليون .. قارون !..

ثم نعود .. إلى هذا المسمى .. قارون ..

ما هي عقدته .. التي جعل يتلوى على موسى من أجلها ؟!.

عقدته .. أنه أغنى بني اسرائيل ..

فهو أحق بالمُلك .. من موسى !..

إذاً .. لتكن المؤامرات .. لإسقاط موسى !..

ومن بعده .. من بعد قارون بمئات السنين .. قيلت « **أنى يكون له المُلك علينا .. ونحن أحق بالمُلك منه .. ولم يؤت سعة من المال** » ..

منطق الرأسماليين .. منطـــق المليونيرات .. فكيف وقارون من المليونيرات ؟!.

هو أحق بالمُلك من موسى ؟!.

ان هذا المال .. مصيبة .. أكبر مصيبة .. يُبتلى بها انسان !..

انه خمر ضارية .. تذهب بالعقول !..

موسى .. في نظر المذكور .. مجرد مَلِك .. أما النبوة والرسالة .. وقسمة الله لعباده .. فمسائل لا تعنيه ..

المهم .. موسى رئيس .. وهو يجب أن يكون رئيساً !..

ولعبت خمر الكنوز بعقل قارون .. فقام باستعراض القوة .. ليشعر الجميع مَن هو .. وما هي امكانياته ؟!.

« فخرجَ على قومه في زينته » استعراض الطاووس .. انظروا مَن أنا ؟!.

وفعلاً .. حقق غرضـــه .. فمالت اليه العيون .. وانحرفت نحوه نفوس الأغلبية .. والأكثرية من الشعب دائماً .. لا يعقلون !..

« قال الذين يريدون الحياة الدنيا » والأغلبية من الشعوب هكذا دائماً ..

« يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون » انهم يحترقون .. ويتمنون أن يكونوا في مثل أمواله وزينته ..

وهذه الموجة الجهنمية الحارقة .. ما زالت تتلظى من أفواه غالبية الشعوب فتراهم يحترقون غيظاً .. من المليونيرات .. ومن مظاهر الأبهة التي يعيشون !..

فهي موجة ممتدة في البشرية .. لا تنقطع إلا بانقطاع نوعية .. الذين يريدون الحياة الدنيا .. وهذا مستحيل .. فمستحيل إذاً أن تنقطع !..

وسرعان ما فلسفوا مذهبهم .. وأطلقوا قواعد المذهب !..

« انه لذو حظ عظيم » .. هذا هو الحظ العظيم .. وهذه هي الحياة .. فتبًّا للفقر ما أقبحه !..

أما الأقلية .. ودائماً في كل شعب .. العقلاء هم الأقلية ..

العلماء هم الأقلية .. فأعلنوا مذهبهم .. « ويلكم .. ثواب الله .. خيرٌ .. لمن آمن وعمل صالحاً !..

ولكن صوت هؤلاء .. يضيع دائماً .. وسط أصوات الغوغاء ..

فلا التفات من الأكثرية دائماً لمثل هذه المواعظ ..

فتأوهوا .. أولئك .. الذين أوتوا العلم .. تأوهوا .. « ولا يُلقّاها إلا الصابرون » !..

ومَن قال لهؤلاء أن أحداً .. ممن يريد الدنيا .. يرغب في هذا الصبر ؟!.

قضية خالدة .. متكررة في الإنسان أبداً ..

نظرة الذين يريدون الدنيا للأمور .. فالمال هو المعيار لكل شيء ..

ونظرة الذين يريدون .. وجه الله .. « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ..

والصراع مستمر بينهما . الى يوم القيامة ..

لذلك .. أراد الله أن يفصل في القضية علانية .. أمام بني اسرائيل .. كشعب .. كنموذج لكل شعب ..

لتكون .. مثلاً .. خالداً .. لجميع الشعوب .. وجميع النـــاس .. الى يوم القيامة ..

ففصل في القضية .. وحكم فيها .. ونفّذ الحكم فوراً ..

تصحيحاً للعقول .. وتبييناً للناس جميعاً .. وها هو الحُكم :

« **فخسفنا .. به .. وبداره .. الارض** » ..

وكأن منطوق الحكم :

« يُعدم .. قارون .. فوراً .. خسفاً ..

« وتعدم أمواله .. وكل ما يملك .. خسفاً » ! ..

وتجلجل قارون .. تحت الأرض .. فوراً ..

وهوت أمواله كلها معه ..

وانطبقت عليهم الأرض ..

كأن لم يكن هناك شيء اسمه قارون .. ولا شيء اسمه أموال قارون ! ..

ومَن قارون هذا .. وماذا تكون أمواله .. مهما بلغت ؟ !.

ان هناك قروناً .. أهلكت .. ملايين أبيدت . فمن يكون هذا القارون؟ !.

تجد الإشارة .. الى مثل تلك المعاني في قوله سبحانه :

« **أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة واكثر جمعاً ؟ !.**

فمن تكون أنت يا أيها القارون ؟ !.

قرّة .. من القرون ؟!.

ولنذيقنك مصداق ذلك .. ولنهلكنك .. لتكون عبرة لمن بعدك !..

ثم كشط الحجاب ..

ووري قارون وأمواله .. تحت الأرض ..

فلما كشط الحجاب .. ظهرت الحقيقة .. وتم تصحيح التفكير ..

فنطق الأغبياء .. من ضحايا الافتتان بالأغنياء ..

« ويكأن .. الله .. يبسط الرزق لمن يشاء .. من عباده .. ويقدر » ؟!.

فهموا الآن ما لم يكونوا يفهمون ..

بسط الرزق .. وتضييقه .. لا علاقة له .. بحقيقة معدن الإنسان ..

فليس قارون .. خيراً منهم .. لأنه أغنى ..

وليسوا هم شرّاً منه .. لأنهم أفقر ..

كلا .. انها قِسمة .. لها حكمة .. عند الله ..

وهكذا آتت التجربة ثمارها ..

وأينعت أزهارها ..

بقي أن نقول : لماذا كان عنوان هذا الفصل « قارون .. المجرم البليونير » ؟!. الجواب ...

تجد الإشارة الى اجرام .. قارون .. في قوله تعالى .. في سياق الرد على منطق قارون :

« ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون » !..

لقاء ... موسى ... والخضر ؟!...

في رأيي ...

ان هـــذا اللقاء .. يعتبر من أعلى .. وأغلى .. اللقاءات الخالدة في تاريخ البشر ..

لأنه لقاء القمة .. بين قطب الشريعة .. وقطب الحقيقة ..

بين عملاق الشريعة في عصره .. وعملاق الحقيقة في عصره ..

بين نبي رسول .. ونبي غير رسول ..

فهو أخطر لقاء .. وأعظم حوار ..

سجّله كتاب الله العظيم ..

وسجّله رسول الله .. صلى الله عليه وسلم ..

واستنبط منه العارفون .. واستخرج منه العلماء .. ودندن من حوله أهل الإشارة .. وأهل العبارة ..

وما زال الحديث عنه بكراً .. لما فيه من رموز وإشارات ..

لا يُلقاها إلا العالمون !..

أخرج البخاري .. في صحيحه .. أصح الصحاح :

« حدثنا أبيُّ بن كعب »

« عن النبي صلى الله عليه وسلم »

« أن موسى قام خطيباً في بني اسرائيل .

« فسئل . أيُّ الناس أعلم ؟

« فقال : أنا .

« فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم اليه .

« فقال له : بلى لي عبدٌ بمجمع البحرين هو أعلم منك .

« قال : أي رب ومَن لي به ؟

« وربما قال سفيان : أي رب وكيف لي به ؟

« قال : تأخذ حوتا فتجعله في مكتل حيثما فقدت الحوت فهو ثم .

« وربما قال : فهو ثمّة .

« وأخذ حوتا فجعله في مِكتل .

« ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون .

« حتى أتيا الصخرة وضعا رؤسهما .

« فرقد موسى واضطرب الحوت فخرج فسقط في البحر .

« فاتخذ سبيله في البحر سَربا .

« فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار مثل الطاق .

« فقال : هكذا مثل الطاق .

« فانطلقا يمشيان بقية ليلتهما ويومهما .

« حتى اذا كان من الغد قال لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا .

« ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيث امره الله .

« قال له فتاه : أرايت إذ أوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما انسانيه إلا الشيطان ان أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا .

« فكان للحوت سربا ولهما عجبا .

« قال له موسى : ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصا .

« رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا الى الصخرة .

« فاذا رجل مسجى بثوب .

« فسلم موسى فرد عليه .

« فقال : وانى بأرضك السلام ؟!

« قال : أنا موسى .

« قال : موسى بني اسرائيل ؟!

« قال : نعم أتيتك لعلمني مما عُلّمت رشداً .

« قال : يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه .

« وانت على علم من علم الله علمكه الله لا اعلمه .

قال : هل أتبعك ؟

قال : انك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تُحط به خُبراً؟! الى قوله إمراً .

« فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة كلموهم ان يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نَوَل .

« فلما ركبا في السفينة جاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة او نقرتين .

« قال له الخضر : يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر .

« إذ أخذ الفأس فنزع لوحا .

« قال : فلم يفجأ موسى إلا وقد قلع لوحا بالقدوم .

« فقال له موسى : ما صنعت ؟! قوم حملونا بغير نول عمدت الى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ؟! لقد جئت شيئا إمرا .

« قال : ألم أقل انك لن تستطيع معي صبرا ؟.

« قال : لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا .

« فكانت الأولى من موسى نسيانا .

« فلما خرجا من البحر مرّوا بغلام يلعب مع الصبيان فأخذ الخضر برأسه فقلعه بيده هكذا .

« وأومأ سفيان بأطراف أصابعه كأنه يقطف شيئا .

« فقال له موسى : أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا ؟.

« قال : ألم اقل لك انك لن تستطيع معي صبرا ؟.

« قال : ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا .

« فانطلقا حتى اذا أتيا اهل قرية استطعما اهلها فأبوا ان يضيّفوهما فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض مائلا .

« أومأ بيده هكذا .

« وأشار سفيان كأنه يمسح شيئاً الى فوق .

« فلم اسمع سفيان يذكر مائلا إلا مرّة .

« قال : قومٌ أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا عمدت الى حائطهم او شئت لاتخذت عليه اجراً ؟.

« قال : هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً .

« قال النبي صلى الله عليه وسلم : وددنا ان موسى كان صبر فقص الله علينا من خبرهما .

« قال سفيان : قال النبي صلى الله عليه وسلم : يرحم الله موسى لو كان صبر يُقصُّ علينا من أمرهما » .

« ومَن لي به » أي ومن يتكفل لي برؤيته ؟

« فهو ثمَّ » يشار به الى المكان البعيد .. أي فهو هناك ..

« مُسجّى » مغطى .

« وأنّى » أي من أين سلام في هذه الأرض التي أنت فيها إذ أهلها لا يعرفون السلام . .

« بغير نَوْل » بغير أجرة ..

هذا .. وننتقل الآن الى ما ورد في كتاب الله العظيم .. عن هذا اللقاء الكريم ..

« وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ .

« مجمع البحرين أو أمضي حُقبا .

« فلما بلغا مَجمعَ بينهما نسِيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا .

« فلما جاوزا قال لفتاه آتِنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا .

« قال أرءيت إذ أوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان ان أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا .

« قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا .

« فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً .

« قال له موسى هل اتبعك على أن تُعلّمنِ مما عُلّمت رشدا .

« قال انك لن تستطيع معي صبرا .

« وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا .

« قال ستجدني ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا .

« قال فان اتبعتني فلا تسئلني عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكراً .

« فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا .

« قال ألم أقل انك لن تستطيع معي صبرا .

« قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً .

« فانطلقا حتى اذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً .

« قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معي صبرا .

« قال ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا .

« فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما اهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد ان ينقض فأقامه قال لو شئت لتخذت عليه أجراً .

« قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا .

« أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا .

« واما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفر .

« فأردنا ان يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما .

« وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنزا لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك ان يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا » .

جمال .. ليس كمثله جمال !..

جلالٌ ليس كمثله جلال !..

كيف .. وهو كلام .. ذي الجلال والجمال ؟!.

موسى .. وما أدراك ما موسى ؟!.

والخِضر .. وما أدراك ما الخضر ؟!.

أي العظيمين أعلم ؟!.

ولكن السؤال خطأ فادح ..

لأن الخضر .. حدد القضية :

« يا موسى .. اني على علم .. من علم الله .. علمنيه الله .. لا تعلمه » !..

« وأنت على علم .. من علم الله .. علمكه الله .. لا أعلمه » ؟!.

جمال عجيب .. ان هؤلاء العظماء .. نطقهم جميل .. وحديثهم جليل !..

ليست المسألة .. مَن أعلم ..

ولكن المسألة .. كما حددها الخضر .. عليه السلام !..

هذا على علم .. لا يعلمه ذاك ..

وذاك على علم .. لا يعلمه هذا !..

موسى ؟!. صاحب مقام « وكلم الله موسى تكليما » .. والذي اصطفاه الله على الناس برسالاته وبكلامه .. والذي اصطنعه لنفسه ..

موسى ؟!. النبي الرسول .. أحد أولي العزم من الرسل ..

« يُرَقّى .. ويُرَبّى .. على يدي « عبداً من عبادنا .. آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » !..

فما هذا الأمر ؟!.

الأمر .. أن موسى سُئِل : أيُّ الناس أعلم ؟..

« فقال : أنا !..

« فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم اليه .

« فقال له : بلى .. لي عبدٌ .. بمجمع البحرين .. هو أعلم منك » !..

وكانت الأقصوصة الخالدة .. رُقِياً لموسى ..

وتعليما للخلق أجمعين ..

كل الناس تسأل : ما سر القدَر ؟!

ما هو التفسير .. لمـــا يجري في الكون من حوادث ووقائع لا نستطيع لها تفسيراً ؟!.

ولا جواب .. وستظل البشرية تسأل .. ولن تسمع جواباً !..

لماذا .. لماذا .. وما السر ؟!.

فأراد الله أن يرحم عباده .. فقص عليهم .. من أمر موسى والخضر .. ليتعلموا أن لكل شيء يقع في الكون حكمة .. يعلمها الله .. فينبغي التسليم لله .. واليقين بأنه أحكم الحاكمين !..

وموسى هنا .. في تلك الوقائع الثلاث .. يُمثل كل النـــاس .. وموقفهم من القدر ..

والخضر .. هنا .. يمثل الرد الصحيح على أسئلة كل الناس ..

روعة .. وعظمة .. ينبغي علينا جميعاً أن نتتلمذ عليها ..

لم يستطع موسى .. أن يصبر على رجـــل .. يخرق سفينة قوم حملوهما مجاناً ليغرقها ..

فكان الجواب : « اما السفينة .. فكانت لمساكين يعملون في البحر .. فاردت ان اعيبها .. وكان وراءهم ملك .. يأخذ كل سفينة غصباً » !..

هذا هو الجواب .. خرق السفينة يجعل هذا الملك يُعرض عن مصادرتها .. فتبقى للمساكين يرتزقون منها !..

هذا هو سر القدَر ..

ظاهر الفعلة .. أنها فعلة قبيحة .. ولكن سرها أنهـــا رحمة للمساكين فيما بعد !..

وكأين من واقعة تصدم أهلها في حين وقوعها .. ولو قد اطلعوا على سرها .. لسلموا تسليما ..

ونفذ صبر موسى .. في الواقعة الثانية .. وكاد يبطش بالخضر !..

طفل بريء جميل .. يقتله الخضر .. أبشع قتـــلة .. يقتلع رأسه فجأة .. هكذا ؟!.

ما هذا ؟!. هذا شيء فوق احتمال العقول !..

فكان الجواب : « وأما الغلام .. فكان أبواه مؤمنين .. فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا .

« فأردنا ان يبدلهما ربهما .. خيرا منه زكاة .. وأقرب رحما » !..

صحيح أن قتل طفل قبيح أشد القبح عقلا ..

ولكن السر .. أن هذا الطفل .. كان سيكون مجرماً وكافراً وفاجراً ..

فتم القضاء عليه .. رحمة بأبويه .. وتم استبداله بطفل آخر فيما بعد.. مؤمناً باراً بوالديه !..

ولكن هــذا يغيب عن العقول .. ويستلزم الاطلاع على الغيب الذي سوف يكون !..

الواقعة الثالثة .. أهل قرية لئام بُخلاء .. رفضوا إيواء موسى والخضر .. أو تقديم أي طعام اليهما ..

ثم ها هو الخضر يشغل نفسه بإصلاح جدار قديم وإعادة بنائه .. كأن لم يحدث منهم اساءة اليهما !..

ونفذ صبر موسى !..

فكان الجواب :

« وأما الجدار .. فكان لغلامين يتيمين في المدينة .. وكان تحته كنزهما .. فأراد ربك ان يبلغا أشدهما .. ويستخرجا كنزهما » !..

هذه نماذج ثلاث .. ليتعلم الناس جميعـــاً من خلالها .. سر القدَر .. وحكمة القدر !..

ولو قد صبر موسى .. لسمعنا عشرات النماذج في هذا السبيل ..

ولكن في هؤلاء الثلاث .. كفاية .. لمن أراد الدراية !..

موسى .. هنا يمثل الشريعة ..

والشريعة تنظيم لعلاقات الناس بربهم .. وبعضهم البعض ..

والخضر .. هنا يمثل الحقيقة ..

والحقيقة .. هي التخطيط العام .. الذي ينتظم جميع الخلق ..

ولا تناقض بين الشريعة .. والحقيقة ..

وإنما هما بحران يلتقيان ..

تجد الإشارة الى ذلك .. في قوله تعـــالى « **لا ابرح حتى ابلغ مجمع البحرين** » . .

بحر الشريعة .. وبحر الحقيقة ..

ومن عمل ببحر الشريعة .. دخل بحر الحقيقة .. حيث ينكشف له سر الشريعة الذي كان يغيب عنه من قبل ؟..

ثم ماذا ؟! . ثم انظر الى تلك الإشارة الجبارة .. الهدارة .. التي افتتح بها الخضر الرحلة المقدسة :

« **جاء عصفور .. فوقع على حرف السفينة .. فنقر في البحر نقرة .. أو نقرتين** » ..

نقرة .. اشارة الى علم موسى ..

ونقرة .. اشارة الى علم الخضر ..

والتقطها قطب الحقيقة .. وهؤلاء لهم في كل أمر يقع إشارة !..

« **يا موسى .. ما نقص علمي وعلمك من علم الله .. إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر** » !..

وكان هذا هو الدرس الأول الذي يُلقى الى موسى !..

أي .. علمك يا موسى .. وعلمي الذي جئت تطلبه .. لا شيء !..

ثم ماذا ؟!.. ثم اشعاعات تلك الواقعة .. لا نهاية لها !..

إنها بحر مديد .. يغرف منه العارفون .. كل حين .. بإذن ربهم ..

وإنما أثبتناها .. ها هنا .. لأنها جزء ثمين .. من حياة موسى .. على نبينا.. وعليه .. الصلاة والسلام !..

الوصايا ... العشر ؟!...

قال تعالى :

« قال تعالَوْا أتلُ ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون .

« ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي احسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون .

« وأن هذا صراطي مستقيا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون .

« ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي احسن وتفصيلا لكل شيء وهدًى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون » .

قيل : هذه هي الوصايا العشر .. لقوله « ذلكم وصاكم به » ثلاث مرات..

١ – ألا تشركوا به شيئاً .

٢ – وبالوالدين إحساناً ..

٣ – ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيام .

٤ – ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

٥ – ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق.

٦ – ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده .

٧ – وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها.

٨ – وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى .

٩ – وبعهد الله أوفوا .

١٠– وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُل فتفرّق بكم عن سبيله ..

هذه وصايا عشر .. وردت في القرآن العظيم ..

فهل هي التي كُتبت في الألواح التي جاء بها موسى .. الى بني اسرائيل .. وكتبها له الله ؟.

« وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمُر قومك يأخذوا بأحسنها » ؟!.

ماذا أولاً .. عند أهل الكتاب .. قبل الإجابة على السؤال ؟.

« في اليوم الذي وقفت فيه امام الرب إلهك في حوريب حين قال لي الرب اجمع لي الشعب فأسمعهم كلامي لكي يتعلموا ان يخافوني كل الأيام التي هم فيها احياء على الأرض ويعلموا اولادهم .

« فتقدمتم ووقفتم في اسفل الجبل والجبل يضطرم بالنار الى كبد السماء بظلام وسحاب وضباب .

« فكلمكم الرب من وسط النار وأنتم سامعون صوت كلام ولكن لم تروا صورة بل صوتا .

« وأخبركم بعهده الذي امركم ان تعلموا به الكلمات العشر وكتبه على لوحي حجر » .

وعن هذه الكلمات العشر قالوا :

« لا يكن لك آلهة اخرى امامي .

« لا تصنع لك تمثالا منحوتا صورة ما . . .

« لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا . .

« احفظ يوم السبت لتقدسه كما اوصاك الرب إلهك .

« ستة ايام تشتغل وتعمل جميع اعمالك .

« وأما اليوم السابع فسبتٌ للرب إلهك لا تعمل فيه عملا ما انت وإبنك وابنتك وعبدك وأمتك وثورك وحمارك وكل بهائمك ونزيلك الذين في ابوابك لكي يستريح عبدك وأمتك مثلك . .

« اكرم اباك وأمك كما اوصاك الرب إلهك .

« لا تقتل .

« ولا تزنِ .

« ولا تسرق .

« ولا تشهد على قريبك شهادة زور .

« ولا تشته امرأة قريبك ولا تشته بيت قريبك ولا حقله .

« هذه الكلمات كلم بها الرب كل جماعتكم في الجبل من وسط النار والسحاب والضباب وصوت عظيم ولم يزد .

« وكتبها على لوحين من حجر واعطاني إياها » .

والآن هل الوصايا التي ذُكرت في القرآن العظيم . . من قوله « قل تعالوا

أتلُ ما حرم ربكم عليكم .. الى قوله « ذلكم وصاكم به املكم تتقون » ..
هي الوصايا العشر التي ُكتبت في الألواح وجاء بها موسى الى بني اسرائيل ؟.

الحق .. أن الوصايا التي ذكرت بالقرآن العظيم .. هي وصايا مطلقة .. وإن كانت تتلاقى مع بعض الوصايا العشر التي كتبت في الألواح ..

وصـــايا الألواح .. كانت تمهيداً .. للتوراة .. التي فصلت لبني اسرائيل كل شيء ..

أما الوصايا التي وردت في كتاب الله العظيم .. فهي وصايا مطلقة للجميع .. وإن اشتملت على كثير مما ورد في الألواح ..

فالقول بأن وصايا القرآن العظيم .. الواردة بآخر سورة الأنعام .. هي الوصايا العشر التي كتبت في الألواح لموسى .. قول يبعد كثيراً عن الحقيقة ..

وإنما الحق ان يقال .. أن وصايا الألواح شيء .. ووصايا سورة الأنعام شيء عام .. وإن اشتملت على كثير مما في وصايا الألواح ..

والله أعلم !..

إنا ... أنزلنا ... التوراة ؟!...

قال تعالى :

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدًى ونورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشونِ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .

« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .

« وقفَّينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدًى ونور ومصدقاً لمـــا بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين .

« وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون .

« وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في

ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعـــا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

هذا شيء عجيب !..

هل هو إعجاز .. أم هو اعجاز الإعجاز ؟!.

كيف يمكن أن يُجمع هذا كله في سطور ؟!.

الكتب السماوية .. التي أنزلت من عنـــد الله .. التوراة .. الإنجيل .. القرآن .. تُستعرض كلها .. ومدى ترابطها بعضها ببعض .. وأنها كلها من إله واحد .. يكمل بعضها بعضا .. وآخر كتاب منهـــا القرآن .. مهيمناً على ما سبقه من الكتب .. ومصدقاً لها .. كل ذلك .. بل وما وراء ذلك .. في سطور معدودة .. وإيجاز في اعجاز !..

هل هذا يُستطاع لأحد ؟!.

كلا .. وإنما هو كلام الله !..

التوراة .. التي أنزلت على موسى ..

أول كتاب شامل جامع .. أنزله الله الى الناس ..

التوراة .. المرجع المقدس لأهل الكتاب من اليهود .. والنصارى .. الى يومنا هذا .. في التشريع السماوي ..

لأن المسيح .. عليه السلام .. لم ينقضها .. وإنما أكملها ..

كيف أذاعها موسى .. عليه السلام .. وكيف سلمها الى بني اسرائيل ؟!.

قال أهل الكتاب :

« ودعا موسى جميع اسرائيل وقال لهم :

« أنتم شاهدتم ما فعل الرب أمام أعينكم في أرض مصر بفرعون وبجميع عبيده وبكل أرضه .

« التجارب العظيمة التي أبصرتها عيناك وتلك الآيات والعجائب العظيمة .

« ولكن لم يعطكم الرب قلباً لتفهموا وأعيناً لتبصروا وآذانا لتسمعوا الى هذا اليوم .

« فقد سرت بكم أربعين سنة في البرية لم تبل ثيابكم عليكم ونعلك لم تبل على رجلك .

« لم تأكلوا خبزاً ولم تشربوا خمراً ولا مسكراً لكي تعلموا أني أنا الرب إلهكم » ..

« فاحفظوا كلمات هذا العهد واعملوا بها لكي تفلحوا في كل ما تفعلون .

« أنتم واقفون اليوم جميعكم أمام الرب إلهكم رؤساؤكم أسباطكم شيوخكم وعرفاؤكم وكل رجال اسرائيل .

« وأطفالكم ونساؤكم وغريبكم الذي في وسط محلتكم ممن يحتطب حطبكم الى من يستقي ماءكم .

« لكي تدخل في عهـــد الرب إلهك وقسَمه الذي يقطعه الرب إلهك معك اليوم » ..

« فذهب موسى وكلم بهذه الكلمات جميع اسرائيل ،

« وقال لهم :

« أنا اليوم ابن مئة وعشرين سنة ،

« لا أستطيع الخروج والدخول بعد والرب قد قال لي لا تعبر هذا الأردن » . .

« فدعا موسى يشوع وقال له أمام أعين جميع اسرائيل :

« تشدد وتشجع لأنك أنت تدخل مع هذا الشعب الأرض التي أقسم الرب لآبائهم أن يعطيهم اياها وأنت تقسمها لهم » . .

« وكتب موسى هذه التوراة وسلمها للكهنة بني لاوي حاملي تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ اسرائيل .

« وأمرهم موسى قائلا في نهاية السبع السنين في ميعاد سنة الابراء في عيد المظال حينما يجيء جميع اسرائيل لكي يظهروا أمام الرب إلهك في المكان الذي يختاره تقرأ هذه التوراة أمام كل اسرائيل في مسامعهم .

« اجمع الشعب الرجال والنساء والاطفال والغريب الذي في أبوابك لكي يسمعوا ويتعلموا ان يتقوا الرب إلهك ويحرصوا ان يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة » .

« فعندما كمّل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب الى تمامها .

« أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلا خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم .

« لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة .

« هو ذا وأنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحري بعد موتي » . .

« فأتى موسى ونطق بجميع كلمات هذا النشيد في مسامع الشعب هو ويشوع بن نون .

« ولما فرغ موسى من مخاطبة جميع اسرائيل بكل هذه الكلمات قال لهم وجهوا قلوبكم الى جميع الكلمات التي أنا أشهد عليكم بها اليوم لكي توصوا بها أولادكم ليحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة .

« لأنها ليست أمراً باطلا عليكم بل هي حياتكم » .

هذه مقتطفات سريعة .. مما عند أهل الكتاب .. عن كيفية إذاعة موسى التوراة على بني اسرائيل .. وكيف أوصاهم بالعمل بما فيها لأنها حياتهم ..

أما التوراة نفسها .. وما جاء بها .. فيمكن لمن شاء التفصيل أن يرجع الى مراجع أهل الكتاب !..

موت ... هارون ... ثم موسى !؟...

قال أهل الكتاب :

« فصعد هارون الكاهن الى جبل ُهورٍ حسب كلام الرب ومات هناك في السنة الأربعين لخروج بني اسرائيل من أرض مصر في الشهر الخامس في الاول من الشهر .

« وكان هارون ابن مئة وثلاث وعشرين سنة حين مات في جبل هور ».

هذا عن موت هارون .. عليه السلام ..

فماذا عندهم .. عن موت موسى .. عليه السلام ؟!

« وكلم الرب موسى .. قائلا :

« اصعد الى جبل َعباريم َهذا جبل َنبُو الذي في أرض ُموآب الذي قبالة أريحا وانظر أرض كنعان ..

« ومُت في الجبل الذي تصعد اليه وانضم إلى قومك كما مات هارون أخوك في جبل هور وضُم الى قومه » .

« فانك تنظر الارض من قبالتها ولكنك لا تدخل الى هناك » ..

« وصعد موسى من عربات ُموآت الى جبل َنبُو الى رأس الفِسْجة الذي قبالة أريحا فأراه الرب جميع الارض ..

« وقال له الرب هذه هي الارض التي أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلا لنسلك أعطيها .

« قد أريتك اياها بعينيك ولكنك الى هناك لا تعبر .

« فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مُوآب حسب قول الرب .

« ودفنه في الجواء في ارض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف انسان قبره الى هذا اليوم .

« وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات ولم تكلّ عينه ولا ذهبت نضارته .

« ويشوع بن نون كان قد امتلأ بروح حكمة إذ وضع موسى عليه يديه فسمع له بنو اسرائيل وعملوا كما أوصى الرب موسى .

« ولم يقم بعد نبي في اسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجها لوجه في جميع الآيات والعجائب التي أرسله الرب ليعملها في ارض مصر بفرعون وبجميع عبيده وكل أرضه .

« وفي كل اليد الشديدة وكل المخاوف العظيمة التي صنعها موسى » ..

ومات موسى .. صلى الله عليه وسلم ..

على رمْيَة حجر من الأرض المقدسة ..

« واختلف أهل السير في موضع قبره .

« والأصح انه بالتيه .. قدر رمية حجر » » من الارض المقدسة » ! ..

موسى ... في ... السماء السادسة ؟!...

لئن كانت حياة موسى

سلسلة متواصلة من المعجزات الخوارق .. من مولده .. حتى مماته ..

فإن المرء ليدهش .. ان يجد معجزة واحدة .. مَنَّ الله بها .. على رسوله .. محمد .. صلى الله عليه وسلم .. تفوق جميع المعجزات التي أوتيها موسى .. صلى الله عليه وسلم !..

وأعني بتلك المعجزة .. معجزة الإسراء .. والمعراج ..

تلك التي طُوِيَ الكون كله .. بزمانه ومكانه .. لمحمد فيها .. فرآه من أوله الى آخره .. ثم كان قاب قوسين أو أدنى .. من ربه تبارك وتعالى ..

« سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه مِن آياتنا إنه هو السميع البصير » .

وبعدها مباشرة يقول :

« وآتينا موسى الكتاب » ..

اشارة عجيبة .. كأنه يراد أن يقال .. يهركم موسى .. بمعجزاته المتتابعة .. فانظروا الى تلك المعجزة الكبرى .. معجزة الإسراء والمعراج .. كيف طوَت جميع معجزات موسى طيا .. كما التقمت عصا موسى كل ما ألقاه السحرة !..

كيف كانت تلك المعجزة .. وماذا حدث فيها ؟..

أخرج البخاري في صحيحه :

« قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« بينا انا عند البيت بين النائم واليقظان .

« وذكر يعني رجلا بين الرجلين .

« فأُتيتُ بطست من ذهب مُلوءَ حكمة وإيمانا .

« فشق من النحر الى مراق البطن .

« ثم غسل البطن بماء زمزم .

« ثم مُلوء حكمة وإيمانا .

« وأُتيت بدابة ابيض دون البغل وفوق الحمار البراق .

« فانطلقت مع جبريل حتى أتينا السماء الدنيا .

« قيل : من هذا ؟

« قال : جبريل .

« قيل : ومن معك ؟

« قيل : محمدٌ .

« قيل : وقد أُرسل اليه ؟

« قال : نعم .

« قيل : مرحباً به ولنعم المجيء جاء

« فاتيت على آدم فسلمت عليه .

« فقال : مرحباً بك من ابن ونبي .

« فأتينا السماء الثانية .

« قيل : من هذا ؟

« قال : جبريل .

« قيل : من معك ؟

قال : محمد صلى الله عليه وسلم .

« قيل : أرسل اليه ؟

« قال : نعم .

« قيل : مرحباً به ولنعم المجيء جاء .

« فأتيت على عيسى ويحيى .

« فقالا : مرحباً بك من أخ ونبي .

« فأتينا السماء الثالثة .

« قيل : من هذا ؟

« قيل : جبريل .

« قيل : من معك ؟

« قال : محمدٌ .

« قيل : وقد أرسل اليه ؟

« قال : نعم .

« قيل : مرحباً به ولنعم المجيء جاء .

« فأتيت يوسف فسلمت عليه .

« قال : مرحباً بك من أخ ونبي .

« فأتينا السماء الرابعة .

« قيل : من هذا ؟

« قيل : جبريل .

« قيل : من معك ؟

« قيل : محمد صلى الله عليه وسلم .

« قيل : وقد ارسل اليه ؟

« قال : نعم .

« قيل : مرحبا به ولنعم المجيء جاء .

« فاتينا على ادريس فسلمت عليه .

« فقال : مرحبا بك من أخ ونبي .

« فأتينا السماء الخامسة .

« قيل : من هذا ؟

« قيل : جبريل .

« قيل : ومن معك ؟

« قيل : محمد صلى الله عليه وسلم .

« قيل : وقد ارسل اليه ؟

« قيل : مرحبا به ولنعم المجيء جاء .

« قال : نعم .

« فأتينا على هارون فسلمت عليه .

« فقال : مرحبا بك من أخ ونبي .

« فأتينا على السماء السادسة .

« قيل : من هذا ؟

« قيل : جبريل .

« قيل : من معك ؟

« قيل : محمد صلى الله عليه وسلم .

« قيل : وقد أُرسل اليه ؟

« مرحبا به ولنعم المجيء جاء .

« فأتيت على موسى فسلمت عليه .

« فقال : مرحبا بك من أخ ونبي .

« فلما جاوزت بكى .

« فقيل : ما أبكاك ؟

« قال : يا رب هذا الغلام الذي بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتي ؟!

« فأتينا السماء السابعة .

« قيل : من هذا ؟

« قال : جبريل .

« قيل : من معك ؟

« قيل : محمدٌ .

« قيل : وقد أرسل اليه ؟

« مرحبا به ونعم المجيء جاء .

« فأتيت على ابراهيم فسلمت عليه .

« فقال : مرحبا بك من ابن ونبي .

« فرُفعَ لي البيت المعمور .

« فسالت جبريل .

« فقال : هذا البيت المعمور يصلّي فيه كل يوم سبعون ألف مَلَك إذا خرجوا لم يعودوا اليه آخِرَ ما عليهم .

« ورُفعت لي سدرة المنتهى فاذا نبقها كأنه قلال هجر وورقها كأنه آذان الفيُول في اصلها اربعة أنهار نهران باطنا ونهران ظاهران .

« فقال : أما الباطنانِ ففي الجنة .

« وأما الظاهران النيل والفرات .

« ثم فرضت عليّ خمسون صلاة .

« فاقبلت حتى جئت موسى .

« فقال : ما صنعت ؟

« قلت : فرضت عليّ خمسون صلاة .

« قال : أنا أعلم بالناس منك ، عالجت بني اسرائيل أشد المعالجة ، وان أمتك لا تطيق ، فارجع الى ربك فسله .

« فرجعت ، فسألته .

« فجعلها أربعين .

« ثم مثله .

« ثم ثلاثين .

ثم مثله .

« فجعل عشرين .

« ثم مثله .

« فجعل عشراً .

« فأتيت موسى .

« فقال : مثله .

« فجعل خمساً .

« فأتيت موسى .

« فقال : ما صنعت ؟

« قلت : جعلها خمساً .

« فقال : مثله .

« قلت : سلمت بخير .

« فنوديَ : اني قــــد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي وأجزي الحسنة عشراً » .

قالوا :

« الصحيح انه أُسري بالجسد والروح في القصة كلها .. وعليه يدل قوله تعالى (سبحانه الذي أسرى بعبده) إذ لو كان مناماً لقال بروح عبده ولم يقل بعبده ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة الى التأويل إلا عند الاستحالة ..

« ما ذُكر من شق الصدر .. واستخراج القلب .. وما يجرى مجراه .. فإن السبيل في ذلك التسليم .. دون التعرض بصرفه الى وجه يتقوله متكلف .. ادعاء للتوفيق بين المنقول والمعقول ..

« البراق : اسم للدابة التي ركبها صلى الله عليه وسلم تلك الليلة .. وقالوا اشتقاقه من البَرق .. لسرعته .. وقيل سمي به لشدة صفائه وتلألؤ لونه .. وقالوا البُراق دابة أبيض وفي فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه .. يضع حافره في منتهى طرفه ..

« ذكر أهل السير والمفسرون انه لما ركب البراق أتى الى بيت المقدس ومعه جبريل عليه الصلاة والسلام .. ولما فرغ أمره فيه .. نُصب له المعراج وهو السلم .. وصعد فيه الى السماء .. ولم يكن الصعود على البراق كما يتوهمه بعض الناس .. بل كان البراق مربوطاً على باب مسجد بيت المقدس حتى يرجع عليه الى مكة ..

« (وقد أرسل اليه ؟) أي أطلِب وأُرسِلَ اليه .. وفي رواية أخرى .. وقد بُعث اليه للإسراء وصعود السماوات .. وقيل كان سؤالهم للاستعجاب بما أنعم الله عليه .. أو للاستبشار بعروجه .. إذ كان من البين عندهم ان أحداً من البشر لا يترقى الى أسباب السماوات من غير أن يأذن الله له .. ويأمر ملائكته بإصعاده .. وان جبريل عليه الصلاة والسلام لا يصعد بمن لم يرسل اليه .. ولا يفتح له أبواب السماء ..

« (مرحباً به) أي بمحمد .. ومعناه لقي رحباً وسعة .. وقيل معناه .. رحب الله به مرحبا .. فجعل مرحبا موضع الترحيب ..

« (ولنعم المجيء جاء) أي جاء فلنعم المجيء مجيئه ..

« (فأتيت على آدم فسلّمت عليه) .. وأمر بالتسليم عليهم .. أي على الأنبياء الذين لقيهم في السماوات .. وعلى خزان السماوات وحراسها .. لأنه كان عابراً عليهم ..

« (فلما جاوزتُ بكى) قالوا : كان بكاؤه صلى الله عليه وسلم .. لأجل

الرقة لقومه .. والشفقة عليهم .. حيث لم ينتفعوا بمتابعته انتفاع هذه الأمة بمتابعة نبيهم .. ولم يبلغ سوادهم مبلغ سوادهم ..

« (يا رب هذا الغلام) لم يرد موسى عليه السلام بذلك استقصار شأنه .. فإن الغلام قد يُطلق ويُراد به القويّ الطريّ الشاب .. والمراد منه استقصار مدته .. مع استكثار فضائله .. وأمته أتم سواد من أمته ..

« وقال الخطابي : قوله (الغـــلام) ليس على معنى الازراء والاستصغار لشأنه .. انما هو على تعظيم مِنّة الله عليه .. مما أناله من النعمة .. وأتحفه من الكرائم .. من غير طول عمر أفناه مجتهداً في طاعته ..

« (فرُفِع لي البيت المعمور) أي كُشِف لي .. وقُرِّب مـــني .. كأنه أراد أن البيت المعمور ظهر له كل الظهور .. وكذلك سدرة المنتهى .. استبينت له كل الاستبانة .. حتى اطلع عليها كل الاطلاع ..

« (آخر ما عليهم) ذلك آخر ما عليهم من دخوله ..

« (ورُفِعت لي سدرة المنتهى) سميت بها .. لأن علم الملائكة ينتهي اليها .. ولم يجاوزها أحد .. إلا رسول الله .. صلى الله عليه وسلم ..

« (نهران باطنان) قيل : هما السلسبيل والكوثر ..

« (نهران ظاهران) النيل والفرات .. قيل : يخرجان من أصلها .. ثم يسيران حيث أراد الله تعالى .. ثم يخرجان من الأرض ويجريان فيها ..

« (عالجت بني اسرائيل) أي مارستهم .. ولقيت منهم الشدة .. فيما أردت منهم من الطاعة ..

« فارجع الى ربك) أي الى الموضع الذي ناجيت ربك فيه ..

« (فرجعتُ) أي الى موضع مناجاتي .

« (فسألته) أي فسألت الله التخفيف ..

(فجعلها) أي فجعل الفريضة التي قدرها أربعين صلاة ..

« (ثم مثله) أي ثم قال موسى صلى الله عليه وسلم .. مثله ..

« ثم ثلاثين) أي ثم جعلها ثلاثين صلاة ..

« ثم مِثله) أي ثم قال موسى صلى الله عليه وسلم مثله ..

« (فجعل عشرين) أي عشرين صلاة ..

« (ثم مِثله) أي ثم قال موسى صلى الله عليه وسلم مثله ..

« (فجعل عشرا) أي عشر صلوات ..

« (فأتيتُ موسى) أي في الموضع الذي لقيته فيه .. فقال موسى أيضاً مثله ..

« فجعله خمسا) أي خمس صلوات ..

« (فقال : ما صنعتَ ؟) أي فقال موسى صلى الله عليه وسلم : ماذا صنعت فيما رجعت ؟.. وهذه هي المراجعة الأخيرة ..

« (قلتُ : جعلها خمسا) أي خمس صلوات .

« (فقال : سلمت بخير) أي فقال النبي صلى الله عليه وسلم .. لموسى صلى الله عليه وسلم .. سلّمتُ .. سلّمتُ له .. ما جعله من خمس صلوات .. فلم يبق لي مراجعة .. لأني استحييت من ربي .. كما مضى في حديث أبي ذر في أول كتاب الصلاة .. من قوله (ارجع الى ربك ، قلتُ : استحييت من ربي » .. يعني من تعدد المراجعة ..

« (فنُودِيَ) أي فجاء النداء من قبل الله تعالى .. اني قد أمضيت فريضتي .. أي أنفذت فريضتي .. بخمس صلوات .. وخففتُ عن عبادي .. من خمسين الى خمس .. وأجزي الحسنة عشرا .. فيحصل ثواب خمسين صلاة .. لكل صلاة ثواب عشر صلوات .

« فإن قلتَ : كيف جازت هـــذه المراجعة في باب الصلاة .. من رسولنا محمد .. وموسى .. عليهما الصلاة والسلام ؟.

« قلتُ : لأنهما عرفا ان الأمر الأول غير واجب قطعاً .. ولو كان واجباً قطعاً .. لا يقبل التخفيف » .

* * *

والتقى الرسولان .. العظيمان .. الكريمان .. صلى الله عليهما وسلم .. لقاء سماوياً .. عالياً جميلا !..

أما رسولنا .. صلى الله عليه وسلم .. فكان ما زال في الحياة الدنيا حياً .. وعُرج به الى السماوات العُلى ..

وأما موسى .. صلى الله عليه وسلم .. فكان قد مات .. وغادر الحيـــاة الدنيا .. منذ مئات السنين ..

ولكنهما التقيا ؟!!

كيف كان ذلك ؟!.

الجواب الفذ .. لأن الله شاء ذلك !..

والجميل والجليل .. ان موسى .. عليه السلام .. بعد أن رحب برسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. أحسن ترحيب ..

جاوزه .. صلى الله عليه وسلم ..

« فلما .. جاوزت .. بكى ..

فجعل موسى .. يبكي ..

وها هنا تبرز صفة عليا .. من صفات الكليم .. صلى الله عليه وسلم ..

ان ظاهره كباطنه .. وباطنه كظاهره ..

وهي الصفة التي كانت بارزة في عمر بن الخطاب .. رضي الله عنه ..

« ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » – أو كما قال –

لم يستطع موسى أن يخفي ما ثار في باطنه ..

وكان هذا شأنه .. في الحياة الدنيا ..

« فقيل : ما أبكاك » ؟

« قال : يا رب .. هذا الغلام .. الذي بعث بعدي .. يدخل الجنة من أمته .. أفضل مما يدخل من أمتي » ؟!.

جميلة جداً .. من موسى !..

هذا الغلام ؟!.

هذا الشاب .. رغم قصر عمره .. فإن الخير العظيم .. الذي أعطيته وأعطيت أمته .. يفوق أضعاف أضعاف ما أعطيتني ؟..

ملايين من أمته يدخلون الجنة ..

وأتباعي لا يبلغون هذا العدد الوفير ؟!..

جمال عجيب .. حقائق عليا .. منكشفة لهم .. في ذلك العالم .. عالم البرزخ .. عالم السماوات !..

إلا أن ما هو أهم وأعم وأشمل .. هو موقف موسى ..

حين عاد .. صلى الله عليه وسلم ..

فقال له موسى : ما صنعت ؟.

« فرضت عليّ خمسون صلاة » !.

وها هنا تظهر صفات موسى العليا .. مرة أخرى ..

« أنا أعلم بالناس منك » !..

تماماً .. كما سارع الى مَن سأله : أي الناس أعلم ؟.. فقال : أنا .. فكانت قصته مع الخِضْر .. عليهما السلام !..

ومعلوم .. أن رسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. أعلم منه .. وهو يعلم هذا .. ولكنه يتكلم عن جزئية من العلم .. وهي خبرته الطويلة مع تمرد بني إسرائيل !..

« عالجت بني اسرائيل .. أشد المعالجة ..

« وإن أمتك لا تطيق ..

« فارجع الى ربك ..

« فسله » ! ..

ثم كان .. ما كان .. من تردده .. صلى الله عليه وسلم .. بين ربه .. وبين موسى .. صلى الله عليه وسلم .. حتى « فنوديَ ..

« اني قد أمضيت فريضتي .

« وخففت عن عبادي .

« وأجزي الحسنة عشراً » !..

ماذا في هذا من إشارات عظيمات ؟..

فيه .. أن الأنبياء درجات .. كل ينزل منزلته عند ربه ..

وأن هارون .. عليه السلام .. في السماء الخامسة ..

وأن موسى .. عليه السلام .. في السماء السادسة ..

ليس بعده عُلوّاً .. إلا ابراهيم .. عليه السلام .. في السابعة ..

وأن معجزة الإسراء .. ثم المعراج .. هي معجزة المعجزات ..

أو كبرى المعجزات ..

وأن ما أكرم به .. صلى الله عليه وسلم .. فيهـــا .. وراء العقول .. ووراء الإدراك ..

فقد أطلعه الله تعالى .. فيهـــا على كل شيء .. عياناً .. في أقل من لمح بالبصر ..

أي ُطويَ له كل شيء طياً !..

فإن كان موسى .. صـــلى الله عليه وسلم .. قيل له « انك بالوادِ المقدس طوى » ..

فإن محمداً .. صـــلى الله عليه وسلم .. ُطويَ .. له .. كل ما كان .. وما كائن .. وما سوف يكون !..

سبحان .. الذي أسرى .. بعبده !..

احتج ... آدم ... وموسى ؟!...

وأخرى ...

أجمل .. وأبهج .. في عالم السماء .. بين آدم .. وموسى ..

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« احتج آدم وموسى .

« فقال له موسى : أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة ؟

« فقال له آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ثم تلومني على أمر قدّرَ عليّ قبل أن أُخلق ؟!

« فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فحج آدم موسى .

« مرّتين » .

[أخرجه البخاري]

« احتج موسى وآدم : أي تحاجا .. اما أن تكون أرواحها تحاجت .. أو يكون ذلك يوم القيامة .. والأول أظهر ..

« خطيئتك : أي الأكل من الشجرة المنهى عنها بقوله (لا تقربا هــذه الشجرة) . .

« الذي اصطفاك الله : أي جعلك صافياً خالصاً عن شائبة ما لا يليق بك..

« ثم تلومني : وفي رواية : بِمَ تلومني ..

« فحجّ آدم : أي غلبه بالحجة وظهر عليه ..

« أي غلب عليه بالحجة بأن ألزمه ان جملة ما صدر عنه لم يكن مستقلا بها. متمكناً من تركها .. بل كان أمراً مقضياً ..

« وقيل : انما حجّة آدم .. في رفع اللوم .. إذ ليس لأحد من الآدميين أن يلوم أحداً به .. وأما الحكم الذي تنازعاه فإنما هما في ذلك سواء .. إذ لا يقدر أحد أن يسقط الأصل الذي هو القدَر .. ولا أن يبطل الذي هو السبب .. ومن فعل واحداً منهما خرج عن القصد الى أحد الطرفين مذهب القدر أو الجبر ..

« وفي قول آدم استقصار لعلم موسى .. أي إذ جملك الله بالصفة التي أنت عليها من الاصطفاء بالرسالة والكلام .. فكيف يسعك أن تلومني على القدر .. الذي لا مدفع له ؟!

« وقال النووي : معناه انك تعلم أنه مقدر فلا تلمني .

« وأيضاً .. اللوم شرعي لا عقلي .. وإذا تاب الله عليه .. وغفر له زال عنه اللوم .. فمن لامه كان محجوجا بالشرع ..

« فإن قيل : فالعاصي منا ، لو قال : هذه المعصية كانت بتقدير الله تعالى.. لم تسقط عنه الملامة ؟

« قلنا : هو باق في دار التكليف .. جار عليه احكام المكلفين .. وفي لومه زجر له ولغيره ..

« وأما آدم .. فميت .. خارج عن هذه الدار .. وعن الحاجة إلى الزجر.. فلم يكن في هذا القول فائدة .. سوى التخجيل ونحوه ..

« وقيل : ليس معنى قول آدم عليه الصلاة والسلام (كتب الله عليّ) ألزمه إياه وأوجبه عليّ .. فلم يكن لي في تناول الشجرة كسب واختيار ..

وإنما المعنى أثبته في أم الكتاب .. قبل كوني.. وحكم بأن ذلك كائن لا محالة.. لعلمه السابق .. فهل يمكن أن يصدر عني خلاف علم الله ؟.. فكيف تغفل عن العلم السابق وتذكر الكسب الذي هو السبب .. وتنسى الأصـــل الذي هو القدر .. وأنت ممن اصطفاك الله من المصطفين الأخيار .. الذين يشاهدون سر الله من وراء الأستار ؟!.

وكان لقاءً رائعاً جميلاً ..

بين آدم .. وموسى ..

أو بين الأب .. والابن ..

وغلب آدم .. موسى ..

وسلَّمَ موسى تسليما !..

صورة ... موسى ؟!...

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ليلة أُسريَ بي •

« رأيت موسى •

« وإذا هو رجل ضرب رجل كأنه من رجال شنوءة » ••

« رأيتُ » لعل صورهم كانت كذلك .. أو صُور أبدانهم .. كوشفت له .

« ضَربٌ » أي نحيف .. خفيف اللحم ..

« شَنُوءَة » هو حيّ من اليمن ..

« شبّه موسى في حديث البـــاب .. كأنه من رجال شنوءة .. يعني في الطول ..

« وفي حديث ابن عمر بقوله (كأنه من رجـــال الزطّ) يعني في الطول أيضاً لأن الزط جنس من السودان والهنود الطوال » .

« وذكر النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أُسريَ به :

« فقال : موسى آدم طُوال •

« كأنه من رجال شنوءة » •

[أخرجها البخاري]

والآن .. كيف كانت صورة موسى .. صلى الله عليه وسلم ؟!.

ضَربٌ .. نحيف .. خفيف اللحم ..

طُوال .. طويل .. فارع القامة .

آدم .. جسيم أي أسمر .. ضخم الجسم ..

سَبِط .. مسترسل الشعر ..

وفي لغة عصرية ..

كانت صورة موسى ..

فارع الطول والقامة ..

جسيم الصدر .. عريض الصدر ..

نحيف .. ضامر البطن ..

أسمر اللون ..

وفي اختصار .. كانت صورته .. صورة بطل خارق البطولة .

فيه جمال النبوة .. وجلال الرسالة ..

شخصية ... موسى ؟!..

حين يقع الاختيار الالهي ...

على أحد .. ليدمر به نظاماً عتيداً فاسداً ..

ويقود به شعباً متمرداً عنيداً ..

يتحتم أن يكون ذلــك الأحد .. بطلا .. قوياً .. اذا غضب لا يقوم لغضبه شيء ..

وهكذا كان موسى .. صلى الله عليه وسلم ..

كان إذا غضب .. لا يقوم لغضبه شيء ..

وبديهي أن الأنبياء لا يغضبون إلا لله ..

ومن هنا كان موسى .. سريع الغضب .. إذا مُسّت حقوق الله ..

حين عبد قومه العجل .. ألقى بالألواحِ وكسّرها ..

وأسرع الى أخيه .. يأخذ برأسه ولحيته .. يجره اليه ..

وأسرع الى السامري .. فعاقبه .. لا مِساس ..

وأسرع الى العجل .. فحرقه .. ونسفه في اليم نسفا ..

انظر .. بطل .. في حالة غضب شديد ..

يعالج الأمور كلها .. في سرعة .. وحزم وعزم وشدة ! ..

وحين تلوّى عليه قارون .. دعا الله أن يفرق بينه وبينه .. فخسفنا به وبداره الأرض ! ..

وصفة سرعة الغضب في الله .. صفة لازمة لمن اختاره الله .. ليضرب به النظام المصري الفاسد آنذاك .. ويدمره تدميراً ..

« ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » !..

لا بد أن يكون رجل صراع ونضال من الطراز الأعظم ..

وكان هكذا موسى !..

وقيادة شعب كان مستذلاً مستعبداً مسخراً .. الى آفاق العزة والحرية .. تستلزم رجلاً حازماً شديداً .. سريع البطش .. حتى يستأصل تماوتهم وتمردهم وإلفهم الخنوع والذل ..

وكان هكذا موسى ..

فهو رجل مؤهل .. ليضرب مرتين ..

مرة يضرب النظام المصري كله ويدمره تدميراً ..

ومرة ليقود شرذمة ممزقة مهلهـــلة من الاستعباد .. الى أوسع آفاق الحرية والعزة !..

فلا بد وأن يكون ذا عزم من حديد .. ذا عزم أكيد لا يلين ..

ولعل إرساله بالعصا .. فيه اشارة الى أنه سوف يضرب فرعون ويدمره ..

وسوف يضرب ذُل بني اسرائيل ويبدده !..

ولا بد كذلك أن يكون ذلك الرجل قوياً ..

وقد كان موسى .. **« القوي الأمين »** ..

ليكون مثالاً .. لأتباعه .. يتجمع من حوله الأبطال ..

وأعجب من هذا .. أنه كان محبوباً من الشعب .. يحبونه حباً شديداً .. ولا يبغضه إلا المنافق ..

وهذه الصفة .. كانت فيه من آثار « والقيت عليك محبة مني » !..

وقد ثبت عن النبي .. صلى الله عليه وسلم .. أن موسى كان حيياً .. ستيراً ..

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان موسى كان رجلا حيّيا ستيرا » ..

[من حديث البخاري]

شديد الحياء .. شديد التستر والمبالغة في التستر ..

وذلك من آثار أنوار النبوة !..

وفي نفس الحديث :

« لا يُرى من جلده شيء » ..

وما ظنك برجل .. نبيّ .. رسول .. من أولي العزم ..

أنعم الله عليه بنعمة « وكلم الله موسى تكليما » ..

رجل يكلمه الله .. رأساً .. بلا واسطة مَلك ..

كيف كانت آثار .. تكليم الله .. في شخصيته ؟!.

شيء لا تدركه العقول !..

ولا تبلغه الأفكار !..

أم كيف كانت شخصيـــة .. مَن أجرى الله على يديه عشرات المعجزات الباهرات ؟!

ان خير وصف لشخصية موسى .. صلى الله عليه وسلم .. هو ما وصفه الله سبحانه :

قال تعالى :

« واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا .

« وناديناه من جانب الطور الأيمن وقرّبناه نجيا .

« ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً » .

اذكر في الكتاب ؟!.

ضع في سجل الخلود .. في كتابنا الخالد .. اسم موسى !..

وقال تعالى :

« والقيت عليك محبة مني .

« ولتُصنع على عيني » ؟!.

فكيف تكون شخصية مَن هذا شأنه ؟!.

رجلٌ .. صُنِع على عين الله !..

وقال تعالى :

« وكلم الله موسى تكليما » ؟!.

فكيف كانت شخصية .. مَن كلّمه الله تكليما ؟!.

وما هي الأنوار والأسرار .. التي سرت في تكوين الشخصية من آثار مداومة التكليم ؟!.

أم كيف كانت شخصية .. رجل .. قهر فرعون وجنوده ؟!.

« أنتما ومن اتبعكما الغالبون » !..

أم كيف كانت شخصية .. مَن أنزل الله عليه التوراة ؟!.

« ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون » .

أم كيف كانت شخصية .. من ناداه ربه :

« فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين » ؟!.

كيف تبدلت الشخصية آنذاك .. وكيف تخلقت خلقـــاً جديداً .. بعد سماعها للنداء ؟!.

أم كيف كان ذلك العقل من تلك الشخصية .. حـــين قال ذلك القول الشامل الجامع :

« ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ؟!.

أي مرتبة من المعقول كان ذلك العقل العظيم ؟!.

أم كيف كانت شخصية .. من قال له ربه :

« لا تخف .. انك أنت الأعلى » ؟!.

ألا إن مسك الختام .. من تلكم الشخصية العليا .. هو قوله تعالى :

« ولقد مننا على موسى وهارون .

« ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم .

« ونصرناهم فكانوا هم الغالبين .

« وآتيناهما الكتاب المستبين .

« وهديناهما الصراط المستقيم .

« وتركنا عليهما في الآخرين .

« سلام على موسى وهارون .

« إنا كذلك نجزي المحسنين .

« إنهما من عبادنا المؤمنين » .

هارون ... كما يراه ... ابن العربي ؟!...

من الافق الاعلى ...

من « فصوص الحكم » .. للامام الأكبر .. ابن العربي ..

« نثبت ما قاله العارف الجليل .. في « هارون » .. علية السلام ..

« ثم ما قاله .. في موسى .. عليه السلام ..

لتكتمل أمام أعيننا .. حقيقة هذين النبيين العظيمين ..

وما أدراك ما ابن العربي .. اذا تحدث .. من أفقه الرفيع .. ومستواه المنيع ؟ ! .

ومرة اخري ننبه .. ان ما ذهب اليه .. ابن العربي .. ليس ملزما لأحد.

« وإنما هو افق اعلى .. يضيف الى فهمنا فهما جديدا ..

ويرفع مستوانا الفكري رفعا عظيما ..

وهذا وحده .. خير عظيم ! ..

* * *

فص حكمة إمامية في كلمة هارونية

قال القاشاني :

« انما خصت الكلمة الهارونية بالحكمة الإمامية ، لأن هارون عليه السلام كان إمام أئمة الأحبار .

« وقد استخلفه موسى على قومه بقوله – اخلفني في قومي وأصلح –

« والإمام لقب من ألقاب الخلافة .

« وقد صرح هارون بذلك في قوله – اتبعوني وأطيعوا أمري –

« وقد بقيت الإمامة في نسله الى الآن .

« وهي الخلافة المقيدة ، أي الإمامة بالوساطة .

« كما كانت لخلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وله الإمامة المطلقة لكونه نبيـــاً مبعوثاً بالسيف ، كإمامة المهدي عليه السلام .

« والمراد بالمطلقة التي لا واسطة بين صاحبها وبين الله .

« وله رتبة التقدم والتحكم في الوجود .

« ولو لم يكن كذلك لما صرح بوجوب اتباعه وطاعته في قوله – اتبعوني وأطيعوا أمري –

« وهي التي قال فيهـــا لخليله – إني جاعلك للناس إماماً – فله الإمامة المطلقة والمقيدة » .

يقول الشيخ الأكبر .. في فاتحة هذا الفص .. من كتابه الفريد :

« اعلم أن وجود هارون عليه السلام كان من حضرة الرحموت بقوله – ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا –

« فكانت نبوته من حضرة الرحموت .

« فانه أكبر من موسى سنا وكان موسى أكبر منه نبوة .

« ولما كانت نبوة هارون من حضرة الرحمة لذلك قال لأخيه موسى عليه السلام – يابن أم –

« فناداه بأمه لا بأبيه ، إذ كانت الرحمة للأم دون الأب أوفر في الحكم .

« ولولا تلك الرحمة ما صبرت أي الام على مباشرة التربية .

« ثم قال – لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي – ولا تشمت بي الاعداء –

« فهذا كله نفس من أنفاس الرحمة .

« وسبب ذلك عدمُ التثبت في النظر فيما كان في يده من الألواح التي ألقاها من يديه .

« فلو نظر فيها نظر تثبت لوجد فيها الهدى والرحمة .

« فالهدى » . .

أي فوجد الهدى .

« بيان ما وقع من الامر الذي أغضبه مما هو هارون بريء منه » .

« وكان الله قد أعلمه قبل ذلـــك بالأمر بقوله – إنا فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري – » .

« والرحمة بأخيه » .

« ووجد الرحمة بأخيه » .

« فكان لا يأخذ بلحيته بما رأى من قومه مع كبره وأنه أسن منه فكان ذلك من هارون شفقة على موسى .

« لأن نبوة هارون من رحمة الله فلا يصدر عنه إلا مثل هذا .

« ثم قال هارون لموسى عليه السلام – اني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل – فتجعلني سببا في تفريقهم .

« فان عبادة العجل فرقت بينهم ، فكان منهم من عبده اتباعاً للسامري وتقليداً له .

« ومنهم من توقف عن عبادته حتى يرجـــع موسى اليهم فيسألونه في ذلك .

« فخشي هارون أن ينسب ذلك الفرقان بينهم اليه .

« وكان موسى أعلم بالامر من هارون ، لأنه علم ما عبده أصحاب العجل لعلمه بأن الله قضى أن لا يعبدوا إلا إياه .

« وما حكم الله بشيء إلا وقع ، فكان عتب موسى أخاه هارون لما وقع الامر في انكاره وعدم اتساعه .

« فان العارف من يرى الحق في كل شيء ، بل يراه عين كل شيء .

« فكان موسى يربي هارون تربية علم .

« وإن كان أصغر منه في السن » .

قال القاشاني :

« أي يربيه تربية ربانية متعينة لهارون في مادة موسى .

« لأن التربية لا تكون حقيقة إلا من الرب .

« فكما كان يربي موسى في مادة هارون ، بأن جعله من رحمته له نبياً ، يكمل نبوته وشد به أزره ، كان يربي هارون في مادة موسى .

« فإنه عتب عليه وأخذ بلحيته ورأسه ليتنبه على أسرار ما وقع من عبادة العجل فيطلع على ما يقرر موسى بعلمه في سر ذلك .

« وكان الله في تربية موسى وهارون من حيث لا يشعر بذلـــك إلا من شاء الله .

« فإن جميع الأفعال التي يجري الله على أيدي عباده صور أحكام حقائقهم وحكمة لا يعلمها إلا الله ، ومن أطلعه عليها .

« فوقوع العتب وعدم التثبت وإلقاء الألواح من يد موسى وأخذه بلحية هارون أمر قوي غير متوقع من مثله في مثل أخيه ، الذي هو أكبر منه سنا .

« إنما كان لتنبيه على ما ذكر من السر .

« وتربيته من حيث لا يشعران بذلك الأمر .

« فإنهما من المعصومين الذين لا يجري الله على أيديهم إلا ما هـــو الحكمة والطاعة ، ويزيد به العلم والمعرفة .

« وهذا بالنسبة إلى أخيه .

« وأما بالنسبة الى قومه فهو أن موسى عليه السلام كان في مبالغته في عتب أخيه يري قومه أن عبادة ما يسمى غيرا وسوى عند أهل الحجاب ، وتعييناً جزئياً في شهود أهل الكشف ، جهل وكفر .

« أما كونه جهلا فلأن المعبود ليس محصوراً في صورة .

« بل هو ما في الصور كلها من الحق .

« لأن العبادة لا يستحقها إلا الله ، الذي هـــو عين الكل ، وله هوية جميع الصور .

« أما كونه كفراً ، فلكونه سراً يتعين على الحق المتعين .

« ففعل ذلك رب موسى في مادته ، ليتنبهوا على ما قد كان حذرهم من قبل حين قالوا له – يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون –

« يعني أن حقيقته يقتضى أن العبادة لا تكون إلا للرب المطلق ، كما قال تعالى – ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه – وقال – وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم –

« والإله المجعول ليس إلا الخلق ، فلا يستحق عبادة المخلوق إياه .

« ولا علم له بما يسرون وما يعلنون .

« وبعلمه عليه السلام بجهلهم أقبل والتفت بالعتب على هارون .

« فإنه كان في تربيته قولاً وفعلاً ، ليعلم من حيث ولايته ونبوته بما هو الأمر عليه ، علماً بذلك في تلك الحالة ، إذ لم يعلم إلا بعد وقوع ما وقع .

« فلما نبه هارون بالحقيقة المذكورة ، وتحقق هو بما وقع منه ظاهراً وباطناً ، أعرض عن قومه بعد ما أراهم وأعلمهم بخطئهم إلى السامري ، فلم يعاتبهم ليتعظوا ، وذلك أبلغ في الغرض » .

« ثم يتشعشع الشيخ الاكبر ويقول :

« ولذلك لما قال هارون ما قال ، رجع الى السامري فقال له – فما خطبك يا سامري –

« يعني : فما صنعت من عدولك الى صورة العجل على الاختصاص .

« وصنعك هذا الشبح من حلي القوم حتى أخذت بقلوبهم من أجل أموالهم .

« فان عيسى يقول لبني اسرائيل : يا بني اسرائيل قلب كل انسان حيث ماله ، فاجعلوا اموالكم في السماء ، تكن قلوبكم في السماء .

« وما سمي المال مالا إلا لكونه بالذات يميل القلوب بالعبادة .

« فهو المقصود الأعظم المعظم في القلوب ، لما فيها من الافتقار اليه .

« وليس للصور بقاء فلا بد من ذهاب صورة العجل ، لو لم يستعجل موسى بحرقه .

« فغلبت عليه الغيرة فحرقه ، ثم نسف رماد تلك الصورة في اليم نسفا .

« وقال له : انظر الى إلهك – فسماه إلها بطريق التنبيه للتعليم ، لما علم انه بعض المجالي الالهية – لأحرقنه – فان حيوانية الانسان لها التصرف في حيوانية الحيوان .

« الكون الله سخرها للانسان »

« ولا سيا وأصله ليس من حيوان »

« فكان أعظم في التسخير »

« لأن غير الحيوان ما له ارادة ، بل هو بحكم من يتصرف فيه من غير إباءة » .

قال الشارح :

« اعلم أن الأنبياء كلهم صور الحقائق الإلهية النورانية الروحانية .

« والفراعنة صور الحقائق النفسانية الظلمانية .

« ولهذا كانت العداوة والمخالفة بين الرسل والفراعنة لازمة .

« كما بين العقل والهوى .

« وبين الروح والشيطان[1] .

« لكنهم مختلفون في التعينات الإنسانية لاختلاف الأسماء الإلهية فيهم .

« وذلك لاختلاف القوابل بحسب الأمزجة والاعتدالات الإنسانية .

« ولهذا اختلفت صورهم في الأشكال والهيئات والتعينات الشخصية .

« ونفوسهم في الأخلاق والعوائد والأذواق .

« وأرواحهم في العلوم والمشاهدات والمشارب والتجليات .

« مع اتحادهم في الوجهة والمعارف الحقانية والتوحيد وأصول الدين القيم .

---

(١) أسرار .. وأنوار .. وأغوار .. وبحار .. عميقة عميقة !..
هم القوم لا يشقى جليسهم !..
ان القاشاني يعلو ويعلو .. ويكشف لنا : لماذا العداء الأبدي ... بين الرسل والفراعنة ؟!..
فما من نبي .. إلا له فرعونه !..

« فإنهم في ذلك كنفس واحدة على آل واحد لرب واحد هو رب الأرباب .

« فالحق الواحد يتجلى لكل منهم على صورة الإسم الغالب عليهم .

« ولهذا كان الغالب على موسى أحكام القهر وشهود التجلي النوري له في صورة النار ، وكانت علومه فرقانية .

« والغالب على نبينا صلى الله عليه وسلم أحكام المحبة وشهود التجلي في صورة النور ، وكانت علومه قرآنية .

« ولما كان التجلي الإلهي في حق موسى في صورة القهر والسلطنة والجلال سلط النار على صورة العجل الذي جعله السامري إلهاً لمن عبدها حتى أحرقته وفرقها وبرد أجزاءها .

« كما أن التجلي الإلهي يحرق كل من تجلى له .

« فإن الحدث لا يبقى عند ظهور القديم بل يضمحل ويتلاشى .

« فأراهم في نسف رماد العجل وحراقته صورة فنـــاء الحدث عند تجلي الرب القديم .

« وفي احراقه صورة احراق سبحات وجهه تعالى حـــتى ما انتهى اليه بصره من خلقه » .

« وأما الحيوان فذو ارادة وغرض .

« فقد يقع منه الاباءة في بعض التصريف .

« فان كان فيه قوة اظهار ذلك ظهر منه الجموح لما يريده منه الانسان .

« وإن لم يكن له هذه القوة أو صادف غرض الحيوان » .

« أي وجد عند المسخر الذي يريد تسخيره في أمر حيواني غرضـــاً من أغراض الحيوان كمأكول أو مشروب أو ما يتوسل به اليه من أجرة » .

« انقاد مذللا لما يريده منه كما ينقاد مثله لأمر فيما رفعه الله به من اجل

المال الذي يرجوه منه المعبر عنه في بعض الاحوال بالآخرة .

« في قوله – ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا –

« فما يسخر له من هو مثله إلا من حيوانيته لا من انسانيته .

« فان المثلين ضدان » .

« من حيث أنهما لا يجتمعان » .

« فيسخره الارفع في المنزلة بالمال .

« أو بالجاه بانسانيته .

« ويتسخر له ذلك الآخر اما خوفا أو طمعا من حيوانيته لا من انسانيته .

« فما تسخر له من هو مثله .

« الا ترى ما بين البهائم من التحريش لأنها أمثال .

« فالمثلان ضدان .

« فلذلك قال – ورفع بعضكم فوق بعض درجات .

« فما هو معه في درجته ، فوقع التسخير من أجل الدرجات .

« والتسخير على قسمين :

« تسخير مراد للمتسخر ، اسم فاعل ، قاهر في تسخيره لهذا الشخص كتسخير السيد لعبده ، وإن كان مثله في الانسانية ، وكتسخير السلطان لرعاياه ، وإن كانوا أمثالا له في الانسانية ، فسخرهم بالدرجة .

« والقسم الآخر تسخير بالحال . كتسخير الرعايا للملك القائم بأمرهم في الذب عنهم وحمايتهم وقتال من عاداهم وحفظ أموالهم وأنفسهم عليهم .

« وهذا كله تسخير بالحال من الرعايا .

« يسخرون في ذلك مليكهم ، ويسمى على الحقيقة تسخير المرتبة .

« فالمرتبة حكمت عليه بذلك .

« فمن الملوك من سعى لنفسه .

« ومنهم من عرف الامر فعلم انه بالمرتبة في تسخير رعاياه ، فعلم قدرهم وحقهم ، فآجره الله على ذلك أجر العلماء بالأمر على ما هو عليه .

« وأجر مثل هذا يكون على الله في كون الله في شئون عباده .

« فالعالم كله يسخر بالحال من يمكن أن يطلق عليه أنه مسخر .

« قال تعالى — كل يوم هو في شأن » —

« والظاهر أن تسخير موسى لقومه كان بمرتبة النبوة .

« ولهذا كان يعلم حقهم ويراعيهم رعاية الراعي لغنمه .

« فكلما عاث فيهم ذئب كالسامري قاتله وقابله ورماه بالإمساس وتحريق العجل .

« وشدد على خليفته مخافة المخالفة .

« فكلما سخرهم في مراد الله بما عنده من الله من النبوة والسلطنة .

« سخروه بالحال على أن يسعى عند الله في مصالحهم الدينية الدنيوية .

« عرفوا ذلك أو لم يعرفوا ، وما يعرفه إلا العارفون » .

« فكان عدم قوة ادراع هارون بالفعل ان ينفذ في أصحاب العجل بالتسليط على العجل كما سلط موسى عليه ، حكمة من الله ظاهرة في الوجود ، ليعبد في كل صورة .

« وإن ذهبت تلك الصورة بعد ذلك ، فما ذهبت إلا بعد ما تلبست عند عابدها بالألوهية .

« ولهذا ما بقي نوع من الأنواع إلا وعبد .

« إما عبادة تأله ، وإما عبادة تسخير ، فلا بد ذلك لمن عقل » .

« يعني أن الحق المعبود المطلق الذي أمر أن لا يعبد إلا إياه لما ظهر بنور الوجود في كل نوع من الأنواع بل في كل شخص .

« لزم أن يعبد في تلك الصورة ، إما عبادة عبد لإلهه ، وإما عبادة تسخير .

« كما عبدت عبدة الأصنام الحجر والشجر والشمس والقمر .

« لكون الإلهية ذاتية للوجود الحق .

« وعبادة التسخير ليس لها اسم العبادة عرفا لأنها مخصوصة بمن تأله ، لكن العبودية متحققة في القسمين .

« فإنك عبد لمن ظهر عليك سلطانه » .

ثم يقول ابن العربي :

« وما عبد شيء من العالم إلا بعد التلبس بالرفعة عند العابد .

« والظهور بالدرجة في قلبه .

« ولذلك يسمى الحق لنا برفيع الدرجات .

« ولم يقل رفيع الدرجة ، فكثر الدرجات في عين واحدة .

« فانه قضى ألا نعبد إلا إياه في درجات كثيرة مختلفة أعطت كل درجة مجلى إلهيا عبد فيها .

« وأعظم مجلى عبد فيه وأعلاه الهوى .

« كما قال – أفرأيت من اتخذ إلهه هواه –

« فهو أعظم معبود فانه لا يعبد شيء إلا به .

« ولا يعبد هو إلا بذاته .

« وفيه أقول :

« وحق الهوى ان الهوى سبب الهوى
ولولا الهوى في القلب ما عبد الهوى »

قال القاشاني :

« يعني أن كلمتي العبوديتين : عبودية التأله وعبودية التسخير لا تكون من العابد لأي معبود كان إلا لهواه .

« فما عبد إلا الهوى .

« فهو الصنم والجبت والطاغوت الحقيقي لمن يرى غير الحق في الوجود .

« وأما عند العارف فهو أعظم مجلى عبد فيه .

« وهو باطن أبداً لا يظهر بالعين إلا في الأصنام .

« وكليات مراتبه بعدد الأنواع المعبودة كما ذكر بعضها في الفص النوحي .

« وأما البيت فمعناه : أنه أقسم بحق العشق الأحدي الذي هو حب الحق ذاته أنه سبب الهوى الجزئي الظاهري في كل متعين بتنزلاته في صور التعينات .

« ولولا الهوى الحب الباطن المعين في القلب ما عبد الهوى الظاهر في النفس.

« لأنه عينه تنزل عن التعين القلبي إلى التعين النفسي مع أحـــدية عينه في الكل » .

ثم يقول الشيخ الأكبر :

« الا ترى علم الله بالأشياء ما أكمله .

« كيف تمم في حق من عبد هواه واتخذه إلها فقال – وأضله الله على علم –

« والضلالة الحيرة .

« وذلك انه لما رأى هذا العابد ما عبد إلا هواه بانقياده لطاعته فيما يأمره به من عبادة من عبده من الاشخاص .

« حتى ان عبادته لله تعالى كانت عن هوى أيضاً .

« لأنه لو لم يقع له في ذلك الجناب المقدس هوى وهو الارادة بمحبة ما عبد الله ولا آثره على غيره » .

قال الشارح :

« أي كيف تم العلم في حق من عبد هواه حيث نكره تنكير تعظيم أي على علم كامل لا يبلغ كنهه .

« وذلك أن أصل الهوى هو الحب اللازم لشهوده تعالى ذاته بذاته .

« فإنه تعالى أقوى الأشياء إدراكاً وأتم الأشياء كمالاً .

« ولا يدرك .. واقف المدرك من ذاته بذاته .

« فذاته أحب الأشياء اليه .

« بل الحب عين الحب .

« وحقيقته ليس إلا حبه لذاته .

« وهو العشق الحقيقي ، وما عداه رشحة من ذلـــك البحر ، ولمعة من ذلك النور .

« فلا ميل في شيء إلى شيء إلا وهو جزئي من جزئيات ذلك الحب .

« فلا محب إلا وهو يحب نفسه في محبوبه ، أي محبوب كان .

« لأن المحبة لازمة للوحدة الحقيقية .

« فبسريان الوحدة في الوجود ، تسري المحبة فيه .

« لكنها تختلف بحسب كثرة التعينات المتوسطة بينها وبين الأول وقلتها .

« فكلما كانت الوسائط أكثر كان أحكام الوجوب فيهـــا أخفى وأحكام الإمكان أظهر وبالعكس .

« وينبغي على ذلك المذمة والمحمدة بحسب تنوع أنواعها .

« فالحاصل أن كل هوى كان أقرب إلى الحب الكلي ، والأقرب بقلة الوسائط والتعينات ، كان أحمد وأشرف وأقوى في نفسه وأظهر ، وصاحبه أعلى مقاماً وأرفع رتبة ، وأكثر تجرداً ، وأشرف ذاتاً ، وأقرب الى الحق تعالى .

« وكلما كان الحب أبعد من الحب الكلي المطلق بكثرة الوسائط والتعينات كان أخس وأذم وأضعف في نفسه وأخفى ، وصاحبه أدنى رتبة ، وأكثر تقيداً واحتجاجاً ، وأخس وجوداً ، وأبعد من الله تعالى .

« والحقيقة من حيث هي هي واحدة .

« فمن علم حقيقة الهوى كان على علم عظيم .

« وقد حيره الله ، حيث وجده في الحقيقة محموداً غاية الحمد .

« ومع التغشي بغواشي التعينات مذموماً غاية الذم .

« فتحير بين كونه حقاً وبين كونه باطلا .

« والحق مطلع على أنه لا يعبد في الجهة العليا والسفلى بهواه إلا إياه .

« إذ ليس في الوجود شيء إلا وهو عين الحق .

« ألا ترى إلى قوله — وهو الله في السماوات وفي الأرض — وقوله — وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله — وقوله عليه الصلاة والسلام — « لو دلى أحدكم بحبل لهبط على الله » ؟

« فكل ما عبده عابد في أحد الجهتين لا يعبده إلا بهواه ، إذ هو الذي يأمره بعبادة ما يعبده .

« فلا يطيع في الحقيقة إلا هواه .

« حتى ان الحق المطلق لم يعبد إلا بالهوى .

« إلا أنه يسمى باسم أشرف كالإرادة .

« وهي محبة ما إما محبة النجاة والدرجات .

« أو كال النفس .

« أو محبة صفات الله تعالى .

« أو محبة ذاته تعالى وتقدس .

« ولذلك نكر المحبة فقال وهو الإرادة بمحبة ، إذ لو لم يكن له نوع من أنواع المحبة ما عبد الله تعالى ، ولا آثره على غيره » .

ثم يقول شيخ العارفين :

« وكذلك كل من عبد صورة ما من صور العالم واتخذها إلهـــا ما اتخذها إلا بالهوى .

« فالعبد لا يزال تحت سلطان هواه .

« ثم رأى المعبودات تتنوع في العابدين .

« وكل عابد أمرا ما يكفر من يعبد سواه .

« والذي عنده أدنى تنبه يحار لاتحاد الهوى .

« بل لأحدية الهوى كما ذكر .

« فانها عين واحدة في كل عابد .

« فأضله الله : أي حيره على علم بأن كل عابد ما عبد إلا هواه ، ولا استعبده إلا هواه .

« سواء صادف الأمر المشروع أو لم يصادف » .

« والمعنى أنه لما رأى هذا العابد وذلك العابد وكل عابد ، حـــق عابد الحق تعالى .

« وكذا كل من عبد صورة ما من صور العالم ، لا يعبد كل منهم إلا هواه .

« ثم رأى تنوع المعبودات وتناكر العباد .

« بحيث يكفر كل عابد من يعبد سوى معبوده مع أحدية الهوى في الحقيقة عند من له أدنى تنبه ، حيره الله لضيق ذرعه ، وصعوبة فرقه بين الحق والباطل ، والمشروع وغير المشروع » .

« والعارف المكمل من رأى كل معبود مجلى للحق يعبد فيه » .

« لأن الوجود الحق هو الذي ظهر في الكل وفي كل واحد » .

« ولذلك سموه كلهم إلها مع اسمه الخاص بحجر أو شجر أو حيوان أو انسان أو كوكب أو ملك ، هذا اسم الشخصية فيه .

« والألوهة مرتبة تخيل العابد له انها مرتبة معبودة .

« وهي على الحقيقة مجلى الحق لبصر هذا العابد الخاص المعتكف على هذا المعبود في هذا المجلى المختص .

« ولهذا قال بعض من لم يعرف مقاله جهالة – ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى –

« مع تسميتهم اياهم آلهة .

« كما قالوا – أجعل الآلهة إلها واحداً ان هذا لشيء عجاب –

« فما أنكروه ، بل تعجبوا من ذلك .

« فانهم وقفوا مع كثرة الصور الامكانية ونسبة الألوهية لها .

« فجاء الرسول ودعاهم الى إله واحد ، يُعرف ولا يُشهد ،

« بشهادتهم أنهم أثبتوه عندهم واعتقدوه في قولهم – ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى –

« لعلمهم بأن تلك الصور حجارة .

« ولذلك قامت الحجة عليهم بقوله - قل سموهم -

« فما يسمونهم إلا بما يعلمون ان تلك الأسماء لهم حقيقة » .

« كحجر وخشب وكوكب وأمثالها » .

« مع علمهم بأنهم ما عبدوا من تلك الصور أعيانا .

« وإنما عبدوا الله فيها بحكم سلطان التجلي الذي عرفوه منهم » .

« أي من عباد الصور وإن لم يشعروا بذلك وجهلوه » .

« وجهله المنكِر الذي لا علم له بما تجلى الله .

« وستره العارف ، المكمل من نبي ورسول ووارث عنهم .

« فأمرهم بالانتزاح عن تلك الصورة .

« لما انتزح عنها رسول الوقت .

« اتباعاً للرسول .

« طمعا في محبة الله اياهم بقوله - ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله -

« فدعا الى إله يصمد اليه » .

« وهو الوجود الحق المطلق الذي يستند اليه كل وجود خاص » .

ثم يقول الشيخ الأكبر :

« ويُعلم من حيث الجملة .

« ولا يُشهد .

« ولا تدركه الأبصار » .

قال الشارح :

« أي يُعلم من حيث الإطلاق والإجمال .

« ولا يُشهد من حيث التقييد والتفصيل .

« إذ لا بد في الشهود من تجلى ومجلى ومتجل ، وكذا الأبصار » .

ثم يقول ابن العربي :

« بل هو يُدرك الأبصار .

« للطفه وسريانه في أعيان الاشياء .

« ولا تدركه الأبصار ، كما أنها لا تدرك أرواحها المدبرة أشباحها وصورها الظاهرة » .

« وإنما لا تدركه الأبصار لأن إدراكها مخصوص ببعض الظواهر .

« فلا تدرك الحقائق وكل ما تحت الإسم الباطن .

« وإنما لا تدركه الأرواح ، لأن إدراكها مخصوص بالبواطن ، فلا تدرك ما تحت الإسم الظاهر من أسمائه وصفاته .

« ولا يجمع بين الظاهر والباطن .

« والتقيد والإطلاق .

« واللا تقيد واللا إطلاق ، إلا التجلي الشهودي » .

« فهو اللطيف » .

« أي عن ادراك الأبصار والبصائر » .

« الخبير » .

« بالبواطن والظواهر » .

« والخبرة ذوق .

« والذوق تجلّ .

« والتجلي في الصور فلا بد منها ولا بد منه .

« فلا بد أن يعبده من رآه بهواه .

« ان فهمتَ .

« – وعلى الله قصد السبيل – » .

قال الشارح :

« الذوق إنما يكون بقوى وجدانية وذلك إنما يكون بالتجلي في الصور .

« فمن رآه متجلياً في أي صورة كانت مال اليه .

« والهوى في العرف ليس إلا ميلاً نفسياً .

« فلا شهود إلا بالتجلي .

« ولا تجلي إلا في صورة .

« فلا عبادة له شهودية إلا بميل تام نفسي .

« لأن الصورة لا بد لها من ميل الى ما يوافقها وهو الهوى » .

موسى ... كما يراه ... ابن العربي ؟!...

فص حكمة علوية في كلمة موسوية

قال القاشاني :

« انما خصت الكلمة الموسوية بالحكمة العلوية ، لعلوه على من ادعى الأعلوية ، فقال – أنا ربكم الأعلى –

« فكذبه الله تعالى بقوله لموسى – انك أنت الأعلى –

« على القصر ، يعني : لا هو ، مع أنه تعالى وصفه بالعلوية في قوله – من فرعون انه كان عالياً من المسرفين –

« ولعلو درجته في النبوة بأن كلّمه الله بلا واسطة مَلَك .

« وكتب له التوراة بيده تعالى ، كما ورد في الحديث .

« ويقرب مقامه من مقام الجمعية التي اختص بها نبينا صلى الله عليه وسلم المشار اليـــه بقوله – وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء –

« وبكثرة أمته كما أخبر عليه الصلاة والسلام في حديث القيامة حال عرض الأمم عليه أنه لم ير أمة نبي من الأنبياء أكثر من أمة موسى عليه السلام .

« وبكثرة معجزاته » .

يقول الشيخ الأكبر :

« حكمة قتل الابناء من أجل موسى .

« ليعود عليه بالامداد حياة كل من قُتل من أجله .

« لأنه قتل على أنه موسى وما ثمة جهل .

« فلا بد أن تعود حياته على موسى .

« اعني حياة المقتول من أجله .

« وهي حياة طاهرة على الفطرة لم تدنسها الاغراض النفسية ، بل هي على فطرة « بلى » .

« فكان موسى مجموع حياة من قُتل على أنه هو .

« فكل ما كان مهيأ لذلك المقتول مما كان استعداد روحه له ، كان في موسى عليه السلام .

« وهذا اختصاص الهي بموسى .

« لم يكن لأحد قبله .

« فان حكم موسى كثيرة .

« وأنا ان شاء الله أسرد منها في هذا الباب على قدر ما يقع به الامر الالهي في خاطري .

« فكان هذا أول ما شوفهت به من هذا الباب .

« فما ولد موسى إلا وهو مجموع أرواح كثيرة » .

قال القاشاني :

« باتصال تلك الأرواح به ، متوجهة اليه ، مقبلة نحوه .

« بهواها ومحبتها ونوريتها خادمة له .

« ولذلك كان محبوباً إلى كل من يراه لنوريته ، بتشفيع أنوار تلك الأرواح » .

ثم يقول ابن العربي :

« جمع قوى فعالة .

« لأن الصغير يفعل في الكبير .

« ألا ترى الطفل يفعل في الكبير بالخاصية .

« فينزل الكبير من رياسته اليه ، فيلاعبه ويزقزق له ، ويظهر له بعقله ؟!

« أي ينزل الى مبلغ عقله .

« فهو تحت تسخيره وهو لا يشعر .

« ثم شغله بتربيته وحمـــايته وتفقد مصالحه ، وتأنيسه حتى لا يضيق صدره .

« هذا كله من فعل الصغير بالكبير .

« وذلك لقوة المقام .

« فان الصغير حديث عهد بربه لأنه حديث التكوين والكبير أبعد .

« فمن كان من الله أقرب سخر من كان الله أبعد .

« كخواص الملك المقرب منه ، يسخرون الابعدين » .

قال القاشاني :

« القرب والبعد نسبتان معتبرتان باعتبارات كثيرة ، لقلة التعينات والوسائط بين الشيء وبين الحق وكثرتها .

« فالأقل الوسائط أقرب .

« ولهذا سخّر الأرواح الأجساد ، والعقول النفوس .

« كتسخير العقل الأول من دونه من العقول والنفوس .

« وكاستجماع الفضائل والكمالات في الاتصاف بها والتخلي عنها .

« فالأكثر بالكمالات والأوفر بالفضائل أقرب الى الله ممن يخلو عنها .

« فيسخّر بقرب مقامه من الله مَن دونه في ذلك .

« كتسخير الأنبياء والأولياء أممهم وأتباعهم .

« وكل من له أحدية الجمعية الكمالية الإلهية أقرب الى الله ممن غلب عليه أحكام الكثرة فيسخر له .

« وأما القرب والبعد في هــذا الموضع فهو باعتبار حدوث تجلي الحق وطراوته ، وبحسب الزمان وتمادي مدته وبعد عهده .

« فإن طراوة ظهور الحق في مجلى واحدة بتصرفاته وأفعاله وصفاته ، كما في الصغار ، قرب لهم بربهم وصفاء .

« لكونهم على فطرتهم الأصلية والعهد الأول والاتصال الحقيقي .

« وتقادم الزمان بالكبر ، وغلبة أحكام النشأة والهيئات النفسانية ، كالمادة الحيوانية والطبيعية ، بُعد لهم من ربهم .

« وتكرر وسقوط عن الفطرة .

« فلذلك يسخّر الصغير الكبير فيخدمه .

« وأما تنزل الكبير العارف الكامل إلى مرتبته للتربية ، مع كونه في غاية القرب بالنسبة الى الطفل ، فذلك للرحمة والعناية الإلهية .

« وهو أمر آخر باعتبار آخر ، فلا ينافي ما ذكرناه ، لأنه رجع الى الله بعد البُعد ، بالمعنى المذكور ، حتى صار أقرب مما كان أولاً » .

ثم يقول ابن العربي :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبرز نفسه للمطر إذا نزل .

« ويكشف رأسه له حتى يصيب منه .

« ويقول (انه حديث عهد بربه) .

« فانظر الى هذه المعرفة بالله من هذا النبي .

« ما أجلها وما أعلاها وأوضحها .

« فقد سخر المطر أفضل البشر .

« لقربه من ربه .

« فكان مثل الرسول الذي ينزل بالوحي عليه » .

« أي فكان المطر مثل المَلك الذي ينزل اليه بالوحي ، يعني جبريل .

« لأنه كان يشاهد فيه صورة العلم الإلهي النازل اليه بواسطة الملك فيتلقاه .

« وخصوصاً رأسه الذي هو منه بمثابة الكتاب الأكبر الذي رتبته في التعين الأول والبرزخية الأولى ومظهر العلم الإلهي الأول .

« ويعرف قربه من الحق بالتجلي الجديد فلذلك سخره » .

« فدعاه بالحال الداته » .

« أي فدعا المطر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان الحال بذاته النازلة اليه من عند ربه في صورة العلم والحياة كالمَلك فأجابه » .

« فبرز اليه ليصيب منه ما أتاه به من ربه » .

« من المعنى الذي به يحيى كل شيء ».

« فلولا ما حصلت له منه الفائدة الالهية بما أصاب منه ما برز بنفسه اليه .

« فهذه رسالة ماء جعل الله تعالى منه كل شيء حي .

« فافهم » .

قال القاشاني :

« فإذا كان المطر سخّر أفضل البشر لقربه من ربه .

« فما ظنك بالأرواح الطاهرة الباقية على الفطرة النورية إذا اتصلت بروح موسى من عند ربها مقبلة اليه مع مبادئها التي انبعث منها من الأسماء الإلهية والأرواح السماوية ، فإنها لا تنفك عنها متوجهة نحوه .

« فلذلك فعلت ما فعلت بأعدائه من القهر والتدمير .

« وأظهرت ما أظهرت من آيات الله العظمى » .

ثم يقول الشيخ الاكبر :

« وأما حكمة القائه في التابوت ورميه في اليم .

« فالتابوت ناسوته ، واليم ما حصل له من العلم بواسطة هذا الجسم .

« بما أعطته القوة النظرية الفكرية والقوى الحسية الخيالية التي لا يكون شيء منها ولا من أمثالها لهذه النفس الانسانية إلا بوجود هذا الجسم العنصري .

« فلما حصلت النفس في هذا الجسم وأمرت بالتصرف فيه وتدبيره جعل الله لها هذه القوى آلات تتوصل بها الى ما أراده الله منها في تدبير هذا التابوت الذي فيه سكينة الرب » .

« لأن اليقين والعلم الذي تزداد به الايمان والسكينة النفس الى ربها وتطمئن ، لا يحصل إلا فيه » .

« فرمى به في اليم ليحصل بهذه القوى على فنون العلم .

« فأعلمه بذلك أنه وإن كان الروح المدبر له هو الملك .

« فانه لا يدبره إلا به .

« فاصحبه هذه القوى الكائنة في هذا الناسوت الذي عبر عنه بالتابوت »
في باب الاشارات والحكم .

« كذلك تدبير الحق العالم .

« وما دبره إلا به » .

« أي بالعالم » .

« أو بصورته .

« فما دبره إلا به .

« كتوقف الولد على ايجاد الوالد » .

« فإن التدبير الذي دبره الحق العالم فيه بنفس العالم .

« أي بعضه ببعض .

« وهو مثل توقف الولد على إيجاد الحق الوالد الحقيقي » .

ثم يلقي الشيخ الأكبر بحكمه تترى فيقول :

« والمسببات على أسبابها .

« والمشروطات على شروطها .

« والمعلولات على عللها .

« والمدلولات على أدلتها .

« والمحققات على حقائقها » .

« أي الأشخاص المتحققة على حقائقها النوعية » .

« وكل ذلك من العالم وهو تدبير الحق فيه .

« فما دبره إلا به .

« وأما قولنا : أو بصورته أعني صورة العالم .

« فأعني به الأسماء الحسنى والصفات العُلى ، التي تسمى الحق بها .

« فما وصل الينا من اسم يسمى به .

« إلا وجدنا معنى ذلك الاسم وروحه في العالم .

« فما دبر العالم أيضاً ، إلا بصورة العالم » .

قال القاشاني :

« ليس المراد بصورة العالم صورته الشخصية الحسية . .

« بل الصورة النوعية العقلية .

« وهي الأسماء الحسنى وحقائقها التي هي الصفات العُلى .

« فإن صور العالم مظاهر الأسماء والصفات .

« فهي صوره الحقيقية الباطنة .

« والمحسوسات صوره الشخصية الظاهرة ، فهذه نقوش وأشكال تتبدل .

« وتلك بأعيانها باقية ثابتة لا تتبدل .

« فهذه هياكل وأشباح ، وتلك معانيها وأرواحها .

« فكل ما تسمى به الحق من الأسماء كالحيّ والعالم والمريد والقادر .

« واتصف به من الصفات كالحياة والعلم والإرادة والقدرة موجود في العالم .

« فما دبر الله ظواهر العالم إلا ببواطنه .

« فالقسم الأول : هو تدبير بعض الصور الظاهرة من أجزاء العالم ببعضها .

« والقسم الثاني : تدبير الصور الشخصية الظاهرة بالصور النوعية الباطنة .

« وكلاهما تدبير العالـَم بالعالـَم .

« ومعنى الاسم وروحه حقيقته التي هو به .

« فإن الإسم ليس إلا الذات مع الصفة .

« فالأسماء كلها بالذات حقيقة واحدة هو الحق تعالى .

« فلا امتياز من هذا الوجه .

« فالإسم والمعاني والحقائق التي تحصل بها الأسماء هي الصفات .

« فالمراد بمعنى الاسم وروحه الصفة التي يتميز بها الإسم عن غيره .

« ومعنى قوله : فما دبر العالم أيضاً إلا بصورة العالم ، فما دبر العالم إلا بصورته ، التي هي الهيئة الاجتماعية من الأسماء الإلهية » .

ثم يقول الشيخ الأكبر :

« ولذلك قال في خلق آدم الذي هو البرنامج الجامع لنعوت الحضرة الالهية التي هي الذات والصفات والافعال (ان الله خلق آدم على صورته) .

« وليست صورته سوى الحضرة الالهية .

« فأوجد في هذا المختصر الشريف الذي هو الانسان الكامل .

« جميع الأسماء الالهية .

« وحقائق ما خرج عنه .

« في العالم الكبير المنفصل عنه » .

قال القاشاني :

« أي وأوجد فيه حقائق الأشياء الخارجة عن الإنسان في العـــالم الكبير المنفصل .

« فإن أجزاء العـــالم كالسماوات والعناصر والمعادن والنبات وأصناف الحيوانات ليست بموجودة في الإنسان صورها وأشخاصها .

« لكن حقائقها التي بها هي ، كالأرواح والنفوس الناطقة والمطبقة والطبائع العنصرية والصور الجسمية المادية والقوى المعدنية والنباتية والحيوانية بأسرها .

« وفي الجملة الجواهر والأعراض كلها موجودة فيه .

« فصحّ أنه تعالى أوجد جميع ما في الحضرة الإلهية ، وجميع الحقائق بأعيانها وأجزائها في الإنسان الكامل » .

ثم يقول ابن العربي :

« وجعله روحا للعالم .

« فسخر له العلو والسفل لكمال الصورة .

« فكما أنه ليس شيء من العالم إلا وهو يسبح بحمده .

« كذلك ليس شيء من العالم إلا وهو مسخر لهذا الانسان ، لما تعطيه حقيقة صورته .

« فقال – وسخر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً منه –

« فكل ما في العالم تحت تسخير الانسان .

« علم ذلك من علمه ، وهو الانسان الكامل .

« وجهل ذلك من جهله ، وهو الانسان الحيواني .

« فكانت صورة القاء موسى في التابوت ، وإلقاء التابوت في اليم ، صورة هلاك في الظاهر .

« وفي الباطن ، كانت نجاة له من القتل .

« فحيي كما تحيى النفوس بالعلم من موت الجهل .

« كما قال – أو من كان ميْتاً – يعني بالجهل .

« فأحييْناه – يعني بالعلم .

« – وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس – وهو الهدى .

« – كمن مثله في الظلمات – وهي الضلال .

« – ليس بخارج منها – أي لا يهتدي أبداً .

« فان الأمر في نفسه لا غاية له يوقف عندها .

« فالهدى هو أن يهتدي الانسان الى الحيرة .

« فيعلم ان الأمر حيرة .

« والحيرة قلق وحركة .

« والحركة حياة ، فلا سكون ولا موت .

« ووجود ، فلا عدم .

« وكذلك في الماء الذي به حياة الأرض وحركتها .

« قوله – فاهتزت – حملها .

« قوله – وربَت – ولادتها .

« قوله – وانبتت من كل زوج بهيج – أي أنها ما ولدت إلا من يشبهها : أي طبيعيا مثلها .

« فكانت الزوجية التي هي الشفعية لها بما تولد منها وظهر عنها .

« كذلك وجود الحق ، كانت الكثرة له ، وتعداد الأسماء ، أنه كذا وكذا .

« بما ظهر عنه من العالم .

« الذي يطلب بنشأته حقائق الأسماء الالهية ، فثنيت به » .

« أي بالعالم .

« والمعنى أنه كما شفعت المواليد من المواليد من الثمرات والنتائج أصولها .

« فكذلك كثرة الأسماء ، شفعت أحدية الوجود الحق .

« فإن الأسماء تثنت للوجود الحق بالعالم .

« إذ هو المألوه المربوب ، المقتضى لوجود الإلهية والربوبية وهما لا يكونان إلا بالأسماء » .

« ويخالفه أحدية الكثرة » .

« أي ويخالف ما ظهر عنه من العالم أحدية الكثرة التي له لذاته » .

« ثم يقول ابن العربي :

« ولما عصمه الله من فرعون أصبح فؤاد أم موسى فارغا .

« من الهم الذي كان قد أصابها .

« ثم ان الله حرم عليه المراضع حتى اقبل على ثدي أمه فأرضعته .

« ليكمل الله لها سرورها به .

« كذلك علم الشرائع .

قال القاشاني :

« أي مثل تحريم المراضع عليه إلا لبن أمه علم الشرائع .

« فإن لكل نبي شريعة مخصوصة دون شرائع سائر الأنبياء .

« فحرم عليه جميع شرائع الأنبياء إلا شريعته .

« فتحريم المراضع عليه صورة ذلك المعنى .

« وآية أنه النبي الموعود » .

قال ابن العربي :

« كما قال – لكل جعلنا منكم شرعة – أي طريقاً .

« – ومنهاجا – اي من تلك الطريقة جاء .

« فكان هذا القول إشارة الى الأصل الذي منه جاء ، فهو غذاؤه » .

« هذا القول ، إشارة إلى الآية المذكورة .

« والأصل الذي منه جاء هو الإسم الإلهي الذي رباه الله به موسى .

« وذلك تجليه تعالى بذاته في صورة عينه الثابتة ، وغذاؤه علم ذلك العين ونقشه .

« وذلك خزانة الإسم العلم الإلهي المختص بموسى .

« وعينه من التعينات الكلية الشاملة لتعينات جزئية كثيرة مندرجة تحتها كما مرّ .

« فهو يتغذى من ذلك الأصل » .

قال ابن العربي :

« كما ان فرع الشجرة لا يتغذى إلا من أصله .

« فما كان حراما في شرع يكون حلالا في شرع آخر .

« يعني في الصورة .

« أعني قولي يكون حلالا .

« وفي نفس الأمر ما هو عين ما مضى .

« لأن الأمر خلق جديد .

« ولا تكرار .

« فلهذا نبهناك » .

قال الشارح :

« يعني أن الأمر الذي كان حراماً في شرع يكون حلالاً في شرع آخر .

« وإن كان عيناً واحدة في الصور النوعية والحقيقة .

« لكن الذي هو حلال في شرع ليس بعينه ذلك الحرام الذي مضى في الشرع السابق .

« بناء على أن كل شيء في كل آن خلق جديد .

« ولا تكرار في التجلي كما ذكر غير مرة » .

« ولكني عن هذا في حق موسى بتحريم المراضع » .

« فإن اللبن صورة العلم النافع .

« أعني علم الشريعة .

« الذي هو غذاء الروح الأخص حتى يكمل » .

ثم يتشعشع الشيخ الأكبر ويقول :

« فانه على الحقيقة .

« مَن أرضعته لا من ولدته .

« فان أم الولادة حملته علي وجه الامانة فتكوّن فيها .

« وتغذى بدم طمثها من غير ارادة لها في ذلك .

« حتى لا يكون لها عليه امتنان .

« فانه ما تغذى إلا بما أنه لو لم يتغذ به ، ولم يخرج عنها ذلك الدم لأهلكها وامرضها .

« فللجنين المنّة على أمه .

« بكونه تغذى بذلك الدم .

« فوقاها بنفسه من الضرر الذي كانت تجده لو امتسك ذلك الدم عندها ، ولا يخرج ولا يتغذى به جنينها .

« والمرضعة ليست كذلك فانها قصدت برضاعته حياته وإبقاءه .

« فجعل الله ذلك لموسى في أم ولادته .

« فلم يكن لامرأة عليه فضل إلا لأم ولادته .

« لتقر عينها أيضاً بتربيته .

« وتشاهد انتشاءه في حجرها ولا تحزن .

« ونجاه الله من غم التابوت .

« فخرق ظلمة الطبيعة بما أعطاه الله من العلم الالهي .

« وإن لم يخرج عنها » .

قال القاشاني :

« أي عن الطبيعة بالمفارقة الكلية .

« بل خرق حجابها بالتجرد عنها ، عن غواشيها الى عالم القدس .

« كما قال تعالى – اخلع نعليك انك بالواد المقدس – » .

قال ابن العربي :

« وفتناك فتونا : أي اختبره في مواطن كثيرة .

« ليتحقق في نفسه صبره على ما ابتلاه الله به » .

« فإن أكثر الكمالات المودعة في الإنسان لا تظهر عليه ، ولا تخرج الى الفعل ، إلا بالابتلاء » .

قال ابن العربي :

« فأول ما ابتلاه الله به قتله القبطي[1] بما ألهمه الله ووفقه له في سره وإن لم يعلم بذلك .

« ولكن لم يجد في نفسه اكتراثا بقتله مع كونه ما توقف حتى يأتيه أمر ربه بذلك .

« لأن النبي معصوم الباطن من حيث لا يشعر حتى ينبأ أي يخبر .

« ولهذا أراه الخضر قتل الغلام فأنكر عليه قتله .

« ولم يتذكر قتله القبطي .

« فقال له الخضر – ما فعلته عن أمري –

---

(١) أي المصري .

« ينبهه على مرتبته قبل أن ينبأ انه كان معصوم الحركة في نفس الأمر .

« وإن لم يشعر بذلك » .

قال القاشاني :

« فلذلك نسبه الى الشيطان و – قال هذا من عمل الشيطان – واستغفر ربه – قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي – لأنه لم يشعر بعد أنه نبي يعصمه الله عن الكبيرة .

« ولا يجري على يده إلا ما هو خير كله » .

قال ابن العربي :

« وأراه ايضا خرق السفينة التي ظاهرها هلاك وباطنها نجـــاة من يد الغاصب .

« جعل له ذلك في مقابلة التابوت له الذي كان في اليم مطبقا عليه .

« فظاهره هلاك وباطنه نجاة .

« وإنما فعلت به أمه ذلك خوفا من يد الغاصب فرعون أن يذبحه صبراً .

« وهي تنظر اليه مع الوحي الذي ألهمها الله به من حيث لا تشعر .

« فوجدت في نفسها أنها ترضعه فاذا خافت عليه ألقته في اليم .

« لأن في المثل « عين لا ترى قلب لا يفجع » .

« فلم تخف عليه خوف مشاهدة عين .

« ولا حزنت عليه حزن رؤية بصر .

« وغلب على ظنها ان الله ربما رده اليها لحسن ظنها به .

« فعاشت بهذا الظن في نفسها .

« والرجاء يقابل الخوف واليأس .

« قالت حين ألهمت لذلك : لعل هذا هـــو الرسول الذي يهلك فرعون والقبط على يديه .

« فعاشت وسُرت بهذا التوهم والظن بالنظر اليها » .

« انما هو توهم وظن بالنسبة اليها » .

« وهو علم في نفس الأمر » .

« متحقق عند الله » .

« ثم انه » .

« أي موسى » .

« لما وقع عليه الطلب خرج فاراً خوفاً في الظاهر .

« وكان في المعنى حبا في النجاة .

« فان الحركة أبداً انما هي حبية ويحجب الناظر فيها بأسباب اخر » .

« كالغضب والخوف والحزن والميل .

« وقد يتحقق ذلك مما ذكر في الهوى .

« والمحجوب عن الأصل يسندها الى الأسباب القريبة .

« ولهذا عللها لفرعون المحجوب في قوله – ففررت منكم لما خفتكم– بالخوف لاحتجابه عن الأصل .

« فإنه لولا حب الحياة لما خاف .

« وكيف لا ، والخوف يقتضي الجمود والسكون لا الحركة » .

قال ابن العربي :

« وليست تلك وذلك لأن الاصل حركة العالم من العدم الذي كان ساكناً فيه الى الوجود .

« ولذلك يقال :

« ان الامر حركة عن سكون .

« فكانت الحركة التي هي وجود العالم حركة حب .

« وقد نبه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله (كنت كنزاً لم أعرف فأحببت ان أعرف) .

« فلولا هذه المحبة ما ظهر العالم في عينه .

« فحركته من العدم الى الوجود حركة حب الموجد لذلك » .

قال القاشاني :

« أي لأن يعرف ويشهد ذاته من ذاته ومن غيره .

« على تقدير وجود الغير بالاعتبار » .

قال ابن العربي :

« ولأن العالم أيضا يحب شهود نفسه وجوداً ، كما شهدها ثبوتا .

« فكانت بكل وجه حركة من العدم الثبوتي ، الى الوجود العيني ، وحركة حب ، من جانب الحق وجانبه .

« فان الكمال محبوب لذاته .

« وعلمه تعالى بنفسه من حيث هو غني عن العالمين هو له » .

« دون اعتبار غيره .

« فإنه تعالى من تلك الحيثية ليس إلا الذات وحدها .

« فلم يكن معه شيء » .

قال ابن العربي :

« وما بقي إلا تمام مرتبة العلم .

« بالعلم الحادث الذي يكون من هذه الأعيان ، أعيان العالم إذا وجدت .

« فيظهر صورة الكمال بالعلم المحدث والقديم .

« فيكمل مرتبة العلم بالوجهين » .

قال القاشاني :

« فإن العلم القديم غيب ، لم يكن له ظهور وانتشار .

« وبالظهور في المظاهر المسمى حدوثا ، يكمل كمال العلم الغيبي » .

قال ابن العربي :

« وكذلك تكمل مراتب الوجود .

« فان الوجود منه أزلي ، وغير أزلي وهو الحادث .

« فالأزلي وجود الحق نفسه » .

« يعني حقيقة الوجود ، من حيث هو وجود .

« لأن الحق له حقيقة ، غير الوجود ، فيضاف الوجود اليهـــا ، كسائر الماهيات » .

قال ابن العربى :

« وغير الأزلي ، وجود الحق بصور العالم الثابت » .

« أي الوجود الذي هو الحق ، أي الوجود الظاهر بصور العالم ، الثابت عينه في العالم الأزلي .

« ويسمى الوجود الإضافي » .

قال ابن العربي :

« فيسمي حدوثا .

« لأنه ظهر بعضه لبعضه » .

« كظهور سائر الأكوان للإنسان » .

قال ابن العربي :

« وظهر لنفسه بصور العالم .

« فكمل الوجود .

« فكانت حركة العالم حبية للكمال ..

« فافهم .

« الا تراه كيف نفّس عن الأسماء الالهية ما كانت تجده من عدم ظهور آثارها في عين مسمي العالم ، فكانت الراحة محبوبة له » .

« لأن الراحة انما هي بالوصول الى الكمال المحبوب ، الذي يصفو به الحب ، عن ألم الشوق عند الفراق ، فهي الابتهاج الحاصل بصفاء الحب عن شوب الألم .

« ولأنها كال لذة الحب بالوصل قال » .

« ولم يوصل اليها إلا بالوجود الصوري » .

« أي الظاهر » .

قال ابن العربي :

« الاعلى والاسفل .

« فثبت أن الحركة كانت للحب .

« فما ثم حركة في الكون إلا وهي حبية .

« فمن العلماء من يعلم ذلك .

« ومنهم من يحجبه السبب الأقرب لحكمه في الحـــال ، واستيلاؤه على النفس .

« وكان الخوف لموسى مشهودا له ، بما وقع من قتله القبطي .

« وتضمن الخوف حب النجاة من القتل ففر لما خاف .

« وفي المعنى ففر لما أحب النجاة من فرعون وعمله به .

« فذكر السبب الأقرب المشهود له في الوقت ، الذي هو كصورة الجسم للبشر .

« وحب النجاة متضمن فيه تضمن الجسد للروح المدبر له .

« والأنبياء لهم لسان الظاهر به .

« يتكلمون لعموم الخطاب ، واعتمادهم على فهم العالم السامع .

« فلا تعتبر الرسل إلا العامة .

« لعلمهم بمرتبة أهل الفهم .

« كما نبه عليه الصلاة والسلام ، وعلى هذه الرتبة في العطايا ، فقال (لأعطى الرجل وغيره أحب إليّ منه مخافة أن يكبّه الله في النار) .

« فاعتبر ضعيف العقل والنظر ، الذي غلب عليه الطمع والطبع .

« فكذا ما جاءوا به من العلوم ، جاءوا به وعليه خلعة أدنى الفهوم .

« ليقف من لا غوص له عند الخلعة فيقول : ما أحسن هذه الخلعة ، ويراها غاية الدرجة .

« ويقول صاحب الفهم الدقيق ، الغائص على درر الحكم بما استوجب هذا : هذه الخلعة من الملك ، فينظر في قدر الخلعة وصنفها من الثياب .

« فيعلم منها قدر من خلعت عليه .

« فيعثر على علم لم يحصل لغيره ممن لا علم له بمثل هذا » .

قال القاشاني :

« وهو أن ظاهر الكلام بقدر أدنى الفهوم .

« وباطنه وحقائقه ولطائفه بقدر أعلاها .

« كما قال عليه الصلاة والسلام (ما من آية ، إلا ولها ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع) » .

قال ابن العربي :

« ولما علمت الأنبياء والرسل والورثة أن في العالم من أمتهم من هو بهذه المثابة .

« عمدوا في العبارة الى اللسان الظاهر .

« الذي يقع فيه اشتراك الخاص والعام .

« فيفهم منه الخاص ما فهم العامة منه وزيادة ، مما صح له به اسم أنه خاص .

« فيتميز عن العامي .

« فاكتفى المبلغون العلوم بهذا .

« فهذا حكمة قوله — ففررت منكم لما خفتكم —

« ولم يقل — ففررت منكم حباً للسلامة والعافية » .

قال القاشاني :

« يعني أن قوله لما خفتكم لفهم العامة .

« فإنهم لا ينظرون إلا في السبب القريب ، لا في الحقيقة كما ذكر » .

قال ابن العربي :

« فجاء إلى مدين .

« فوجد الجاريتين .

« فسقى لهما من غير أجر .

« ثم تولى الى الظل الالهي فقال :

« — رب اني لما أنزلت إليّ من خير فقير —

« فجعل عين عمله السقي عين الخير ، الذي أنزل الله اليه .

« ووصف نفسه بالفقر إلى الله في الخير الذي عنده[١] » .

قال القاشاني :

« لأنه عليه السلام تحقق أن له عند الله خيراً نزل اليه .

« وقد أنزل الله هذا الخير : أي عمل السقي اليه ، فإنه خير في نفسه ، فعرض حاجته الى الله في الخير الذي عنده مطلقاً أو من الدنيا :

« أي إني لأجل الذي أنزلت إلي من خير الدين فقير اليك فيه أو من الدنيا .

« قال ذلك شكراً لله ، وإظهاراً للرضا بالخير الديني ، من الخير الدنيوي أي بدله » .

قال ابن العربي :

« فأراه الخضر اقامة الجدار من غير أجر .

« فعتبه على ذلك ، فذكره بسقايته من غير أجر .

« إلى غير ذلك بما لم يذكر .

« حتى تمنى صلى الله عليه وسلم أن يسكت موسى عليه السلام ولا يعرض .

« حتى يقص الله عليه من أمرهما » .

قال القاشاني :

« روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : (ليت أخي موسى سكت حتى يقص الله علينا من أنبائهما) .

---

(١) شمشمانية عالية علواً عجيباً .. من ابن العربي !..
أعني قوله « ثم تولى إلى الظل الإلهي » !..
أفق أعلى .. مما ذهب اليه المفسرون أنه تولى الى ظل شجرة !..
فنقلها ابن العربي .. الى أفق « الظل الإلهي » .. فانظر مدى البعد بين الافقين ؟!
وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء !..

« وروى عن الشيخ قدس سره : أنه اجتمع بأبي العبـــاس الخضر عليه السلام ، فقال :

« كنت أعددت لموسى بن عمران ألف مسألة مما جرى عليه من أول ما وُلد إلى زمان اجتماعه فلم يصبر على ثلاث مسائل منها » .

قال ابن العربي :

« تنبيها لموسى من الخضر .

« ان جميع ما جرى عليه ويجري انما هو بأمر الله وإرادته الذي لا يمكن وقوع خلافه .

« فان العلم بها من خصوص الولاية .

« وأما الرسول فقد لا يطلع عليه فانه سر القدر .

« ولو اطلع عليه لربما كان سبب لفتوره عن تبليغ ما هو مأمور بتبليغه.

« فطوى الله علم ذلك عن بعض الرسل رحمة منه بهم .

« ولم يطوه عن نبينا صلى الله عليه وسلم لقوة حاله .

« ولهذا قال – أدعو الى الله على بصيرة –

« فيعلم بذلك ما وفق اليه موسى عليه السلام من غير علم منه .

« إذ لو كان عن علم ما انكر مثل ذلك على الخضر .

« الذي قد شهد الله له عند موسى وزكاه وعدله .

« ومع هذا غفل موسى عن تزكية الله له ، وعما شرط عليه في اتباعه .

« رحمة بنا اذا نسينا أمر الله .

« ولو كان موسى عالما بذلك لما قال له الخضر – ما لم تُحط به خُبرا –

« أي اني على علم لم يحصل لك ذوق كما أنت على علم لا أعلمه أنا، فانصف.

« وأما حكمة فراقه فلأن الرسول يقول الله فيه – وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا –

« فوقف العلماء بالله الذين يعرفون قدر الرسالة والرسول عند هذا القول» .

« أي لزموه وامتثلوه ولم يتجاوزوا عنه » .

قال ابن العربي :

« وقد علم الخضر أن موسى رسول الله .

« فأخذ يرقب ما يكون منه ليوفي الأدب حقه مع الرسل .

« فقال له – ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني –

« فنهاه عن صحبته .

« فلما وقعت منه الثالثة قال – هذا فراق بيني وبينك –

« ولم يقل له موسى : لا تفعل .

« ولا طلب صحبته .

« لعلمه بقدر الرتبه التي هو فيها ، التي أنطقته بالنهي عن أن يصحبه .

« فسكت موسى .

« ووقع الفراق .

« فانظر إلى كمال هذين الرجلين في العلم وتوفية الأدب الالهي حقه .

« وإنصاف الخضر عليه السلام فيما اعترف به عند موسى حيث قال :

« أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت .

« وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا .

« فكان هذا الاعلان من الخضر لموسى دواء لما جرحه به في قوله – وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا –

مع علمه بعلو مرتبته بالرسالة ، وليست تلك الرتبة للخضر .

« فظهر ذلك في الأمة المحمدية في حديث آبار النخل .

« فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه (أنتم أعلم بأمور دنياكم) .

« ولا شك أن العلم بالشيء خير الجهل به .

« ولهذا مدح الله نفسه بأنه بكل شيء عليم .

« فقد اعترف صلى الله عليه وسلم لأصحابه بأنهم أعلم بمصالح الدنيا منه .

« لكونه لا خبرة له بذلك .

« فانه علم ذوق وتجربة .

« ولم يتفرغ عليه الصلاة والسلام لعلم ذلك .

« بل كان شغله بالأهم فالأهم .

« فقد نبهتك على أدب عظيم تنتفع به ان استعملت نفسك فيه » .

قال القاشاني :

« اعلم أن الخضر عليه السلام صورة اسم الله الباطن .

« ومقامه مقام الروح .

« وله الولاية ، والغيب ، وأسرار القدَر ، وعلوم الهوية ، والإنية ، والعلوم اللدنية .

« ولهذا كان محتد ، ذوقه الوهب والإيتاء .

« قال تعالى – فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً –

« ولكماله في علم الباطن لما بَين لموسى عليه السلام تأويل ما لم يستطع عليه صبراً من الوقائع الثلاث .

« قال في الأولى – فأردتُ أن أعيبها – بالتقييد والإخبار عن تخصيص إرادته ببعض ما في باطنه من معلوماته .

« وفي الثانية – فأردنا أن يُبدلهما ربهما خيراً منه زكاة – لجمع الضمير في الإرادة .

« وفي الثالثة – فأراد ربك – بتوحيد الضمير والإخبار عن الإرادة الربانية الباطنة .

« كل ذلك إشارة منه الى سر التوحيد وأحدية الإرادة والتصرف والعلم في الظاهر والباطن ، عن ذوق وخبرة .

« وأن الذي ظهر من الصفات الثلاث هي عين الصفات القديمة الباطنة من غير تعدد بحسب الحقيقة .

« وهو من أسرار علوم الولاية .

« وأما موسى عليه السلام فهو صورة اسم الله الظاهر .

« ومقامه مقام القلب .

« وله علوم الرسالة والنبوة والتشريع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحكم بالظاهر .

« ولذلك كانت معجزاته في غاية الوضوح والظهور .

« فلما أراد الله تكميل موسى بالجمع بين التجليات الظاهرة والباطنة ، وعلوم نبوة وما في استمداده من علوم الولاية .

« فكان موسى قد ظهر بين قومه بدعوى أنه أعلم أهل الأرض ، وذلك في ملأ من بني اسرائيل .

« فأوحى الله اليه : بل عبد لنا بمجمع البحرين .

« أي بين بحري الوجوب والامكان .

« أو مجري الظاهر والباطن .

« أو مجري النبوة والولاية .

« فاستحى موسى من دعواه .

« فسأل الله أن يقدّر الصحبة بينهما .

« واستأذن في طلب الاجتماع حتى يعلمه مما علمه الله .

« فلو آثر صحبة الله ، وأخذ علم الولاية منه لأغناه الله عن اتباع الخضر .

« فلما وقع الاجتماع ظهر النزاع .

« لمـــا بين الظهور من حيث الظهور ، والبطون من حيث البطون ، من المغايرة والمباينة .

« فلذلك وقع بينهما الفراق بعد حصول ما قدر الله إيصاله اليه بصحبة الخضر من العلم .

« ولا بد للمحمدي من الجمع بين الظاهر والباطن اتباعاً لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم » .

قال ابن العربي :

« وقوله – فوهب لي ربي حُكما – يريد الخلافة .

« – وجعلني من المرسلين – يريد الرسالة .

« فما كل رسول خليفة .

« فالخليفة صاحب السيف والعزل والولاية .

« والرسول ليس كذلك .

« انما عليه البلاغ لما أرسل به .

« فان قاتل عليه وحماه بالسيف فذلك الخليفة الرسول » .

« فكما أنه ما كل نبي رسول ، كذلك ما كل رسول خليفة .

« أي ما أعطى المـُلك ولا التحكم فيه » .

قال ابن العربي :

« وأما حكمة سؤال فرعون عن الماهية الالهية بقوله– وما رب العالمين–؟

« فلم يكن عن جهل ، وإنما كان عن اختبار حتى يرى جوابه مع دعواه الرسالة عن ربه .

« وقد علم فرعون مرتبة المرسلين في العلم بالله ، فيستدل بجوابه على صدق دعواه .

« وسأل سؤال ايهام من أجل الحاضرين .

« حتى يعرفهم من حيث لا يشعرون بما شعر هو في نفسه في سؤاله .

« فأجابه جواب العلماء بالامر .

« أظهر فرعون ابقاء لمنصبه أن موسى ما اجاب على سؤاله .

« فيتبين عند الحاضرين لقصور فهمهم ان فرعون أعلم من موسى .

« ولهذا لما قال له في الجواب ما ينبغي .

« وهو في الظاهر غير جواب على ما سئل عنه .

« وقد علم فرعون انه لا يجيبه إلا بذلك .

« فقال لأصحابه – ان رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون –

« أي مستور عنه علم ما سألته عنه .

« إذ لا يتصور ان يعلم أصلاً .

« فالسؤال صحيح ، فان السؤال عن الماهية سؤال عن حقيقة المطلوب .

« ولا بد أن يكون على حقيقة في نفسه .

« وأما الذين جعلوا الحدود مركبة من جنس وفصل ، فذلك في كل ما يقع فيه الأشتراك .

« ومن لا جنس له لا يلزم ان لا يكون على حقيقة في نفسه لا تكون لغيره .

« فالسؤال صحيح على مذهب أهل الحق والعلم الصحيح والعقل السليم .

« فالجواب عنه لا يكون إلا بما أجاب موسى .

« وههنا سر كبير .

« فانه اجاب بالفعل لمن سأل عن الحد الذاتي .

« فجعل الحد الذاتي عين اضافته الى ما ظهر به من صور العالم .

« أو ما ظهر فيه من صور العالم .

« فكأنه قال له في جواب قوله – وما رب العالمين – ؟

« قال الذي يظهر فيه صور العالمين .

« من علو وهو السماء .

« وسفل وهو الأرض .

« – ان كنتم موقنين – أو يظهر هو بها .

« فلما قال فرعون لأصحابه – انه لمجنون – كما قلنا في معنى كونه مجنونا .

« زاد موسى في البيان ليعلم فرعون رتبته في العلم الالهي .

« لعلمه بأن فرعون يعلم ذلك فقال – رب المشرق والمغرب –

« فجاء بما يظهر ويستر .

« وهو الظاهر والباطن وما بينهما .

« وهو قوله – وهو بكل شيء عليم – » .

قال القاشاني :

« أي بما ظهر من عالم الأجسام والخلق .

« وما بطن من عالم الأرواح والأمر .

« وما بـــين الظاهر والباطن من التعينات والشؤون الجامعة بين الأرواح والأجسام .

« فإن المشرق للظهور ، والمغرب للبطون .

« وهو الحق الظاهر المتعين بجميع ما ظهر بإشراق نوره وإطلاق ظهوره .

« وهو الباطن المتعين بجميع ما بطن في غيب عينه وعين حضوره ، بعلمه بما بينهما من النسب والتعينات التي ليست إلا في حيز العلم » .

قال ابن العربي :

« – ان كنتم تعقلون –

« أي ان كنتم أصحاب تقييد .

« فان للعقل التقييد .

« فالجواب الأول جواب الموقنين .

« وهم اهل الكشف والوجود فقال له – ان كنتم موقنين –

« أي اهل كشف ووجود ، فقد أعلمتكم بما تيقنتموه في شهودكم ووجودكم .

« فان لم تكونوا من هذا الصنف فقد أجبتكم في الجواب الثاني ، ان كنتم أهل عقل وتقييد .

« وحصرتم الحق فيما تعطيه أدلة عقولكم .

« فظهر موسى بالوجهين .

« ليعلم فرعون سؤاله وصدقه .

« وعلم موسى أن فرعون علم ذلك ، أو يعلم ذلك ، لكونه سأل عن الماهية .

« فعلم ان سؤاله ليس على اصطلاح القدماء في السؤال بما .
« فلذلك اجاب .
« فلو علم منه غير ذلك لخطأه في السؤال .
« فلما جعل موسى المسئول عنه عين العالم ، خاطبه فرعون بهذا اللسان .
« والقوم لا يشعرون .
« فقال له – لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين – والسين في السجن من حروف الزوائد : أي لأسترنك .
« فانك اجبت بما أيدتني به ان اقول لك مثل هذا القول » .
« المراد بهذا اللسان لسان الإشارة .
« فإن فرعون كان غالياً من غلاة الموحدة ، عالياً من المسرفين في دعواه .
« من جملة ما قال عليه الصلاة والسلام عنه (شر الناس من قامت القيامة عليه وهو حي) .
« أي وقف على سر التوحيد ، والقيامة الكبرى ، قبل فناء أبنيته ، وموته الحقيقي في الله .
« وهو يدعي الإلهية بتعينه .
« ويدعو الخلق إلى نفسه .
« لتوحيده العلمي ، لا الشهودي الذوقي » .
قال ابن العربي :
« فان قلت لي .
« فقد جهلت يا فرعون ، بوعيدك اياي ، والعين واحدة ، فكيف فرقت .

« فيقول فرعون : انما فرقت المراتب ، ما تفرقت العين ، ولا انقسمت في ذاتها .

« ومرتبتي الآن التحكم فيك يا موسى بالفعل .

« وأنا انت بالعين .

« وغيرك بالرتبة .

« فلما فهم ذلـــك موسى منه ، أعطاه حقه في كونه يقول له لا تقدر على ذلك .

« والرتبة تشهد له بالقدرة عليه ، وإظهار الأثر فيه .

« لأن الحق في رتبة فرعون من الصورة الظاهر لها التحكم على الرتبة التي كان فيها ظهور موسى في ذلك المجلس .

« فقال له ، يظهر له المانع من تعديه عليه — أو لو جئتك بشيء مبين — ؟

« فلم يسع فرعون إلا أن يقول له — فأت به ان كنت من الصادقين —

« حتى لا يظهر فرعون عند الضعفاء الرأي من قومه بعدم الانصاف ، فكانوا يرتابون فيه .

« وهي الطائفة التي استخفها فرعون فأطاعوه — انهم كانوا قوما فاسقين—

« أي خارجين عما تعطيه العقول الصحيحة من انكار ما ادعاه فرعون باللسان الظاهر في العقل .

« فان له حدّا يقف عنده إذا جاوزه صاحب الكشف واليقين .

« ولهذا جاء موسى في الجواب بما يقبله الموقن والعاقل خاصة —

« — فألقى عصاه — وهو صورة ما عصي به فرعون موسى ، في ابائه عن اجابة دعوته .

« – فاذا هي ثعبان مبين –

« أي حية ظاهرة .

« فانقلبت المعصية التي هي السيئة طاعة أي حسنة » .

قال القاشاني :

« اشارة الى أن النفس في سنخها وطبعها العصيان للقلب والروح .

« لكن لما راضها عليه السلام بقمع هواها حتى صارت بإماتة قواها وقهر هواها الذي هو روحها كالنفس النباتية في الطاعة ، تشبهت بالعصا بعد كونها مركباً حروناً ، فإذا اطمأنت صارت معصيتها طاعة ، وسيئاتها حسنة ، فكل ما أمرها به موسى امتثلت ، وآلت الى هيئة ما أراد منها » .

قال ابن العربي :

« كما قال الله تعالى – يبدل الله سيئاتهم حسنات – يعني في الحكم » .

« أي سيئاتهم في حُكم حسناتهم .

« لأنها إن غضبت وقهرت ، أو حلمت وتلطفت كانت بأمر الحق .

« فكل حركاتها وأفعالها وإن كانت في صورة الفساد ، كانت عين الصلاح .

« ألا ترى الى قوله تعالى – ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله – » .

« فظهر الحكم هنا عينا متميزة في جوهر واحد » .

« أي تأصل حكم الله فيها وترسخ حتى صار الحكم لكمال طاعتها بالطبع فيها عيناً .

« فكما أمرت تمثلت وتجسدت بصورة الحُكم .

« فكمل حكم عليها عين متميزة عن نظيرتها الى صورة حكم آخــــر ، في جوهر واحد » .

« فهي العصا » .

« في صورة الحُكم » .

« وهي الحيّة » .

« في صورة حُكم آخر » .

« والثعبان الظاهر » .

« كذلك » .

« فالتقم أمثاله من الحيات .

« من كونها حية .

« والعصا من كونها عصا » .

« لأنها متأيدة بتأييد الحق ، متنورة بنور القدس .

« فبأي شبهة تمسك فرعون وقومه ، أبطلها ببرهان نير من جنسها » .

قال ابن العربي :

« فظهرت حجة موسى على حجج فرعون .

« في صورة عصا وحيات وحبال .

« فكانت للسحرة حبالا ، ولم يكن لموسى حبل .

« والحبل التل الصغير .

« أي مقاديرهم بالنسبة الى قدر موسى بمنزلة الحبال من الجبال الشامخة .

« فلما رأت السحرة ذلك ، علموا رتبة موسى في العلم .

« وان الذي رأوه ليس من مقدور البشر .

« وإن كان من مقدور البشر فلا يكون إلا ممن له تمييز في العلم المحقق عن التخيل والايهام .

« فآمنوا – برب العالمين رب موسى وهارون –

« أي الرب الذي يدعو اليه موسى وهارون .

« لعلمهم بأن القوم يعلمون انه ما دعا لفرعون .

« ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت .

« وأنه الخليفة بالسيف .

« وإن جار في العرف الناموسي .

« لذلك قال – أنا ربكم الأعلى –

« اي وإن كان الكل أربابا .

« فأنا الأعلى منهم .

« بما أعطيته في الظاهر من التحكم فيكم .

« ولما علمت السحرة صدقه فيما قال لم ينكروه .

« وأقروا له بذلك .

« فقالوا – فاقض ما أنت قاض انما تقضي هذه الحياة الدنيا –

« فالدولة لك ، فصح قوله – أنا ربكم الأعلى –

« وإن كان عين الحق ، فالصورة لفرعون » .

« أي وإن كان الرب الأعلى مطلقاً هو عين الحق ، فإنه تعالى بأحديته الذاتية والأسمائية ، ظاهر في كل صورة ، بقدر قابليتها .

« فله أحدية جميع الربوبية الأسمائية في الكل بالحقيقة .

« لكن الصورة القابلة لما قبلها من المعاني صورة فرعون » .

قال ابن العربي :

« فقطع الايدي والارجل .

« فصلب بعين حق ، في صورة باطل .

« لنيل مراتب لا تنال إلا بذلك الفعل » .

« مثل المهابة والسلطنة وإلقاء الرعب في قلوب النـــاس ليسخروا وينقادوا لحكمه » .

قال ابن العربي :

« فان الأسباب لا سبيل الى تعطيلها .

« لأن الاعيان الثابتة اقتضتها .

« فلا تظهر في الوجود إلا بصورة ما عليهٔ في الثبوت .

« إذ – لا تبديل لكلمات الله –

« وليست كلمات الله سوى أعيان الموجودات ، فينسب اليه القدم من حيث ثبوتها ، وينسب اليها الحدوث من وجودها وظهورها .

« كما تقول : حدث عندنا اليوم انسان أو ضيف .

« ولا يلزم من حدوثه أنه ما كان له وجود قبل هذا الحدوث .

« ولذلك قال الله تعالى في كلامه العزيز في إتيانه مع قدم كلامه – ما يأتيهم من ذكر محدث إلا استمعوه وهم يلعبون – و – ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين –

« والرحمن لا يأتي إلا بالرحمة .

« ومن أعرض عن الرحمن استقبل العذاب الذي هو عدم الرحمة » .

ثم يقول الشيخ الأكبر .. في ختام كلامه :

« وأما حكمة التجلي والكلام في صورة النار .

« فلأنها كانت بغية موسى .

« فتجلى له في مطلوبه .

« ليقبل عليه ولا يعرض عنه .

« فانه لو تجلى له في غير صورة مطلوبه أعرض لاجتماع همته على مطلوب خاص .

« ولو أعرض لعاد عمله عليه .

« فأعرض عنه الحق .

« وهو مصطفى مقرب .

« فمن قربه أنه تجلى له في مطلوبه وهو لا يعلم .

* * *

هذا ما أثبتناه .. من كلام ابن العربي .. وشرح القاشاني عليه ..

وقد حذفنا من كلامهما .. شيئاً قليلاً .. قد يُفهم على غير وجهه .. من بعض القراء الذين لا صبر لهم .. على ابن العربي .. ومَن ذهب مذهبه ..

وكما قلنا .. انها مجرد آفاق عليا .. تضيف الى الكتاب .. نوعاً جديداً من التفكير .. يختلف عن الأسلوب المكرر الذي يُورث النفوس السآمة ..

أما ما ذهب اليه ابن العربي .. فإنه ليس ملزماً لأحد ..

فإن شئت أقررته ..

وإن شئت خالفته ..

فلا تثريب عليك !..

﴿ تم ﴾

« سبحانك اللهم وبحمدك ..

أشهد أن لا إله إلا أنت ..

أستغفرك وأتوب اليك » ..

فهرس

صفحة	الموضوع

الموضوع	صفحة